اليتيم

إبراهيم حسون

رواية

إبراهيم حسون

اليتيم

رواية

لوحة الغلاف والتصميم للمؤلف

اليتيم ...

هو من لا يشبه أحداً

ولا أحد يشبهه

هو إله ...

لذلك آلهتنا لم تبقِ لنا ما نخاف عليه

الاهداء

إلى والدي الذي غادر قبل أن نتعارف

إلى أمي .. التي غادرت ولم تغادر

التي إلى الآن .. أحاول التعرف عليها

التي عاشت ثمانين , ولم تعش أبداً

صاحبة الجرح .. الذي حفر عميقا في الروح

ينزّ .. ينزّ .. وإلى أن تغادر

(0)

إلى دروب ..

تسكنها الأطلال و العتمة

يأخذك الحنين

إلى معارج الأحلام

يقودك قيء الكون

وتعود للحلم

بعشق الغجرية ..

التي من دم ونار وجنون

من نرجس وبنفسج

وياسمين ودحنون

وقمح وسعتر

ومناديل أمهات

وحضن حنون

صامتا تمضي

إلى فسحات الكلام

في حقائبك ..

هل بقي ما يستأهل العيش ؟ ..

للأحلام

ليغفو الوجع

هل بقي نوافذ ؟...

لتهرّب زغاريد الوهم ..

وأعراس السراب

ملّك الركض

وهذا التعب ..
أنهكه جسدك المتعب

أوراقك الصفر ..

ملّتها الريح

وهذا الحبر الدموي

يعوي في طاحون مقفرة

وبحرك , لا شطآنَ لأمواجه

شمسك لا مشرق لها

أفقك لا ربَّ له

تمتد صحاريك حدود الله

قرنفلك يهيم على وجهه

عطره مثلوم

و حنينك ....

على المفارق ..

تجثو له الذئاب

وهذا قميص رقصك

خلاخل في اليدين

خلاخل في القدمين

خلاخل للفم

خلاخل للعينين

وخلاخل للمقصلة

وتبتسم , لا بل .. تضحك للمسألة

أطعموك الخوف

وأمّنوك على الجوع

مصلوب بين رغيف الذل

وجوع الكرامة

أنت .. بين جبلين ..

وترٌ مشدودٌ للعزف

(مُعلقة الكسعي) ..

أو سراب اليمامة

تعتقد ؟...

تكفي رجلاك للركض

قبل أن يغادر النقاء الثلج

قبل أن يجف قلب العشب من البكاء

قبل أن ينطفئ بؤبؤ القنديل

وتسكت النواعير عن نوح الحمامة

اعتقدت ؟...

أن امرأتك من شهد ونحل

وعوسجك لا أظافر له

لا أماً لك يغتالها القهر

لا أباً تدهسه الهزيمة

لا غنائك .. تراتيل الفاجعة

لا خوف فيك .. أخطبوط يحاصر الأفق

لا نزيف ... يقطع وريد الحلم

لا نار تقتات ألسنة البوح والحقيقة

يا أنا .. يا أنت .. يا كلنا ....

كل المناديل غادرت .. أونسّتْ ..

أو صارت أطلالا ...

فمن يأوي دمعك ؟

وأين ستنشر قلبك ؟

والجفاف نشر ثيابه في كل مكان

والعسس يفتشون بين الأضراس

ينتشرون في أنفاس الليل

يرتلون صهيل السياط

وآيات الغيلة

يا مفرداً بصيغة الجموع ...

منسوخ ..

على رغيف الخبز المغمّس بالدم

وعلى أوردة الحلم

وعلى امتداد أفق المستحيل

على شرفات الأمل والانتظار

على ساق محروقة ...

إلى أن تقف الساعة

ألا أيها المطر فاشهد ...

إنا انتظرنا ...

وما زلنا نفتح شبابيكنا

اعتقادنا

صدورنا

وللصبح نشحذ الحنجرة

كانت عشيات القحط

تمنحنا فرصة الغناء والبكاء

لم يعد لدينا ما نغني له أو نبكي عليه

اعتدنا كل شيء

لم يعد الجرح يدمي

لم تبق جذوع للأشياء

اعتدنا فراش الخيبة

يا نحن ....

هل بقي وقت للانتظار ؟

هل يوقظنا الحنين من جديد

إلى العشق ...؟

إلى امرأة مازالت تتبرعم

وتحلم .. بالغيم والمطر

ودروبٍ ...

وشوارع ...

جديدة

والدتي الحبيبة ...

كما وعدتك , سأكتب لك كل يوم , وسأفصل لك على قدر ما أستطيع . صحيح أنا غريب .. غريب كثيرا ولكن صدقيني أحسّ أنني أعرف هذه الأماكن وأشعر بحب غريب يشدني إليها .. يا أمي رائحة الحضارة تملأ الأماكن وتعبق بالروح .. البنايات العالية , الجميلة , الأنيقة .. على أطراف بساتين الليمون , الشرفات مملوءة بالورود والزهور الساحرة .. في الصباحات والمساءات تعج بالناس .. وخاصة النساء .. نساء .. زنودهن بيض .. بيض كزهر الفل .. أراهن وأنا ذاهب إلى الساحة .. ساحة

انطلياس .. وأراهن من الساحة .. هن بعيدات , ولكنني أراهن .. أراهن جداً , بل وأشم رائحة الأنوثة .. وأمتلئ بها , والذي لا أراه أتخيله . بعد الساحة , إلى اليمين باتجاه البحر , كنيسة , يتوافد إليها الناس بثيابهم الجميلة النظيفة الأنيقة ينزلون من سياراتهم الفخمة المدهشة .. كأن الله أنشأ للنساء اللواتي خلقهن هنا مصنعاً خاصاً بهن .. فكلهن طويلات ممشوقات القوام كالحور .. سيقانهن كالثلج , طويلة ومكشوفة لما بعد الركبة .. تجعل كل شيء يبتهج .. وينتشي ويحب الحياة ويشتهيها , السيارات كبيرة ومتنوعة - أبو جورج سائق السيارة التي أقلتنا - قال لنا قبل أن نصل إلى ساحة انطلياس

: اليوم أحد .. تدبروا أموركم بالسكن وغداً بكروا إلى هذه الساحة .. كل العمال يأتون إلى هنا , وكل الخواجات إلى هنا يأتون ليأخذوا العمال

أبو أكرم .. سوري .. يستأجر غرفة كبيرة ومعها مطبخ وحمام .. فرشها بقطع الاسفنج كل اسفنجة تتسع لشخص واحد , فوقها حرام ومخدة موزعة على كامل أرض الغرفة وفي الوسط فسحة صغيرة لطبق الطعام .. يؤجر هذه الاسفنجات للعمال القادمين قبل أن يتعرفوا على المنطقة ويستقلوا بأنفسهم , ومنهم من كان يبقى حتى يغادر . أبو أكرم .. معروف لدى الجميع وأخذنا عنوانه

من الضيعة .. أبو صالح قال لنا - عندما تنزلون من تكسي أبو جورج بساحة انطلياس تأخذون الطريق الطالعة .. اسألوا .. من يسأل لا يتوه .. على طرف الساحة مطعم لحم بعجين ومناقيش جبنة وزعتر .. كل الذين يشتغلون فيه سوريون ومن هذه الضيع .. كبيرهم , شيخ المعلمين .. من هنا .. من قمة النسر , وهو خلوق جداً .. اسألوهم عن الطريق وعن أبو أكرم هم يدلونكم -

عندما وصلنا كان أبو أكرم يجلس أمام الغرفة على كرسي خيزران - رجل خمسيني يوحي لك أنه قرف منك ومن كل الكون - سألناه بعد السلام

.. عم .. لديك متسع لنسكن عندك ؟

- نعم عندي .. اسفنجتين تلاصقونهما على بعض وتنامون أنتم الثلاثة .. وكل شهر تدفعون عن فرشتين فقط .. كل فرشة ليرتين , وهكذا توفرون ليرتين , آخر الاسبوع تدفعون عن كل الشهر أربع ليرات تتقاسمونها أنتم الثلاثة .. أنتم من أي ضيعة .. أولاد من أنتم ؟

- أجابه يوسف

: ايه أعرف أهلكم .. أهلا وسهلاً

- ومشى أمامنا -

: هذه هي الاسفنجتان - وضمهما - تتسع لكم

همستُ لهم

: ما رأيكم ان نضع أغراضنا ونذهب نكتشف المنطقة ؟

تركنا وأدار لنا ظهره وراح ..

: علّموا الأماكن التي سنمر بها كي نستطيع العودة

لم تكن المنطقة مجهولة لدرجة أن يضيع فيها الإنسان , مرتفعة ومكشوفة وتحسّ أنك تعرفها , رحنا لا ندري إلى أين , مبهورين بكل شيء , بالناس بالأرض بالسماء بالشوارع بالأبنية بالبيوت المسقوفة بالقرميد , وخاصة تلك التي على السفوح المقابلة و هي أدنى منا , زُرعت بين بساتين الليمون وأشجار الصنوبر الأخضر بمنتهى العشق والجمال , تبدو لك كأنها قطعة صنعها الخيال .. يا أمي كل شيء هنا مختلف .. مشينا إلى كوع قبيزي .. هكذا قالت لنا امرأة عجوز تدير دكاناً عرفنا فيما بعد أنه دكان ماري .. يتفرع من هناك طريق يتجه شرقاً – قالت العجوز .. إلى نبع الفوار والكازينو .. ويستدير بشكل نصف دائرة .. قالت .. إلى الرابية وبكفيا ....

وبدون أي كلام اتجهنا شرقا .. ربما لأن الطريق مستوٍ يلتوي مع طبيعة السفح الذي يشرف على وادي نبع الفوار

, كان الصمت سيّداً .. سيّدنا نحن الثلاثة , خرق صمتنا صوت من الخلف

: ايه.. ايه .. إلى أين.. ؟ ما الذي أتى بكم..؟ أهلاً وسهلاً .. أهلاً (بالغلا)
التفتنا .. كان خليل - خليل بكور من خربة الوادي الملاصقة لضيعتنا - سلم بحرارة -
: أهلاً .. أهلاً .. متى أتيتم ؟ كيف أحوالكم ؟ كيف الأهل والضيعة ؟

يا لطيف كم أنا سعيد برؤيتكم ؟ رائحة الأهل والضيعة

لم ينتظر حتى نرد .. رش كل ذلك دفعة واحدة ..وتابع

: إلى أين الآن ؟

- أجبته (هيك) على هذه الطريق .. وتابعت .. إلى أين تذهب هذه الطريق .. إلى أين تصل ؟

نظر إلي مبتهجاً , وعلامات التشاوف تفزّ من كل مسامٍ في وجهه - وأنا يا أمي .. بمنتهى الصدق كنت مبهوراً به .. متسائلاً .. خليل .. المشهور بغبائه .. الذي كان أينما وجد , يسهرون عليه , مسخرة وتهكماً .. كيف يستطيع العيش هنا ؟! في هذا العالم الذي لا يستطيع الحالم .. الشاعر .. الرسام .. تخيل ما أراه .. كيف يستطيع العودة

إلى البيت الذي يسكنه ؟! كيف يستطيع عبور الشارع والسيارات كقطيع الغنم ؟! وبصراحة يا أمي هنأته من قلبي وبمنتهى الصمت , أجاب وابتسامة تشق حنكه

: هذي الطريق , تذهب إلى كازينو فوار انطلياس ومن هناك تلفّ وتغرّب إلى حارة الغوارني وجل الديب - كل ذلك الشرح بلكنة شبه لبنانية وبعض الكلمات متل (هيدي) و(ومنهونيك) تظاهرت .. بل حاولت .. إظهار عدم الاستغراب واللامبالاة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

تابع خليل .. تفضلوا معي الآن .. نأكل ونرتاح قليلا ونرى كيف نستطيع مساعدتكم

رحنا معه , أخذنا في نفس الطريق الذي أتينا منه وقبل أن نصل (فندق) غرفة أبو أكرم انعطف إلى اليمين , وكل الطريق يشرح ويسترسل وبصوت عالٍ , حتى المارة كانوا ينتبهون , وأغلبهم يبتسم ..هذي الطريق من هنا من هذا الكوع تذهب إلى الرابية وجورة البلوط وبكفيا وبرمانا .. وهذي ماري ودكانها

:(العوافي يا ستنا)

:وترد ماري العجوز .. اهلاً خليل أهلاً ويتابع .. ماري تعرف كل السوريين وتعرف أسماء زوجاتهم وأولادهم .. ماري تعرف أسماء ضيعنا اكثر منا .. (وك).. صارت

تعرف أسماء الدايات اللواتي قطعن السرة بالضيع .. منذ يومين قالت لعزيز البور ..وهي تمازحه

(انت ستك سعدي) قال لها .. (كيف يعني ستي) وكان يختبرها فقالت له

(يا عزيز ألا تنادون من تقطع حبل السرة عندما تولدون ستي ؟)

أجابها (والله صحيح كيف عرفتِ ؟ الله يرحمها .. هي ست أغلب أولاد الحكر)

من عندها يشتري كل السوريين ويحبونها وهي تُؤمنهم وتحبهم .. أنا أدخل وآخذ ما أريده وأروح , ومتى أشاء أعود و أعطيها .. يا أخي هنا ثقة .. الذي يثقون به يصير ملكاً .. أنا الآن .. أشتغل في برمانا في مطعم (أنا الكل بالكل) صاحب المطعم وكّلني على كل شيء .. أنا أأمرهم كلهم .. أنت رُحْ .. أنت (ساوي) هكذا .. وأنت اعمل كذا .. وشادي يشتغل في فرن في جل الديب في الليل .. نذهب مع الغروب ونعود عند الفجر .. أنام للظهر .. وشادي ينام لما بعد الظهر .. يا أخي أنا لا أستطيع النوم كثيراً .. أحيانا يطلب مني إيقاظه .. لأن زوجة معلمه تريده .. قال لي إنها تحبه كثيراً , وعندما

تذهب إلى أي مكان تأخذه كمرافق لها .. وقال إنها لا تتشهد إن لم يكن معها

تجرأ يوسف وقاطعه

: هي مسلمة ؟

رد بسرعة

: لا .. هنا كلهم مسيحيون أنا أقول .. مثلاً .. مثلاً .. كما يقولون

لم يطبق فمه لحظة واحدة ونحن نسير خلفه صامتين

دخلنا من باب رئيسي عريض , البناء من خمس طوابق أمامه سيارات كثيرة فخمة .. قاطعته بتعجب ندمت عليه

: (يا لطيف يا ابو الخل ما احلاهن هالسيارات)

: هنا كل واحد عنده سيارة , الأم عندها سيارة , والبنت عندها سيارة , والصبي عنده سيارة , والأب عنده أكثر من سيارة , وكله أمريكي وألماني .. أترى هذه السيارة الصغيرة الناعمة , هي للنسوان والبويك والمرسيدس للرجال للخواجات وأولادهم .. انا أعرف كل أنواع السيارات , وصرت أعرف سوق .. ابن صاحب المطعم علمني السواقة هو يحبني كثيراً كثيراً .. انعطفنا خلفه إلى

اليسار ونزلنا درجاً طويلاً إلى أسفل البستان .. البناء على شبه تل , والبستان عبارة عن عدة مدرجات يبهر العين ما زُرع فيها من أنواع الأشجار والطريقة الأنيقة التي زُرعت بها العرائش .. والليمون وكل أنواع الفواكه , وفي أسفل البستان ثلاث غرف مسقوفة بالتوتياء والخشب , حيطان المدرجات , مبنية بطريقة فنية رائعة , تليق ببيوت وليس بحواكير أو كما يسمونها هنا (جلول) عرائش الدوالي على أعمدة حديد وعناقيد العنب تتدلى , كل عنقود يلاصق أخاه , الأبيض المائل للأصفر , والبني والأسود , الحبة الطويلة , والحبة الكروية , منظر يملأ الروح بهجة .

- (شايفين هذا الكرم) ؟ فيه كل شيء , وصاحب البيت يثق بنا جميعاً , هذي الثلاث غرف كل غرفة فيها اثنين لا يمكن أن نمد أيدينا ونقطف حبة عنب أو خوخة .. نشتري من الدكان - فتح الباب .. الغرفة عرضها ثلاثة أمتار , وطولها ثلاثة أمتار , على الأرض حصير وفوقه اسفنجتين على أحدهما ينام شادي عبدالله -

: شادي .. شادي .. قم .. قم (شوف) من معي .. قم .. ولكزه بقدمه .. ولكنه لم يفق

اعتقدت ونحن نسير خلفه في الطريق ربما يستطيع البعض منا أن يسكن معهما , ولكن الغرفة لا تتسع

لدجاجة اضافية .. تركنا الغرفة وخرجنا .. أمام الثلاث غرف ممر متر ونصف على طرفه مدماكين من البلوك جلسنا عليه نسقا وخليل بقي واقفاً أمامنا يقص ويحدث , حتى دخلت الحكايا والسير ببعضها لدرجة صار مستحيلا فكها عن بعضها وحتى خليل لا يستطيع , وتداخلت أسماء الأماكن حتى حسبته يتحدث عن كل الكون .. سأله حسن

: ألا تستطيع تأمين غرفة لنا نحن الثلاثة ؟

: هينة ..هينة .. الآن انت تنام مكاني أنا بعد قليل ذاهب إلى الشغل والشباب ينامون عند أبو أكرم وبكرا فرج

من البداية أحسست أنه سيأخذ معه حسن وسيتبناه .. وتذكرت أن قرابة تجمعهما .. وقررت أن أغادر ولا أدري إلى أين .. قلت أتابع في نفس الطريق المتجهة صوب نبع الفوار .. أكتشف المكان , خاصة بعد أن رأيت الشباب بدؤوا يتهامسون

: شباب أنا أريد أن أتمشّى قليلاً ونلتقي عند أبو أكرم

: انتبه أن تتوه أو تضيّع الطريق .. الغريب أعمى

: (ولا يهمك .. أخي خليل)

ذهبت في الطريق إلى حيث التقينا بخليل وتابعت شرقا , كان الطريق مستوياً , يتلوى مع السفح , معبداً , عريضاً , والسيارات الفارهة الفخمة تمر , أحد الاكتشافات المذهلة , والتي تصنّعتُ أنها طبيعية , أن بعض السيارات الفخمة تقودها سيّدات ,علمت من (العلّامة) خليل أن الطريق يصل إلى أمام كازينو فوار انطلياس ثم ينعطف جنوبا ثم غربا إلى جل الديب , في منتصف الطريق وقفت بقربي سيارة طويلة جداً وفخمة جداً , تقودها سيّدة شقراء تضع نظارات

- نهارك سعيد

اقتربت من شباك السيارة وانحنيت

: أهلاً وسهلاً

: أنت سوري ؟

: نعم يا سيّدتي

:عندي أغراض أريد إزاحتها .. تغيير أماكنها .. أتأتي بشاب معك وتذهبان معي ؟

: أنا أزيحها وحدي

: وحدك صعب .. إذهب وأتِ بشاب معك وأنا أعود بعد نصف ساعة إلى هنا

: يا سيّدتي .. جربيني .. أنا أزيحها وحدي.. جربي .. لن تخسري شيئا واذا لم أستطع أعود وآتي بمن يساعدني - صمتت قليلا -

: طيب اركب

وهنا كانت المعضلة أين سأركب ؟! في المقعد الخلفي أو الأمامي ؟ وبسرعة فتحت الباب الأمامي وركبت بجانبها , كانت ترتدي فستاناً قصيراً جداً وشمّرعن ساقين , كأن من صنعهما أبدعهما بمنتهى التأني والذوق والتذوق .. ينسدل فوق نهدين ككرتين من الثلج غطى قليلا منهما في غاية الحنو , اختلست ما استطعت النظر إلى نهديها وساقيها وفمها .. الذي يوقظ الأموات , لم أفكر إن كانت تنتبه لاختلاسي وتخيلاتي وأحلامي أم لا .. قطع علي وسواسي وخناسي , خناس داهمني فجأة , سببه أحد عمال القرية , عندما كان يروي مغامراته المتخيلة , كما أنا الآن .. وكيف كان يشطّ بخياله حدود المستحيل , فكنا نضحك منه ونتغامز عليه وعلى كذبه , وللحقيقة أغلب العمال الذين كانوا يسافرون كانوا يؤلفون الحكايا والقصص نفسها تقريباً , حتى صرنا نستطيع إكمال أي حكاية يبدؤونها , ما انتشلني من تخيلاتي وأحلامي بساقي ونهدي وفم ووو .. هذه السيدة , حكاية كررها أغلب هؤلاء (القحّيْصة) وهي أن بعض السيدات يعملن مع عصابات , يأخذن

الشباب بحجة العمل فيذبحونهم ويبيعون دمهم وخاصة الشباب الصغار , اجتاحني الخوف , وبدأ تأنيب الضمير يصفعني ؛ لسرعة استجابتي لهذه السيّدة , وتحولت تخيلاتي وتصوراتي لهذه السيدة .. بجسدها .. تحولت إلى .. كيف سيذبحونني ؟! وصرت أقنع نفسي أن كل ما سمعته هو كذب وقصص خيال , ككذبهم عن لقاءاتهم الجنسية وعن الشراب والطعام وذكّرت نفسي أنهم جميعاً كانوا يقولون سمعنا .. حُكيَ لنا .. وهم جميعاً على مدى هذه السنين كانوا يعودون ولم يختفِ منهم كذّاب واحد . كنت أحاول جاهداً .. ولكن الخوف يأخذك أغلب الأحيان حيث يشاء وخاصة أنك غريب .. غريب كسنديانة في صحراء , نبهني شدة ميلان السيارة وهي تنعطف على كوع شبه دائري .. قفز فجأة أمامي خليل , عندما رأيت لوحة كبيرة تضيء وتنطفئ كُتبَ عليها / كازينو فوار انطلياس / انحدرت في قلب الوادي , الطريق كان يرافق نهراً صغيراً هو نهر فوار انطلياس , ترجمت لي اللوحة المعلقة على باب الكازينو ذلك , عبرت جسراً صغيراً , واتجهت صعوداً .. بعد بضع دقائق انعطفت عن الطريق إلى اليسار في طريق خاص وتوقفت أمام بوابة ضخمة وباب حديد , بعده على بعد عشرين متراً بناء من ثلاث طوابق يعرش عليه أنواع كثيرة من الورد , زهره من كل الألوان , وللحقيقة لم أر في حياتي مثيلاً له , أمام البوابة أوقفت السيارة وقالت لي وهي تناولني علّاقة مفاتيح : انزل وافتح البوابة

وبسرعة نزلت وجربت أول مفتاح وثاني مفتاح .. فتحت البوابة الكبيرة .. درفتان كبيرتان عرض كل واحدة مترين , الطريق الفرعي الممتد إلى البيت , أقصد إلى القصر يحيطه من الجانبين حوضان من الحجر مزروعان بشتى أنواع الزهور , واجهة الباب ومدخله من الحجر الأبيض الناصع حُفرتْ عليه اشكالٌ من الزخارف ومدت فوقه أحجار القرميد , تحته أعمدة من الحجر الأبيض , دخلت السيارة وتبعتها بسرعة .. الطابق الأول فناءٌ كبيرٌ , أعمدة بدون حيطان فيه ثلاث سيارات اثنتان منها مشدرة وواحدة سوداء وسيارتها البيضاء , نزلت من السيارة وأشارت إلي أن أتبعها , صعدت الدرج , وتبعتها ,لم يمر حتى في أقصى تخيلاتي وأنا أتفوق على نفسي , أن ما أراه يمكن تخيله .. الحقيقة كانت أجمل وأبهى من أي تخيل , ساقاها كانتا على مرمى حدقتيّ من الكاحل وحتى (الكلسون) كما نسميه في الضيعة ذو اللون الزهري .. كانتا كقطعتي مرمر , مفتولتين ومؤخرة تستدير كنصف كرة . كنت اتبعها وأنا أشتهي أن أكون أي شيء يلامس هذه الآلهة العجيبة , باب البيت من خشب عسلي , محفور عليه في الجوانب عروق وأزهار وفي الوسط النصف الأول منه زورق شراعي والنصف السفلي رأس ديك , بعد أن فتحت بالمفتاح , أيقنت أنه لا يوجد في البيت أحد , سألتني

: ما اسمك ؟

: ناجي .. اسمي ناجي يا سيدتي

نظرت إلي ملياً وكأنها تفاجأت بشيء ما بي

: يا ناجي .. تعال معي .. أريد أن أزيح هذا البراد من هنا إلى هنا .. تستطيع ؟
كانت الغرفة كبيرة عرفت فيما بعد أنها غرفة المطبخ , هي بحجم أي بيت في الضيعة , بل وأكبر , طاولة كبيرة حولها تتلاصق كراسي من الخشب المزخرف المحفور , خلفه على امتداد الجدار , طاولة طويلة من حجر الرخام الناصع اللماع يتوسطه ما يشبه الحوض , عرفت فيما بعد كذلك انه المجلى , يقابله وعلى امتداد الجدار خزن بارتفاع مترين لها أبواب إطارها من خشب والباقي بلور مملوءة بأشكال مختلفة من الصحون والفناجين والأباريق و أشياء أخرى كثيرة , البراد كان في الزاوية الشرقية , تريد إزاحته إلى الزاوية الغربية , تأملته قليلاً , وأجبتها
: بسيطة يا سيّدتي .. نجرب
سحبت الكراسي ولصقتها بطاولة المجلى وسحبت الطاولة بهدوء وبصعوبة .. أوهمتها أنني أسحبها بهدوء خوفاً عليها .. وبصعوبة بالغة استطعت إزاحتها , ثم أمسكت بالبراد وصرت أزيحه قليلاً من هذا الجنب , ثم أعود إلى الجنب الآخر وأزيحه , بين الفينة والأخرى , أقف وأنظر إليه ثم إليها .. قائلاً .. بهدوء كي لا يصاب بأذى , حتى بلغ المكان الذي تريده , ابتعدت عنه قليلا ونظرت إليه كالفارس المنتصر, وسألتها
: (منيح هون ياست الكل)
:(ايه كتير منيح بس بدو لصق بالحيط)
وهنا استجمعت قواي وركعت على ركبتيّ وصرت أزيحه قليلاً من هذا الجنب وقليلاً من الجنب الآخر حتى لصقته

بالحائط , ثم مسكت بالطاولة وصرت أسحبها قليلاً قليلاً حتى أعدتها إلى مكانها وأعدت الكراسي إلى مكانها وعند الباب كانت تقف تتأملني , وقفت وتصنعت القاء نظرة عندما مدت يدها ومسحت فوق رأسي

: ممتاز .. ممتاز .. كم عمرك

: أعتقد ست عشرة سنة أو أكثر

: تعتقد ؟

: نعم .. أعتقد , لأنني لا أعرف بالضبط , ولا أهلي كذلك , أمي تقول أنها ولدتني (بالتلجة الأولى) وأبي يقول بالعنب والتين و(هيك) أما في أي سنة فهذا من المستحيلات ولا يعلمه إلا الخالق بذاته , مرة سألتُ جارتنا وابنها من عمري , قلت ربما تعرف .. قالت .. بينكما شهر أو أقل .. ولكن لا أعرف من منكما أتى أولاً .. والمتأكدة منه أنكما رضعتما من حليب بعضكما ولا أعرف أنا أوأمك من منّا لبّت - أي أرضعتْ أول مرة الرضعات الأولى - لأن الأم حتى يسري حليبها تبقى يوماً وأكثر أحياناً , لذلك تجدين أغلب أولاد الجيل الواحد في الضيعة أخوة في الرضاعة وقالت لي .. وأتذكر أن بقرة أبو عبدالله خلفت بنفس اليوم , وأبو عبدالله كان يعرف القراءة والكتابة وكان يحمل مفكرة ويسجل كل ما يحدث في الضيعة في مفكرته .. اسأله .. قل له بقرتكم (العطرا) متى خلفت عجلاً , أم آصف تقول إننا ولدنا في الفترة نفسها , ربما سجل ذلك ويكون هو تاريخ مجيئكم إلى هذه الدنيا , ورحت وسألته .. أبو عبدالله يحبني .. عندما سألته .. ضحك .. ضحك كثيراً , وقال لي (تكرم رح فتش على

المفكرة بركي بلاقيها وبشوف وبقلك .. بس أبقى ذكرني) ومات وانا أذكره وهو ينسى , وماتت الحقيقة معه
سألتْ بتعجب
: أليس معك هوية ومسجل فيها ميلادك والسنة !؟
: بلى معي .. وهذي حكاية أخرى .. عندما كبرنا وفتحت المدارس في الضيع وذهبنا إليها , طالبوا أهالينا بالأوراق الثبوتية للتسجيل وهنا كانت الطامة , كل أولاد الضيع صبياناً وبناتاً كانوا مكتومي القيد , غير مسجلين في النفوس وليس لهم أي قيد , لست أنا فقط الكل
: ستة عشر سنة ! كيف تركوك تأتي وحدك ! كيف ادخلوك على الحدود ؟ كيف سمحوا لك بالخروج من الحدود ؟
قلت : هذه الأسئلة , لم تخطر ببال أحد في هذا الكون غيرك , أهلي علموا أننا مجموعة نريد السفر وفقط ,واعتراضهم لا قيمة له , ليس لأننا لا نسمع كلامهم ولا نطيعهم , بل نحن نخافهم ونخاف غضبهم , وليس من العصى والكف , بل نخاف زعلهم وغضبهم بدون أي شيء آخر , مثلما يخاف الناس من الله وغضبه , نخاف منهم ونخاف غضبهم هكذا تربينا .. لكنهم يعرفون أنه لا شيء نفعله مفيداً ذا مردود عندهم , ويريدوننا أن نفعل شيئاً , ويريدوننا أن نصير رجالاً , فتركوننا لأقدارنا وكما ترين
: ألا تخاف ؟

: لم يُخلق الذي لا يخاف حتى المجنون في مرحلة معينة يخاف , ولكنني أقنع نفسي منذ وعيت بألا أخاف , والطبيعة علمتنا ألا نخاف .. أقصد تعودنا على الصعب , نحن أولاد البراري , المسكونة بالخوف ومختلف أنواع الوحوش والطيور , براري خالية من البشر , لا كما الحال هنا .. نهر وناس .. الطبيعة هنا مسكونة بالأنس والدفء

: هذا نهر فوار انطلياس لا يخلو من الناس حتى وقت متأخر من الليل

يا أمي هذه المرأة جميلة إلى درجة تفوق الوصف , طويلة , ساقاها مفتولتان بضتان , نهدان بارزان يبدوان كرمانتين يغطي رأسيهما ذلك الثوب , وخصر ضامر جداً أو لعل ما أبانه ضامراً جداً هو بروز النهدين وعرض الردفين , رقبة أحسست لوهلة أنني أستطيع رؤية الماء وهو ينزل لو شربتْ ؛ لشدة بياضها تبدو شفافة , أو هكذا أوحى لي جوعي , وهذا الجمال البهي . زاد اختلاسي للنظر إليها بعد أن أحسست أنها تشجعني وتتصنع اللامبالاة , وأنا كنت سعيداً .. سعيداً جداً , هذه المرأة أفاقت كل نوائمي , واحسست أنني بقوة مئة رجل وطارت مخيلتي لتتفحص المستور وهو قليل , وطار الخوف من الذبح , ونسيت الرواية من أصلها , غمست عينيها في عيني .. كانتا

ساحرتين لحد الخيال , واسعتين , في عينيها خطوط خضر وتحيطهما دائرة زرقاء ..

: كأن عمرك أكثر من ستة عشر .. أحسك رجلاً

أجبت سريعا وقد خُيل لي أنني عرفت مرادها

: ألم أقل لك أننا لا نعرف بالضبط أعمارنا , وربما رأيك صائب جدا الذي يرى يقدر أكثر , وأنا أحس نفسي رجلا

: رجل في كل شيء

: أعتقد

: أين تسكن ؟

: للآن أسكن مع مجموعة ,وأبحث عن سكن منفرد أو أقل عدداً

: إن أردتك لعمل ما كيف سأجدك

: لا أدري

: ما رأيك أن تبقى تمر عليّ , هنا , عندما تجد مسكناً وتدلّني عليه ؟

: سأفعل إن لم يكن لديك مانع

: أنا اسمي جمانة , وهذا بيتي , ولدينا بيت في الجبل , والآن نحن هناك , نصيّف .. جئت اليوم لأكشف على البيت ولأخذ بعض الأغراض وأرجع .. وكل يومين آتي (أطلطل) على البيت والحديقة .

أحسست أن كل تخيلاتي طارت كرف العصافير , تذكرت أحلامي في القرية , كيف كنت أمشي مسافات في البراري , وأنا أحلم كيف سأذهب إلى المدينة حيث الكهرباء والشوارع المعبدة والراديو والسينما والخبز المدني وأنواع الحلويات والسيارات والبيوت النظيفة المسقوفة بالإسمنت التي لا تدلف في الشتاء , أزحت البراد والبوتوكاز كما سمّته , فأنا أول مرة أرى هذه الأشياء , أحسست أنها ممتنة ومهتمة بي رأيت أمواجاً من الحنيّة واللهفة تتدفق من عينيها , من وجهها , من فمها , من نهديها , من خصرها , من فخذيها , من بين فخذيها , من أصابع يديها , شيء ما منعش .. فائق اللذة , فائق العطر , كنت أستنشق ذلك بكل ما أوتيتُ

قالت : طيب أنا الآن سأعود إلى الجبل .. سآخذك معي إلى المكان الذي رأيتك فيه ,وبعد يومين انتظرني هناك .. أي ساعة تناسبك؟ .. ربما أحتاجك لعمل هنا

: أنت حددي وأنا سأنتظرك .. لكن بعد الظهر , ربما أكون في الصباح في العمل , بالرغم أنه لا عمل لدي الآن , أقول ربما

: طيب .. انتظرني لحظة

وبعد بضع دقائق خرجت من المطبخ ومعها كيس كبير أنيق جداً وخرجت وتبعتها وأنا أشيّع أحلام اليقظة إلى مثواها الأخير , ركبت السيارة إلى جانبها وصرت أكثر شجاعة في استراق النظر إلى كل شيء , وأحسست أنها كانت سعيدة وهي تراني أمارس السرقة , كانت ترمقني بنظرة ملؤها النشوة والرضى والدفء .. وصلنا إلى المكان الذي كنت فيه قالت

: اسمعني .. اليوم الأحد , الخميس انتظرني هنا عند هذه الصنوبرة الساعة الرابعة .. ايه ؟

: حاضر .. هنا

أخرجت لي نقوداً وقالت

: هي قليلة عليك , أنت شاطر وجميل وتستأهل أكثر - ومدت يدها إلى المقعد الخلفي وناولتني الكيس - وهذه لك , والخميس نلتقي

: لن آخذ شيئاً لا المال ولا الكيس , أنا لم أفعل شيئاً يستحق ..اعتبريها تعارف بيننا ربما ترديتها بمساعدتي بتأمين عمل , وسأفعل لك أي شيء دون مقابل , أنا لا أريد منك أجراً , أريد أن تساعديني بتأمين عمل

: هذا حقك , وإن لم تأخذها لن تراني بعد اليوم , وأعدك سأحاول أن أفعل أي شيء من أجلك بالرغم أنني لا أفهم في هذه المسائل

كدت أبكي وأعتقد أنها لاحظت ذلك , ولا أدري لماذا , مددت يدي نحوها مسلّماً فمدت يدها .. فعلت .. أعتقد جازماً .. أني فعلت ما لم تتوقعه .. حتى أنا لا أدري ما فعلت ولا كيف ولا لماذا ؟ سحبتُ يدها قليلاً وانحنيتُ وقبّلتها : شكراً .. أنت سيدة رائعة ,

أحسست باندهاشها , ولكنها تجاوزته بسرعة ومسكت شعري الطويل بكلتا يديها وشدتني نحوها وقبلتني .. قبلتني على فمي .. على فمي .. لا أذكر أن أحدا ما قبلها قبلني على فمي

قالت وهي تتصنع اللامبالاة
: نلتقي الخميس .. إيه

نظرت إليها بكل جوارحي صامتاً ..

غادرت السيارة ملوحاً

شيعتها حتى غابت بسيارتها الفخمة ,

في الضيعة قالوا لنا الشغيل (الكدع) يعطونه ليرتين ونصف في اليوم ؛ لشغيل الباطون وشغيل الشوكة , ولمن مثلنا ليرة ونصف . كان وصولي موفقاً يا أمي , موفقاً جداً , أعطتني عشر ليرات .. عشر ليرات لبنانية يعني سبعة عشر ليرة سورية , تنحيت جانبا لتحت الصنوبرة وأخذت أفتش الكيس , كان مليئاً , تفاحاً وأجاصاً وعنباً ومعلبات أول مرة أراها , وخبزاً لم أر مثله في عمري , حتى خبز المدينة الأبيض لا يشبهه , أخذت تفاحة ورحت أقضمها على مهل , كانت الشمس قد غابت تماماً , والغسق لون كل شيء , كانت السيارات تمر , الطريق لم ينقطع لحظة واحدة , كنت أدير لها ظهري ؛ لاعتقادي أن كل سيارة تمر صاحبها ينشغل بي ويسأل نفسه عني , من هذا ؟ ما هذا الكيس الذي يحمله ؟ أين كان ؟ هكذا خمّنتُ .. كانت المدينة تلبس ثوباً مخملياً ساحراً , الأبنية تنتصب متباعدة أغلب أسطحتها من القرميد , كساها الغروب سحراً جميلاً جداً , تفصل تلك الأبنية عن بعضها بساتين الليمون والفواكه , إلى فندق أبو أكرم ذهبت بمنتهى السهولة , مصطبة الغرفة كانت مليئة بالرجال , لا تكاد تتسع لأحد , سلمت عليهم جميعاً , عرفت أغلبهم , وهم عرفونني

جميعاً .. بعضهم اهتم بي وشجعني ورحب بي .. والبعض الآخر تابع حديثه كأن شيئاً لم يكن , بعضهم بدأ يتحدث عن كيفية مساعدتنا لتأمين عمل , أحمد قال
: الشباب – وهو يبتسم – شباب .. لكن مازالوا شباباً صغاراً , ما زالوا ليني العود , يجب أن نجد لهم شغلاً هيّناً . كان يوسف بجانبي يستمع .. سألته همساً

: أين حسن
: بقي عند خليل

انشغلوا بنا أو اشتغلوا بنا , ربع ساعة , بعدها ذهب كل بحاله , أقصد اختفوا , بقيت أنا ويوسف و(مدير الفندق) أبو أكرم , كان يجلس بعيداً , شارداً صامتاً

سألني يوسف

: أين ذهبت .. لماذا لم تأخذني معك .. وما هذا الكيس ؟

حكيت له القصة بما يناسب , أقصد كما يجب .. امرأة أخذتني معها ازحت لها البراد والبوتوكاز واعطتني ليرة وهذا الكيس ,

كان يستمع باندهاش شديد

: هل أكلت ؟

: لا.. وأكاد أموت من الجوع

سحبته من يده

: قم لنرى ما في هذا الكيس

: عم أبو أكرم أتيت ببعض الطعام تفضل كُل معنا

دخلنا الغرفة أقصد الفندق , كان خالياً تماماً , ودخل خلفنا , جلسنا حيث أشار لنا , وصرت أخرِجُ ما في الكيس ونفردها على البطانية , كان الاندهاش واضحاً على وجهه ووجه يوسف , همس لي يوسف
: لولا هذا الكيس لما صدّقتُ حرفاً مما قلته .. يا أخي حظك طيب - ورفع صوته قليلاً - ما هذا وهذا .... وهو يفردها

سألني أبو أكرم
: من أين أتيت بهذه المواد ؟

: اشتغلت عند جماعة عدة ساعات وقالوا إنهم طالعون إلى الجبل فأعطوني هذه الأغراض

: الله يبارك فيهم .. ممتاز.. تكفيكم يومين يكون الله فرجها عليكم

: تفضل عمي تفضل نأكل سويّة

: يا ابني في المطبخ صحون وملاعق وكاسات وطناجر وفيه مفتاح للسردين والطون واللحمة والجبنة .. هذه اللحمة من النوع الجيد جداً , وهذه الجبنة أيضاً وثمنها غالٍ كثيراً.. أكل الأكابر .. افتحوا علبتين لحمة وقلبوهم مع البصل .. في المطبخ بصل تعالوا معي .. وأخذ يشرح لنا عن لذه هذه اللحمة مع البصل اليابس المفروم .. تعالوا معي أنا أعلّمكما .. وأخذ يفرم البصل ثم أشعل بابور الكاز وأخذ يقلّب العلبة عليه وهي مغلقة ثم فتحها وهو يشرح .. ممكن أن نضع عليها بيضاً وممكن أن نضع البندورة .

أكلنا بشهية وكانت لذيذة جداً وأكل هو معنا

نمت أنا ويوسف على الاسفنجتين , أقصد حاولت النوم , في منتصف الليل قمت من شدة القرص والعض والحك وشخير هذا العدد الكبير من الناس , على أحد الكراسي جلست وتابعت الحك , وصرت أحسّ أن شيئاً ما تحت الأظافر نتيجة الحك مسكت به وذهبت نحو لمبة البرندا المضاءة , كانت قملة , عرفتها وسبق أن رأيتها كثيراً , فأثناء المدرسة , كان الأساتذة يفتشون على نظافة التلاميذ , الأظافر ومؤخرة الرأس , فكان أغلب التلاميذ يوجد فيهم هذه الحشرة , وكنا نراها , قررت أن أذهب عند الفجر ولا أعود إلى هنا أبداً ولو نمت في العراء , ما رسخ الفكرة

في رأسي وأنا سهران , أثناء عودتي رأيت بساتين وبرية فيها صنوبر كثيف , الآن خطر ببالي أن أصنع كوخا من الأغصان كما كنا نفعل في برية الضيعة وأنام فيه حتى أجد مسكنا

(1)

أيها الحلم البعيد

أيها الحلم العتيق

أيها الحالمون معي

أيها المعتقلون بأحلامكم

يا خمري من كروم الليالي

أنا وأنتم هطلُ ربيعٍ

ينتظر الغيم !!

اهترأت مقاعدنا ..

لم نمل

أفقت على همس أنفاسكم

قبل أن يغادر الكرى كحل العيون

أوقدت لكم القلب نبراساً

وجعلت أنيني لكم دليلا

على شرفات الوجع

ضيعتم حبل الدروب

الموصولة ببحر الصباحْ

أيها المبتلون بوزم قروح الخبز

على باب الروح

تركتم جمركم

يتلظى في مسايا القلب

تعبرون إلى خلواته

كركن مستباحْ

وأنا أفرش هدبي

أًعني النفس

بربيع يشرب من

دمعة الحلم

وخمرة التمني

هشيم الضنى

قُطّع حبل الدروب

فصرت بلا اتجاه

أقامر ...

خائباً أعود

كل الجهات ..

التي لاتصل إلى المهج

خائبة

وكل السماوات

من دون أسمائكم

لا تندف الفرح

وكل القصائد صماء

من دون نفنوف أنفاسكم

مهرتم وجودي

بهواكم ومضيتم

ومراكب أحلا مي

تقتفي رائحة الأنفاس

أربعة عشر قمراً

وحشدٌ من السنديان وأخواته

ورفوفٌ من أنغام الطيور

ونهارٌ من الأقاحي

وقبائلُ من الأحلام

و أرتالٌ من الغيم

تشرّق ونحن مغربون

وجبالٌ من الانتظار

بين كفيها ...

نحن منتظرون

دهراً من النزيز

ظلكم شمعة الليالي

كي لا تنطفئ

نُوقدها بدموع العين

ننشد لها سكرى المواويل

نوقظ الفجر لأيامها

ومن شبابيك الروح

طيرت لسمائها

الفراشات الملونة

وملأت أنفاس الوديان

والروابي بالعتابا

وصليت شباكي للغيم

وأشعلت ربابتي

لنرجس الغائبين

ربما .. ربما

أنينها يعيد ...

من سرحوا في شعابها

يبحثون عن ضلالاتهم

السراب ..؟

مرة يزركش المسارب

بشقائق الموسيقا

وأخرى يصبغها بزهر الكمان

وأنا وزعت جمري

على مواقد الأحلام

هذا الصلصال عجينتي

و هؤلاء من أحب

وهم من يلوح بمناديل الرأس

عند الرحيلْ

وهؤلاء هم المرايا

التي ترى فيها

نبض القلبْ

وهؤلاء كالسنديان

مزروعون في الذاكرة

ومنهم عطر الشعر

وأنق القصيد

وغدران الطيب

وسجية الصدق

وديمومة الشكر حتى البلهْ

هجْرهم .. مساء وصباح

يعمّرون خراب الأشياء

يضيئون سواد لياليك

لا يتذكرون ...

بل لا يعرفون

في زحمة التعب ..

السؤال

هؤلاء تنهيدة الصباح

وقناديل المساء

يموتون دون حبهم

سركم يخبئونه بأكفانهم

متورطون في عشقهم للتراب

حتى القبرْ

دائماً يُصدِقونك

لأنـهم لا يكذبون

يضحكون حتى الدمع

ويبكون حتى الاحتراق

يُثلِّجهم الجفاء

ويثلجهم الوفاء

يلبسون لوصالك

الصباحات

ويتركون على باب الليل

عذابات التشريق والتغريب

هؤلاء ...

عتّبوا لك عند الصرخة

الأولى

وهم ...

سيشيعونك بتعتيبهم

وعتباتهم

والدتي الحبيبة ...

قُبيل الفجر أخذتُ صندوقتي وغادرت , لم أوقظ أحداً ولم يستيقظ من حركتي أحد , اتجهت صوب نبع الفوار عند تلك الصنوبرة , جلست على صندوقتي المصنوعة من الخشب والتنك الملون , كانت أنوار المدينة تتلألأ ووهج بيروت البعيد قليلاً يجعل سماءها كالأرجوان , الطريق خالية تقريباً , السيارات التي مرت لا تتعدّى أصابع اليد الواحدة .. فكرت قليلاً , ثم اتجهت إلى شمال الطريق , من الطريق إلى تلك الغابة الصغيرة المسافة ليست بعيدة , سرت قليلا بدأ الصنوبر يصير متشابكا جداً , أسعدني ذلك تذكرت دغلات الضيعة ومخابئنا فيها , كانت مجموعة من الصنوبرات المتقاربة تشابكت أغصانها جداً , كسرت بعض الأغصان الواطئة بحيث أستطيع الوقوف نصف منتصب , سحرتني الفكرة , عاينت المكان جيداً خاصة والفجر أخذ يشعل بنوره جدائل الليل , تحسست أوراق الصنوبر اليابس , وصرت أهدهده وأساويه , كان سميكاً جداً , خلته فراشاً وثيراً , رائحة الصنوبر تنعش الروح , ونسيم الصباح ببرودته المنعشة تأتي به الصنوبرات من آخر الكون , عند جذع صنوبرة بحشت الأوراق ووضعت صندوقتي , فتحتها أخرجت منها الكيس , تركت فيه ما

يكفي من الطعام وأعدت الباقي إلى الصندوقة , قفلتها بجوزتين صغيرتين ثم طمرتها بأوراق الصنوبر جيداً .. تحسست نقودي .. عشر ليرات لبنانية وليرتان ونصف سورية , قالوا لي لن نستخدمها أبدا , العملة السورية لا أحد هنا يعترف بها , تركتها في الصندوقة , ابتعدت قليلاً عاينت المكان , أيقنت .. لن يرى الصندوقة أحدٌ حتى يدعس عليها , وسألت نفسي .. ومن سيمر من هنا , لا أحداً يستطيع , أنا وهذه العصافير فقط سنسكن هنا , غادرت غرباً نحو الساحة .. ساحة انطلياس التي صارت أحد معارفي , وصرت موقنا أنني أستطيع الذهاب إليها والعودة منها بمنتهى السهولة , عندما وصلت كانت الساحة بدأت تشتعل بالحركة , على أطراف الساحة بعض الرجال يجلسون على حافة الرصيف , مررت بجانبهم , رفعت يدي مسلماً , ردوا جميعاً , تجاوزتهم عندما سمعتهم يتهامسون – أهل هذا الصبي كيف سمحوا له أن يأتي .. مازال صغيراً – صارت السيارات الفارهة تصفّ ويتراكض نحوها العمال , ينتخبون منهم من يُعجبون بزنوده وطوله وعرضه وكثافة شعر ذقنه وشواربه , بحدود الساعة السابعة والنصف , لم يبق إلا أنا .. وحيداً .. كلما أتى خواجا يفتح باب السيارة ويقف ويؤشر بإصبعه - أنت وأنت ووو ... - ينتقي من يريد ويذهب بهم .. لم ينتقني أحدٌ ولم يتبنني أحدٌ , في حدود

الساعة الثامنة , كنت أنوي المغادرة , وفي رأسي مليون مشروع , ولم أستقر بعد على أحد منها , وقفت بجانبي سيارة فارهة جداً كبيرة , أومأ لي ذهبت مسرعاً

: أنت شغيل ؟

: نعم خواجا .. نعم

: ولكنك صغيرٌ.. هل تستطيع العمل ؟
: سيدي جربني , وإن لم يعجبك شغلي لا تعطيني أجراً

: اركب

وهنا وقعت في نفس مأزق أمس .. دارت مجموعة كبيرة من التساؤلات في ذهني .. هل أفتح الباب الخلفي أم الأمامي , تملكتني الحيرة , إن أخطأت ممكن أن يغضب ويطردني , تذكرت أمس .. توكلت على الله وفتحت الباب الأمامي وجلست , كل ذلك كان بلحظة , رفة عين

: صباح الخير خواجا

: اهلا صباح النور ..

دون أن يلتفت نحوي .. ولكن قلبي استقر وهدأ , وبعد بضع دقائق من صعود السيارة شرقاً سألني ودون أن يلتفت نحوي

: كم عمرك ؟

وكنت قد قررت ألا أكون صادقاً في هذا الأمر , فأمس كان أول درسٍ وحفظته جيداً فقلت له

: عشرون

: لا .. أنت أصغر من ذلك

: يا سيدي بعض الناس , وجوههم لا تعطي عمرهم الحقيقي

: (أنت شاطر .. عفارم عليك) وصمت

بعد ربع ساعة أو أكثر انعطف إلى اليمين في طريق فرعي وبعد مئة متر وقف أمام بناء من ثلاثة طوابق .. يحيط به سور لا يكاد يُرى من الورد , الذي يُعرش في كل مكان ومن كل الألوان .. باب خارجي من الحديد تعلوه قنطرة عالية يكللها الياسمين وأزهار أخرى لم أعرف نوعها , دخل ودخلت خلفه , بعد البوابة بعشرين متراً اكتشفت أن هناك طابقاً أخراً ينزل إليه بدرج .. مدخل البناء عريض جداً , رخام أبيض في كل مكان , باب ثانٍ من الحديد أيضاً مصنوع بمنتهى الاتقان زخارفه كأنها محفورة حفراً تنتشر عليه عروق الأشجار والأوراق المُذهّبة تماهت مع لونه النحاسي , يليه بابٌ آخرعريض

من الخشب البني .. يشبه لوحة محفورة في الخشب .. على جانب اليمين درج , نزل عليه وتبعته في الأسفل حديقة كبيرة في زاويتها مسبح كبير تتلألأ مياهه الصافية والسيراميك الأزرق يكسب الماء لوناً سماوياً ساحراً يبعث في الروح البهجة وأفق الجمال , يحيط به رصيف مبلط بالرخام وفي الزاوية الشمالية مظلة من القرميد وطاولة رخامية وحولها بضع كراسٍ , أحواض الورد تحيط به تسحر الناظر

: أريدك أن تنظف المكان أريده أن يرقص .. ايه ؟ .. ضع ما تجمعه في هذا الكيس وهذا المنكوش وهذا المادور وهذي شوكة دعس , أريدك أن تعشب الأحواض بالمنكوش وانتبه على الورد إياك أن تنزعه والأشجار بالمادور أو شوكة الدعس وانتبه على الأشجار .. تجيد السباحة ؟

: لا

: انتبه على المسبح .. لا تقترب من الماء , وتابع وهو يسير باتجاه باب في الطابق الأرضي بين الأعمدة حيث تقف عدة سيارات وأنا خلفه .. هنا الكراج نظفه أيضا .. وهنا .. وفتح الباب – محرك ضخم – هذا محرك الكهرباء نظفه أيضا هذي فرشاة وهذي خروق وهذا نفط .. أنت مدخن ؟

: لا

ايه .. ممتاز , لأنه لا يجوز التدخين هنا.. وتابع وعندما تنتهي .. وفتح الباب الثاني ..هنا غرفة الحارس .. راح وللآن لم يرجع .. هنا الحمام والمطبخ والتواليت وهذا نفط .. وهذا مسحوق للتنظيف.. تمام ؟

: حاضر تكرم حاضر فهمت كل شيء - لاحظت ان ثلاث بلاطات على طرف رصيف المسبح مكسورة ومخلوعة – سألته

: خواجا .. عندك من هذا البلاط واسمنت ؟

: أجاب بدهشة .. لماذا ؟

: لأركبها

: وهل تعرف ؟

: نجرب إن استطعت خيراً وإن لم أستطع الخسارة بسيطة – وأنا في كل حياتي لم أكن قد رأيت السراميك مجرد رؤية ولا أدري لماذا قلت له ذلك –

قال : عندي .. ايه عندي .. أنت ولد شاطر إن ركبتها سأعتبرك معلماً

صعد الدرج وأنا أخذت أنظف بمنتهى الهدوء , والمتعة .. جمال المكان يجعلك تلتصق به .. طار بي الحلم وأنا منهمك بنكش أحواض الورد ونزع الأعشاب منها .. أحلم أن يشغلني مكان الحارس و(هيك).. أقعد ..و أنام و آكل وأشرب .. يا رب .. رائع أن أصير خادما لهذه الورود ولهذا الجمال .. أنام وحدي بلا قمل وفسفس ولا زحمة , سرير نظيف ومطبخ وحمام وماء .. يارب .. أيقظني ظهوره وهو يناديني .. تعال .. ذهبت إليه مسرعاً ..

: هنا تحت الدرج يوجد بقايا سيراميك وبلاط وأنا نازل سآتي لك بإسمنت ورمل

غادر .. وأنا أخذت أبحث بتلك (الكراتين) فتحتها وجدت فيها سيراميكاً وتحتها وجدت بلاطاً من نفس النوع .. بجانب غرفة الحارس غرفة أخرى , فتحتها كما قال لي .. مليئة بالأدوات والعدّة , بعد ساعة عاد وكنت قد أنهيت معظم أحواض الورد

: هذا رمل وهذا اسمنت (يلا ورجينا شطارتك)

: إن شاء الله ترى ما يعجبك

غادر وتركني بحثت عن سكين أحفر فيها قرب البلاطات وأنزع بقايا البلاط المكسور .. وجدت بديلاً مفك براغي وشاكوشاً .. بعد نصف ساعة كانت الثلاث بلاطات راكبة

وبمنتهى الدقة .. فاجأني وأنا أتأملها وهو يضع يده على كتفي ويقول
: (ممتاز .. ممتاز .. أنت ولد شاطر)

: خواجا .. شغلني بدل الحارس .. وبالأجر الذي تريده , فأنا أثق بضميرك الحي , وسأكون كما تحب وتهوى

: انت صغير والناطور يجب أن يكون رجلاً كبيراً

: يا سيدي شغلني حتى يعود الحارس

: في كل الأحوال سأنتظره كم يوم , هو قديم عندنا ونحبه , أمين ونظيف وشغيل , إن لم يعد سأشغلك مكانه ودائما تكرم , وأنا احببتك .. عد إلي بعد اسبوع إن لم يكن عاد سأشغلك مكانه

: بارك الله فيك

وقف امام بلاطات الرصيف وتأملها قليلا ثم غادر دون أن يتكلم , كنت منهمكاً بأحد أحواض الورد عندما سمعت صوتاً أنثوياً

: مرحباً

: اهلاً وسهلاً

كانت طفلة تقترب من الصبا , تصغرني بعدة سنوات , بيضاء كزهرة الفل ترتدي بنطالاً أسود وقميصاً أبيض

: معلمتي ومعلمي أرسلا لك هذه , ومدت يدها وناولتني كيساً , أخذته وأنا أنظر إليها وأسال .. ما هذا ؟

: فطور

: شكراً .. معي طعامي

: جيد زيادة الخير خير .. أنت من أين ؟

: أنا سوري

: أعرف أقصد من أين في سوريا ؟

: أجبتها بالتفصيل الممل . . لماذا تسألين هل أنت من سوريا ؟

: ايه .. أنا من عين الدلب , قريبة كثيراً من ضيعتك , أنتم بعدنا .. أنا هنا - ووقفت - ثم تابعتْ أنا هنا خادمة .. مرهونة لمدة سنة في هذا البيت

لم استغرب الأمر وقرأت هي ذلك على وجهي , لأن بعض الناس , كانوا يأتون ببناتهم ويشغلونهن خادمات

: منذ متى أنت هنا ؟

: منذ سنة ونصف .. خلصت السنة الأولى وجدد أبي سنة أخرى وأظن انه سيجدد كذلك لأن معلمتي ومعلمي يحبونني كثيراً

: وأنتِ ؟

: أنا - واغرورقت عيناها الخضروان بالدموع - أنا مشتاقة جداً لأمي وأخوتي وللضيعة وللعب ولتلك البراري لأولاد وبنات الضيعة .. للمدرسة

: في أي صف كنتِ عندما أتوا بكِ

: في الصف الخامس , وكنتُ أحبُ المدرسة , وذكية كثيراً , والأستاذ سليمان - هل تعرفه ؟ - كان يحبني جداً .. كان يسميني الفنانة لأنني كنت أرسم بشكل جميل .. كنت أرسم أي شيء يقوله لي .. ومرة رسمته وأخذ الرسمة وقال لي سأحتفظ بها إلى أن تتخرجي من كلية الفنون الجميلة .. قبل أن يأتوا بي حاول كثيراً مع أمي وأبي لإقناعهم ألا يأتوا بي , وأن يتركوني أكمل تعليمي ولكنه لم يفلح .. في المساء أتى وودعني ورأيت الدمعة في عينه وسمعته يهمهم بكلام خفيض ولكنني سمعته .. كان يشتم أهلي والدنيا

: هل تحبين أباك ؟

باستغراب

: كيف !؟ نعم أحبه .. أحبه أكثر من عيني .. هل في الكون أحد لا يحب أباه !؟

: لو كنت مكانكِ لما أحببته

: لو كنتَ مكاني ستحبه .. ألا تحب أباك ؟ ولماذا لا أحبه ؟ أليس أبي ؟ أبي رجل طيب وحنون – وغصّتْ وهربتْ دمعة وانحدرت على وجنتيها – أبي وأمي .. وسكتتْ , أسكتتها الغصة

: لأنه أتى بكِ إلى هنا وأخرجكِ من المدرسة ورهنكِ , وجعل منكِ خادمة

: ايه .. طيب وحنون , ولكن الظروف أجبرته , إخوتي صغار ويريد أن يطعمهم ويعلمهم

: لماذا لم يأت بأخيك ويرهنه ألأنه صبيٌ وأنت بنتٌ ؟! لو فرضنا أنكم كلكم صبيان ولم ينجب بناتٍ , ماذا كان سيفعل ؟

: لا أعرف , ولكن لا أريد ولا أقبل أن يتحدث أحد في الكون عن أبي بسوء .. ثم هذا أبوك أرسلك وأنت صغير ما الفرق ؟ ولا يعرف عنك شيئاً , على الأقل أبي وضعني في بيت يعرفه ويستطيع أن يأتي إليّ فوراً متى شاء لأن

عنواني معروف والبيت الذي أعمل فيه معروف وصاحبه معروف (كلنا بالهوا سوا) من لحظة معلمي كان يقول لزوجته .. هذا الولد صغير جداً و(شاطر) جداً , تصوري أنه ركّب بلاطات المسبح كأي معلم محترف , يُعشّب الأحواض وينكشها وينكش تحت الأشجار كأنه يعمل منذ أربعين سنة وأكثر , تصوري إلى الآن لم يسألني كم سأعطيه أجره , العمال قبل أن يركبوا السيارة يفاصلون على أجورهم , من يسمح لهؤلاء الأولاد بترك طفولتهم ويزجهم في سوق العمل مجرم , وهكذا صار أبوك مجرماً .. هل تقبل ذلك ؟

:أولاً أنا شاب , وأنت بنت وأنا أكبر منك بكثير .. أنا شاب .. رجل

: أنتَ تقول ذلك , ولكن معلمي يقول أنك ولد صغير

: ليقل ما يشاء .. ولكن لا يجوز لأب مهما كانت الظروف , أن يرهن ابنته ليطعم أخوتها , هو أنجبهم وعليه إطعامهم , وهو يجب أن يرزقهم , من يخلق عليه أن يتكفل بمن خلقه أكان أبوك أم الله

: أنت لا تؤمن بالله ؟!

: كيف لا أؤمن بالله !؟

: لماذا تقول ذلك إذاً ؟

: أنا أقول من يخلقك هو يتكفل بك وليس أي أحد آخر , هذا منتهى الإيمان وليس الكفر .. الله هو خلقك وهو متكفل بك ولا حاجة لأبيك أن يحولك إلى خادمة بحجة إطعام إخوتك وتعليمهم .. أبوك أفتى بحرمانك مما يسعى إليه , أقصد حرمك من أمك وأخوتك ومدرستك ؛ ليترك أخوتك مع بعضهم مع أمهم وفي مدرستهم .. اسمعيني لو قال لك معلمك لا تخرجي إلى الشارع هناك كلب شارد يعض المارة وخالفتِ تعليماته وخرجتِ وعضك .. على من الحق عليك أم على معلمك أم على الكلب ؟ لماذا دائما نحمل الله ما لا علاقة له به ؟ لماذا نحمله أخطاءنا ؟

: أنا سمعت أبي وكل الناس هناك والكبار بالأخص , يقولون الله هو الرزاق و(اللي مكتوب على الجبين رح تشوفو العين) وهو الذي يأخذ وهو الذي يعطي

: (منيح) .. هو الذي يرزق صحيح وهذا ما قلته ولا حاجة لأبيك أن يأتي بك إلى هنا لأن الله هو الرزاق وسيرزقك مع بقية أخوتك .. أما (اللي مكتوب على الجبين رح تشوفو العين).. الله لم يقل ذلك ابداً ونحن من قال ونسبناه له , لنغطي تقاعسنا وفشلنا وخيبتنا , ولا يمكن أن يقول ذلك .. لو كان الله كتب علينا وعنا كل شيء , فنحن لا علاقة لنا بما نفعل لأنه هو كتب علينا أن نفعل

هذا وذاك , نحن ننفذ ما كتب , خطأ كان أم صواباً , وهذا مستحيل .. الله عادل ولا يمكن أن يحاسبنا على شيء هو كتبه وصممه وقدره .. أنتِ ماذا فعلتِ حتى يعاقبكِ هذه العقوبة ؟ خلقكِ عند رجل فقير أنجب أولاداً كثراً , أتى بكِ إلى هنا , ترككِ عند ناسٍ لا تعرفينهم ؛ لخدمتهم .. عليكِ أن تعملي كل شيء , وليس لك أي شيء , بعيدة عن من تحبينهم ويحبونك عن أمكِ وأخوتكِ ومرباك .. مقهورة مظلومة

: يقولون .. سمعتها من رجال كبار ويفهمون كثيراً.. أن من يُخلق هكذا يكون عليه ذنوبٌ كثيرة من أجيال أخرى والآن يحاسبه عليها , بصراحة وأنا مقتنعة بهذا الكلام كثيراً , و هكذا يكون الله عادلاً ولا يفعل شيئاً إلا بالميزان وإذا لم يكن كذلك .. يكون فيه ظلم .. والله لا يظلم أحداً

: طيب .. ممتاز جداً , كل سكان ضيعتكم وضيعتنا والضيع المجاورة والبعيدة وحتى في المدن , الفقراء مثل النمل , هم الأغلبية والأغنياء في الضيع معدومون فأهل الضيع أنصفهم الله بالفقر والتعتير فوزعه عليهم بالتساوي وفي المدن الأغنياء معدودون ومعروفون والفقراء هم الأغلبية .. لماذا ؟ وعلى فكرة الفقراء هم من يخافون الله وهم الصادقون ولا يخالفونه .. والأغنياء هم الفجرة الذين

يرتكبون المعاصي ويفتخرون بها إلا ما ندر والكل يرى بأم عينه , الفقراء يزدادون فقراً والأغنياء يزدادون غنى !

: بصراحة ما تقوله يحير .. ولكن أنا لا جواب عندي .. ما هو الحل ؟ انت ماذا تستطيع أن تفعل ؟ وأنا كذلك ؟ أنت مثلاً .. بدل أن تكون في الضيعة عند أمك وأبيك وأخوتك ورفاقك , تلعب وتتسلى , ها أنت هنا تشتغل .. وتطلب رضى معلمي مثلي .. بل تطلب رضى كل الناس هنا وهذي زيادة عني .. صح ؟ وأنا هنا أحاول أن أتعلم مع الأولاد والله أنا أشطر منهم .. مرة معلمتي رأتني أعلم مادلين .. ضربتني وشتمتني و(زربتني) في المطبخ يومين .. ولكن جوسلين الكبيرة من عمري .. تحبني .. أقعد معها دائما .. صرت أعرف فرنسي وانكليزي .. هنا لا يدرسون بالعربي أبداً

: (برابو عليك) .. أنت من قال .. ضربتك وزربتك في المطبخ .. الظلم .. أنا في أي وقت أذهب .. أعود إلى الضيعة .. أنتِ لا تستطيعين , وأنتَ معرضة للضرب والشتم في كل لحظة

: وأنتَ يمكن أن يضربوك .. الآن إذا معلمي ضربك وطردك ولم يعطك أجرك .. من يرده ؟! .. من يسأله ؟!! .. هل هناك من يحاسبه ؟!

في هذه اللحظة أطلت من الشرفة امرأة ونادت
: حياة .. حياة ...

: اسمك حياة ؟

: ايه .. اسمي حياة .. (يلا أنا رايحة).. سلم على الضيعة وعلى كل الناس

: ألا أستطيع رؤيتك بعد هذه المرة

: لا أعتقد .. كيف ستراني ؟! مع السلامة

راحت حياة .. حياة الجميلة الطفلة الذكية .. حياة التي عينيها مثل عشب البراري في أول نبوته .. حياة التي أخذوا حياتها ؛ ليوزعوها على أخوتها وأبيها وأمها .. حياة التي أخذوا طفولتها ليوزعوها على أطفال الآخرين .. حياة التي تحب - مثلي - كثيراً من الأشياء .. ولا تعرف كما أنا .. لماذا ؟ حياة التي لا تتجرأ - مثلي - على مجرد كره ظلّامها .. حياة التي تحب , بل تعشق أباها , الذي حرمها من طفولتها , من أمها وأخوتها , وكسرها , وحولها إلى عبدة .. الكثيرون فعلوا مثله وربما انتقلت بينهم هذه الفعلة بالعدوى , ومنهم من كان يدعي الكرم والشجاعة والزعامة و (يتفشخر) ورغم ذلك رهن بناته وحولهن إلى إماء ؛ ليتبجح هو بثمن عبوديتهن , ومنهم من رفض .. رفض أن يبيع فلذات كبده ؛ ليأكل بثمنها

وأذكر جيداً النقاش الذي دار بين سليمان ابراهيم , الفقير المعدم , و(المتفشخر) سعيد موسى .. المدعي التديّن إضافة للزعامة , قال لسليمان

: يا أبو عيسى .. لديك كومة بنات .. لماذا لا تفعل مثلنا وترهن واحدة اثنتين ثلاثة وتربي الباقي بعز وتتنعم وتغتسل من هذا الفقر وهذا الجوع أم أنت أفضل منا جميعاً ؟

ومناسبة النقاش , أن سليمان كان يريد منه خمس ليرات ليشتري بها طحيناً , ديناً للموسم

: يا أبو أحمد .. أنا لا أقارن نفسي بك ولا بغيرك .. مبروك عليك المال والعز والجاه والدين والزعامة .. أنا لن أرهن بناتي لآكل وأتنعم بثمنهن ولو اضطررت لأحمل كيساً وأتسول .. لن أرهنهن أبداً .. (نجوع سوا ونشبع سوا ونموت سوا) .. الله الغني وهو الرزاق الوهاب وحسبي هو .. هو من خلقنا وعليه رزقنا وليس على عبيده .. بارك الله فيكَ , كفيتَ ووفيت

: زعلت ؟! .. أخي أبو عيسى .. والله لم أقصد ذلك أبداً .. هذا حال كل الناس وأولهم أنا , وأحببت أن أقول لك رأيي فقط .. وتكرم عينك .. الذي تريده سيأتيك

: الله يبارك لك بأموالك وبرزقك .. والله مالك لن يدخل جيبي أبداً , ولست (زعلان) أبدا .. وليس حال كل الناس يا أبو أحمد .. هي حال بعض الناس ولو كنتم الأغلبية .. يبقى هناك ناس يقولون لا

حياة هذي .. التصقت بخيالي وأنا أنظف المحرك الضخم , حياة التي تشبه نجمة الصبح .. نرجسة .. خانتها الحياة كما خانت كل الفقراء

في الساعة الثانية , كانت الحديقة وأحواض الورد والمحرك والأشجار , نظيفة تريد أن ترقص كما قال الخواجا , كنت أجلس على حافة الحوض عندما أتى , جال في كل الأنحاء وأنا خلفه ساكتين .. كلما دار كنت ألمح في عينيه بريق الرضى والجمال

: قال لي ما اسمك ؟

: ناجي .. يا خواجا ..ناجي

: كم تريد أجرة الله يعطيك العافية ؟

: الذي تريده يا خواجا .. الذي تريده

مدّ يده إلى جيبه وهو يقول

: والله انت (شاطر) ومذوق ومهما أعطاك الإنسان قليل .. عامل (الشوكي) يأخذ ليرتين ونصف وعامل الباطون يأخذ من ثلاث إلى أربع .. أنا سأعطيك خمس ليرات

: بارك الله فيك .. خواجا لا تنسني من أجل الناطور .. اذا لم يأت ضعني مكانه وأنا أقبل بالأجر الذي تدفعه لي أيا كان

: أنتَ أين تسكن ؟

ولهنيهة احترت ماذا أجيب

: قريب من كوع قبيزي .. قريب من دكان (الست ماري)

: طيب .. ماري هل تعرفك ؟ أنا سأضع عندها الخبر أنت اسألها دائماً

: الله يبارك فيك يا خواجا أنا ممنونك أنت تفضلت , الله يرزقك ويديم عليك الصحة والعافية

: أهلاً يا ناجي والله أنا أحببتك وأنت تستأهل .. أنا نازل الآن إلى بيروت .. هيا تذهب معي إلى كوع قبيزي

عند دكان ماري أنزلني ودخلت فوراً وسلمت عليها

: أهلاً يا بني

: خالة استطيع أن أطلب طلباً

: تفضل يا بني

: هذا الخواجا الذي مر الآن الذي نزلت من سيارته وعدني بعمل وسيترك لي خبراً عندك يزعجكِ ذلك .. أن أسألكِ كل فترة ؟

: لا .. يا بني تكرم عينك .. أنا حفظتك , سأخبرك فوراً ولكن أنت مر دائماً

: الله يبارك فيكِ .. خالة أريد غرفة للإيجار

: كما قلت لك مر دائما .. وسأسأل لك

: تفضلتِ

كانت الشمس حارقة , تحت الصنوبرات في قصري الجديد جلست , كانت تأتي بعض النسمات الباردة المنعشة , الصنوبر يأتي بالنسائم من آخر الدنيا , تمددت فوق أوراق الصنوبر أخذني النوم إلى عالم آخر إلى عالم حياة وجمانة , رأيتهما في الحلم , كانت حياة ابنة لجمانة في بيت يشبه بيوت القرية , كانت جمانة في قمة الأناقة والجمال , ترتدي ثياباً ضيقة جداً تُظهر خصرها الضامر ورجليها المنحوتتين من المرمر , ونهديها البارزين كبلبلين يهمان بالطيران , وحياة ترتدي فستاناً ليلكياً

قصيراً مكشكشاً , كانت تبدو كالفراشة .. كنتُ في ذلك البيت , كأنني وَهُنّ من البيت نفسه , لم أعرف في الحلم مَنْ هنّ بالنسبة لي , ما درجة القرابة بيننا أيقظتني زقزقة هائلة لأسراب العصافير وهي آيبة لتلك الصنوبرات لتنام أو لترتاح , فتحت الصندوقة وأكلتُ قليلاً من الخبز مع قطعة جبن وعنب , أعدتُ طمر الصندوقة وقررتُ المغادرة للبحث عن غرفة , وصلت أمام الكازينو , المضاءة لوحته بالكهرباء الملونة والتي تضيئ وتنطفئ بشكل متناوب , سحرني هذا الإبداع , تأملته قليلاً , وانعطفت غرباً مع الطريق وعلى غير هدى , ولا أدري إلى أين ومع النهر سرت , في أماكن كثيرة كنت أحس نفسي تُهتُ , ولكن ما جعلني أصرّ على المتابعة ولا أخاف , الأبنية التي كانت تطل علي من عليائها مقتحمة الفضاء الذي أخذ يميل إلى البرتقالي والسيارات التي لم تنقطع وكنت أضطر للوقوف جانبا حتى تمر لضيق الطريق وضخامة وفخامة السيارات المارة , وصلت إلى طريق عريض , السيارات فيه كقطيع الغنم أو الماعز ولمحت وأنا أقف على طرف الجسر الذي يعتلي نهر الفوار أن الطريق الذي أسير فيه يتابع باتجاه البحر بعد أن تعبر هذا الطريق المزدحم , وصار البحر بائنا للعين , انتظرت حتى وقف بجانبي رجل كبير , قلت أستفيد من خبرته , وأعبر معه إن كان يريد العبور , وفعلا كما

توقعت انتظر قليلاً وعبر النصف الأول من الطريق وعبرت بمحاذاته وأكمل وأكملت معه وتابع في الطريق نحو البحر وكان مسرعاً قليلاً .. مشيت بهدوء وكانت وجهتي البحر وهو العلامة المميزة في مسيري وفي كل تحركاتي وعليه وعلى اتجاه الشمس كانت كل حساباتي , ومنه أستطيع أن أخمّن أين هي الساحة .. ساحة انطلياس , وصلت إلى شارع عريض جداً جداً وتزدحم فيه السيارات أكثر وأكثر .. كأن لبنان أكبر وأكثر شعب في الكون ويملك أكثر سيارات الكون , وأنه أكثر شعوب الأرض تطوراً وحضارة ورقياً , صار البحر أمامي , لا يفصلني عنه إلا هذا الطريق (الأوتوستراد) والذي عرفت فيما بعد أن هكذا طرق يُطلق عليها هذا الاسم . كان الموج يقترب جداً من الطريق لدرجة حسبته في بعض المراحل , سيغمر السيارات المتراصة , عند زاوية التقاء الطريق الذي أتيت منه والأوتوستراد , وقف رجل قصير يعتمر قبعة من القش , أمامه عربة بثلاثة دواليب عليها مجمر , وعرانيس الذرة الصفراء تملأ جانبها الأيسر , وبيده قطعة خشب رقيقة جداً يهوّي بها على الجمر وباليد الأخرى يقلّب العرانيس , نظرت إليه .. إلى عينيه الخضراوين .. إنني أعرفه .. حاولت تذكره .. تذكّر اسمه أو أي أحد من عائلته لم أستطع .. ولكنني أيقنت أنه من عندنا وأنني

رأيته قبل هذه المرة .. تقدمت منه قليلاً ..
: مرحبا

تأملني قليلاً قبل أن يردّ
: أهلاً وسهلاً - وتابع التأمل – ماشاء الله .. ألست ابن سالم

: نعم أنا ابن سالم

: ما أتى بك إلى هنا ومتى ؟!

: أمس .. أتيت أمس .. أتى بي قدري يا عم

تأملني مرة أخرى وأطال
: نعم إنه القدر .. أهلاً وسهلاً يا بني .. كيف عرفتني ؟

: نعم عرفتك .. أقصد أيقنت أنني أعرفك .. وحاولت التذكّر وقلت أسلم عليك نتذكر سوية

: بالرغم أنني لا أذهب إلى الضيعة إلا قليلاً .. وقليلاً جداً .. منذ سنين طويلة لم أذهب

: لذلك لم أعرفك ولكنني تأكدت أنني رأيتك قبل الآن .. وربما القلوب

: أنا اسماعيل القالع أبو كامل .. يا بني الصغير يعرف الكبير لأن الإنسان بعد أن يكبر لا يتغير فيه شيئ ولذلك

الصغير يتذكره , أنا بصراحة شبهتك .. أنت تشبه أباك جداً الله يرحم ترابه.. تقول كأنك هو .. مع من وأين تعمل ؟

: أتيت أنا ويوسف ابن أسعد البري وحسن ابن حبيب .. حسن راح مع خليل تعرفه أليس كذلك ؟

: إيه .. هل هناك من لا يعرف خليل

: ويوسف تركته عند أبو أكرم , أنا غادرت الغرفة قبل الفجر , وابحث عن غرفة وعمل .. صفن قليلا وتمتم يكلم نفسه .. شاب صغير ولا يستطيع تحمل جلافة وقسوة عمل صالح .. وتابع بصوت مرتفع ..

: نسيت اسمك يا بني ذكرني

: أنا ناجي يا عمي

: ايه .. صحيح .. يا بني يا ناجي تذكر صالح سعيد ؟.. تعرفه ؟

: ايه أعرفه

: صالح ابن الضيعة يشتغل بتكسير الباطون ويشيل منه الحديد .. شغله صعب .. بس عنده غرفة وتنام عنده حتى يفرجها الله .. غرفته عند نبع الفوار وشغله هناك .. قريب

من الكسارات .. اليوم ابق عند أبو أكرم وغداً تعال .. (بكرا يحلها ألف حلّال)

: إلى غرفة أبو أكرم لا أعتقد أنني سأرجع , غرفته فيها قمل وفسفس , لم استطع أمس النوم على الاطلاق

: يا لطيف .. على الزحمة يا بني .. والله هكذا سمعت.. من الوسخ .. وأين ستذهب ؟ الحقيقة أنا أسكن في غرفة واحدة أنا وزوجتي وأولادي

: لا تخف يا عمي أبو كامل نحنا أولاد البراري .. لا تخف .. أتدبر أمري

: أين ؟

: أتدبر أمري ولا تهتم

: إياك أن تنام في البرية يا بني ..

: لا تخف يا عمي لا تخف أتدبر أمري

مدّ يده إلى جعبة يتزنر بها وأخرج نقوداً
: لا .. الله يبارك فيك لا أريد نقوداً .. معي .. أريدك أن تساعدني إن كان بالإمكان بتأمين سكنٍ أولاً وعملٍ فأنت طيب وخبرتك هنا كبيرة .. الله يديم عليك الصحة والعافية

: يا بني .. دين .. دين عندما تشتغل ترجعها

: لا .. لا .. والله معي , أمس واليوم , الله وفقني واشتغلت

: طيب الله يوفقك .. بكرا مر عليّ وأنا اليوم عندما أنتهي من هنا أذهب إلى صالح وأسأله ولو كان نائماً سأوقظه .. مر بكرا في هذا الوقت ..

: الله يبارك فيك ويقويك .. ساحة انطلياس من هنا ؟

: ايه .. أترى ذلك المفرق .. هذا مفرق البطركية , من المفرق للساحة خمسمئة متر .. خير يا ولدي ؟

: لا .. لا شيء .. أتعرف على المكان

: ايه (برابو).. شوف يا ابني هذا الأوتوستراد يأخذك إلى جونية إلى طرابلس إلى سوريا ومن هنا إلى بيروت .. بيروت ليست بعيدة.. وهناك جل الديب وهناك حارة الغوارني وهناك إلى الرابية وبكفيا .. بكرا تحفظهم كما تحفظ اسمك .. كلنا جئنا مثلك لا نعرف شيئا

: الله يبارك فيك

ودعته وغادرت صوب البحر , انتظرت فرصة وعبرت القسم الأول ووقفت وعبرت , وجها لوجه صرت أمام البحر , كان خالياً تماماً , ربما المكان الذي كنت فيه , ليس مكاناً مناسباً يرتاده الناس , لأنني رأيت إلى الجنوب في البعيد تجمعات كثيرة هناك , كان الشاطئ مليئاً

بالأشياء المرمية والنفايات التي لفظها البحر , كأن البحر لا يحب البشر ونفاياتهم ولذلك لا يبتلعها ويلفظها كما يلفظ جثثهم , وقلت في نفسي لو كان هذا البحر في الضيعة لوجد الأولاد أشياء كثيرة يلعبون بها , الشاطئ رملي , قرفصت وصرت أتأمل وأفكر , ربما في ثيابي قمل من ليلة الأمس , لماذا لا أنزل بثيابي في الماء , ربما يقتل الملح كل ما علق بي , راقت لي الفكرة .. طيب .. كيف سأشلح ثيابي وأين سأنشرها حتى تجف .. ولم يبق وقت لتجف الثياب فالشمس في أصيلها الأخير .. تبقى علي .. أقف هنا حتى تغرب الشمس تماماً وأتمشى إلى قصري في (الدغلة) وستجف قبل أن أصل .. وهناك أشلحها وأنشرها وألبس ثياب الشغل .. التقطتُ كيساً ووضعت فيه كل أشيائي وحفرت في الرمل وطمرتها وخلعت حذائي ووضعته فوقها , ومشيت في الماء حتى غمرني إلى رقبتي ووقفت , كان الموج الهادئ يمر وأحيانا يملأ فمي بالماء , وأنا واقف قرفصت في الماء ووقفت وكررت ذلك وفركت رأسي جيدا , تراجعت قليلا وصرت أنزع ثيابي وأفركها واحدة واحدة ثم لبستها , بقيت في الماء قرابة النصف ساعة , خرجت بعدها وتمشيت شمالاً والماء يهرّ من ثيابي الملتصقة على جسدي , على بعد خمسين متراً كان حطام لسيارة , خلفها رحت أشلح ثيابي وأعصرها وأنشرها عليها حتى صرت كما ولِدّتُ عارياً تما ماً ,

عصرتها جيداً ولبستها وغادرت , بدأ جسدي يحكني كله , وقدّرت أنه الملح , عبرت الأوتوستراد بهدوء لأن حذائي البلاستك كان يخرج منه أصواتاً مخجلة بسبب بقايا الماء التي فيه , تجاوزت أبو كامل وكنت حريصاً الا يراني , وعدت من حيث أتيت , بعد الجسر استلمت الطريق المحاذية للنهر , وهنا كانت الفكرة التي أنقذتني من الملح وحَكّتِهِ , أن أبحث عن مكان في النهر أغسل ثيابي وجسدي من الملح , وفكّرت هذا النهر ربما يكون متسخاً بسبب الأوساخ التي ترمى فيه , فقررت أن أرافقه حتى يخلو من السكان والبيوت أو أصل إلى النبع أو قريباً منه , عند الجسر الذي ينتصب فوق النهر ويتجه شمالاً قبل الكازينو بقليل تركت الطريق المعبد ورافقت النهر .. كان طريقاً صغيراً يوجد أثر للمارة عليه , سرت حوالي ثلاثمئة متر وأحسست بشيء من الخوف , صرت في برية , تقدمت قليلاً وجدت حوضاً حفره النهر في الصخر يصب فيه شلال صغير يرتفع عنه حوالي المتر أشجار الصنوبر الكثيفة تملأ المكان , وبضع شجرات غار على حافة النهر تماماً , كان الغروب بدأ يغادر فاسحاً المجال لليل , خلعت كل ثيابي وغسلتها واحدة واحدة تحت الشلال وعصرتها ونشرتها وصرت أمسح جسدي من الملح , كان الماء بارداً جداً , مسحت جسدي جيداً من ماء البحر وغسلت رأسي , ثم ارتديت ثيابي المبللة وعدت إلى

الجسر ومن هناك اتجهت شمالاً , من قرب الطريق التقطت قنينة ماء فارغة , حرصت أن يكون غطاؤها ما زال عليها .. لأملأها من حنفية ماء رأيتها وأنا ذاهب أمام باب الكازينو .. قلت إن رأيت أحد ما أستأذنه , أمام الكازينو كانت السيارات الفخمة تصطف , لم يكن قرب الحنفية أحد , ملأت القنينة وغادرت إلى دغلتي .. في الدغلة شلحت كل ثيابي ونشرتها وارتديت ثياب الشغل , وفتحت علبة على أنها علبة طون , وجدتها جبنة .. أكلت منها وشربت .. سأتمدد قليلا ثم أذهب باتجاه فندق أبو أكرم لأرى الشباب ماذا فعلوا

(2)

عندما أرسلتني لاقتراف الأحلام

كانت الريح تلسع خطواتي بعرس الدم

خبأ الضباب محرابك

تركت لك صرةَ وُعُودٍ

على مفرق الريح

صهيل الدروب لم ينتظر

ولا شمسٌ ترفع يدي للتلويح

غادرت لاقترف الشمس

لورودكِ التي غازلها الحلم

قبيل صباح

تأبطتُ النهر

وقلتُ...

سوف أهديه للبحر

وآتي لك بقرب الصباح

سامحيني...

في زحمة الصهيل

تلاشى ظلك في قناديل الاشتهاءات

ولم أجد بحراً على شواطئ الفقراء

حاولت أن أرسم بحراً لمراكبي

فوجئت ..لا أدري ..أم صعقت

هم يعتقدون ...

أننا خُلقنا أحذية للدروب

وحطباً لدفء الأفاضل

وكلاباً لأبواب الآلهة

فاعذريني

هذا هشيم الروح

هذي أحطاب قصائدي

أوقديها لبرد العمر

فأنت أولى باشتياقه

سامحيني ...

لم يعد لدي غزلانٌ لاشتهائك

ولا حورٌ لأرضك

ولا أشرعةٌ لقواربك

نستْ من قرر السنين

وقلبي إليكِ

لم تعد تحمله قدماه

وأسرابُ نوارسه

لا تجد شاطئاً تهجع إليه

بات الآن يمارس طقوس التعري

كل يوم يهدي لتشرين قميصاً

ويفتح صفحة جديدة للمغادرين

من الفجر الأول

ونحن نستر عرينا بمناديل الترفع

ونكمَّ أفواه الجوع بتصنع الأدب

ونلفلف ضحلنا برث البقايا

نسكب دمعنا لليل

ننادمه كي يسكر وينام

ما زلت أقترف الحنين

ما زلت أعاقر الحلم

وأقبس الحبر من الدوالي البعيدة

وما زلتِ نجمي الذي يقصني سوالف الشعر

وحنين العتابا

والدتي الحبيبة ...

مساء الخير أيتها الطيبة الحنونة

كنت أنوي كما ذكرت لك الذهاب لعند يوسف لأرى أحواله في فندق أبو أكرم واستخبر عن وضع حسن عند خليل .. هل اشتغلا أم لا ؟ ولكنني نمت يا أمي .. نمت كالقتيل , نمت حتى بزوغ الفجر , أيقظتني همروجة ضخمة للعصافير التي تشاركني المكان هذه الأشجار كانت تغصّ بشتى أنواع العصافير مع أول خيوط الفجر بدأت الهمروجة , كأن العصافير تستيقظ باكراً جداً , تقوم مع قيامة الضوء .. مثلك تماماً , أحسست أنني متيبس وألم في رأسي ومغص في أمعائي , شربت ماء وغسلت

وجهي وبللت رأسي , تذكرت مقولة أبي – الماء البارد يخرج الوجع من الرأس – أكلت شيئا من الخبز والجبنة المتبقية من أمس , وكما يقول والدي المعدة الفارغة تأتي بوجع الرأس , عندما دبت الحركة في الطريق , طمرت صندوقتي وأخذت كيس الزاد وانطلقت باتجاه الساحة , عندما وصلت كان العمال بدؤوا يتوافدون عند الزاوية الغربية وقفت جانب عمود كهرباء , ايقظتني من شرودي يد تربت على كتفي .. كان يوسف ..

: صباح الخير (كيفك ؟ وينك ؟ يا أخي ما حدا قدك .. أكيد دبرت حالك ونسيتني)

كان يوسف وحسن مع رجلين كبيرين في السن من الفتوح , أعرفهما لكن نسيت اسميهما

: اهلا .. صباح الخير – وسلمت على الجميع , احد الرجلين رحب بي

: اهلا عمي ناجي .. إلهي يحميك صرت شابا , من زمان لم أرك

همست في أذن يوسف ..أجل حديثك الآن ليس وقته فسكت .

قال الرجل الثاني

:نحن عندنا صب باطون تستطيعون الشغل معنا ؟

رد حسن : عمي .. نجرب اليوم ونرى

حسن كان أكبر مني ومن يوسف و علامات الرجولة بائنة عليه أكثر , والتفت نحوي ونحو يوسف وقال

: ما رأيكم

قلنا أنا ويوسف بصوت واحد : نجرب

انتظرنا بحدود عشر دقائق لتأتي السيارة التي ستقلنا إلى مكان العمل , في هذه الأثناء رآني أحد الرجلين أضغط على بطني

: ما بك يا ولدي ؟

: أثر مغص في بطني

: لونك أصفر قليلاً , لا تخف .. برد وحر .. روح جيب قنينة سفن أب واشربها مع منقوشة من عند عمك أبو أسعد لا يبقى بك أي شيء بإذن الله .. لا تخف - وكأنه قرأني - وأنني لم أفهم منه شيئاً .. لا أعرف السفن أب ولا المنقوشة - ثم استدرك - تعال معي .. تبعته .. كان المطعم مقابلنا تماما .. يصنعون فيه صفائح اللحم بعجين والجبنة والزعتر والحد (الفليفلة) وهذا المطعم أو الفرن

الذي صرت اعرفه جيداً وصار بديهي مثل الطريق والناس

: صباح الخير أبو أسعد .. وحدي زعتر .. وتوجه إلى البراد وأتى بزجاجة خضراء اخرجت النقود ومددت يدي لأدفع ..

قال : لا هذي ضيافة مني , وبكرا عندما تشتغل تضيفنا جميعا إنشاء الله .. غداً تصبح أحسن معلم انشاء الله

أصريت .. ولم أقبل ..

نظر إلي أبو أسعد - وكان رجلاً قصير القامة ووجهاً ابيضاً وعينين تميل للأخضر -

وقال : لا أنت ولا هو .. ألست ابن فهد سليمان ؟
: لا .. فهد خالي .. أنا ابن سالم الشيخ

: يا بني أنا اعرف خالك وأبوك منذ كنا صغاراً .. وهذي ضيافة مني , ودائما أنت معزوم

قال الرجل : ها.. (طلعنا برا).. الله يبارك فيك أبو أسعد

: البركة فيك يا ابو سهيل انت (أدمي)

كنت أول مرة في حياتي أتذوق طعم السفن أب ومناقيش الزعتر , وبالفعل سكن الوجع , وصلنا إلى مكان الورشة ,

أبنية كثيرة ترتفع والعمال كثيرون والمكان يعجّ بهم , في البداية عملنا في تكييل الرمل والبحص ثم أتينا بأكياس الاسمنت وبدانا بالتقليب وكله بالإرشادات , ثم بدأنا بالجبل وتعبئة التنك , بحدود العاشرة (بقبقت) يداي ويدي يوسف وحسن وهرباً من وجع الأكف حيث لم نعد نستطيع مسك الرفش , وسلخ الجلد عند الركبة , وبدأنا نقصر , فاقترح أحدهم

: ما رأيكم أن تجربوا زق التنك , سهلة .. وطلعة السلم عندما تتعلمون تصبح مثل شربة الماء (يلا .. يا شباب بدنا نخلص الأعمدة قبل ما يحمى الشوب)

تناولنا كل واحد تنكة وبدأنا ووقف مكاننا نحن الثلاثة واحد .. واحد .. وكان يرتاح ويدخن .. كان مجرد وضعت التنكة بلمح البصر تمتلئ , في البداية شددنا وهم شجعونا , بعد ساعة أحسست أن كتفي عليهما ملح قببت القميص .. كان اللحم قد سلخ والدم بدأ ينزف رأى يوسف المشهد , دهش

: كيف تتحمل !؟

ورفع قبة قميصه فرأى نفس المشهد , أنا لم أكن في البداية أحس بالوجع . كنت أحسّ أن شيئاً يسيل بهدوء من كتفي إلى قدمي عندما خلعت حذائي البلاستيك كان الدم قد وصل إليه , وأحسست أن اليوم لن ينتهي إلا بموتنا ,

بحدود الثانية عشرة انتهت الأعمدة , وانتهينا نحن الثلاثة , في نهاية هذه الجولة أخذنا كل واحد منا اربع ليرات

عند كوع قبيزي قال حسن
: شباب أنا رايح إلى غرفة خليل وعبر

وقفت أنا ويوسف عند دكان ماري قلت ليوسف

: يوسف أنا لن أذهب إلى غرفة أبو أكرم أبداً

: إلى أين إذا ؟

: أنا أنام في البرية على طريق الفوار في دغلة صنوبر حتى أجد سكناً

: في الحرشة !؟ والدنيا ملأى أفاعي وعقارب وربما ذئاب ! ؟

: أريح من القمل والفسفس أنا لم أنم تلك الليلة وحاولت إيقاظك فلم تستيقظ , ورحت واهتديت إلى هذه الدغلة وهذه هي الحكاية .. يوسف إياك أن ترويها لأحد .. اذا أردت أن تقضيها معي أهلا وسهلا

: لا والله ..أنا أنام بالقمل ولا أنام بالبرية , على فكرة أبو أكرم سال عنك وقال ..والله أنا أحببت هذا الولد

: سلم عليه وقل له وجد شاب ينام عنده
: سلام

: سلام

تركت يوسف ودخلت دكان ماري قلت سأشتري سفن أب
, وأسألها إن كانت وجدت لي غرفة للإجار

: مرحبا يا خالة

: أهلا وسهلا يا بني

: أريد سفن أب
: افتح البراد وخذ ما تريد

: خالة .. لا تنسيني من أجل غرفة للإجار

: تكرم .. تكرم كما وعدتك سأسأل

: الله يعطيك العافية يا خالة .. لا تنسيني إذا جاء الخواجا

: لن أنسى يا بني .. تكرم عينك .. لن انسى

: تسلمي يا خالة .. تفضلت

: الفضل لله .. تكرم

كأن دغلتي مقفولة بألف مفتاح لم يقترب منها أحدٌ , وصندوقتي كما هي .. صار الخبز يتفتت , لم يتحمل علبة السردين , أكلتها بصعوبة مع السفن أب هذا الاكتشاف الرائع اللذيذ , كنت أفتح يداي بصعوبة وبدأ الوجع والتعب يجتاح كل مفاصلي , لم أكن أتوقع أنني استطيع رفع تنكة الباطون إلى كتفي وأصعد بها سلم خشب .. في البداية راقبت الرجال كيف يخطفون التنكة وبسرعة إلى أكتافهم , ويأخذوها مسرعين , ويصعدون السلم كأنهم يسيرون على أرض مستوية وهم يحملون ريشاً وليس بيتوناً , عندما رأى حسن اندهاشي قال لي (متعودين) نحن يلزمنا وقتٌ كثيرٌ حتى نصير مثلهم .. في تلك اللحظات كنت أحس بقرف الدنيا ومن عليها .. الآن أحس بألم كيفما تحركت .. كأن الدمع أحيانا يريح يا أمي

بمنتهى التعب تمددت .. فقت بحدود السادسة , وفورا تذكرت موعدي مع أبو كامل , لعله وجد لي عملاً أفضل من صب الباطون فجروحي من هذا اليوم يلزمها عدة أيام , غادرت مسرعا

: مساء الخير عمي أبو كامل

: أهلالالالا - كانت طويلة وفيها كثير من الود والحب والعطف - أمس رأيت صالح وقال ليس لديه مانع وهو مستأجر غرفة صغيرة تتسع لفرشة اسفنج وفيها سقيفة قال

بإمكانك وضع اسفنجة عليها وتنام .. وقت النوم فقط .. ما رأيك ؟

صمتُّ قليلاً

: طيب .. لا نخسر شيئاً إن جربنا

: طيب .. أنا أروح من هنا الساعة التاسعة , تعال تسعة إلا ربع نذهب سوية إليه

: ألف شكر عمي أبو كامل سامحني عذبتك معي

: لا.. يا بني .. لا .. لا تقل ذلك هذا واجبي .. انشاء الله تستطيع العمل عنده , فعمله صعب

: إن شاء الله خير

ودعته وقطعت الأوتوستراد باتجاه البحر , جلست على الرمل قليلا وغادرت شمالا حتى مفرق البطركية , عبرت باتجاه الساحة , هناك اشتريت سفن أب واتجهت جنوبا لما بعد الجسر ومن أسماء المحلات عرفت أنني صرت في جل الديب , الأبنية ولافتات المحلات والبساتين , التي تتوزع بين الأبنية والشوارع كان ساحراً .. الشوارع النظيفة والأبنية التي تنتشر على شرفاتها النباتات والزهور , ألوان الأبنية .. في شارع عريض كان يتجمع شبابٌ وصبايا يرتدون ثياباً جميلة أنيقة أغلب البنات

يرتدين لباسا قصيراً جداً تظهر سيقانهن الجميلة وأغلب صدورهن , ومنهن من يرتدين بنطالاً وقميصاً شفافاً , البنطال واسع في الأسفل وضيق في الأعلى , بعضهن كان جهازهن التناسلي مرسوماً على ثيابهن , الشباب بشعورهم الطويلة ولباسهم الأنيق , بعضهم كان يربط شعره كالنساء , وبعضهم لحاهم طويلة , والبعض كان يعقد قميصه عند الخصر . بناطيلهم كلها واسعة في الأسفل وضيقة في الأعلى , لدرجة أن جهازهم التناسلي واضح كذلك , كانوا يتسامرون بسعادة وبصوت مرتفع , ولكنني لم أفهم شيئاً ؛ لكثرة المتكلمين سوية , بالرغم من أنني حاولت أن افهم شيئاً ؛ لأعرف سبب تجمعهم , ولكنني عرفت من الصور المعلقة عندما اقتربت أكثر .. إنها دار السينما , وقفت بعيدا أتأملهم وتمنيت لو كنت واحداً منهم , وتساءلت , ماذا كان سيخسر الله , لو خلقني مثلهم في بيت أحدهم . أمام - سوبر ماركت الأرز - هكذا قرأت على واجهته , وقف شاب يرتدي مريولا أبيض أنيقاً وأمامه مكنة بحجم الخزانة فيها عدة أزرار .. راقبته كان يكبس زراً معينا بعد ان يطلب الشاري .. فمرة بعد كل كبسه تنزل كأسا صغيرة بعدها قطعة خشب صغيرة تشبه الملعقة وأحيانا ينزل السكر , عرفت فيما بعد أنها القهوة سادا أو وسط أو حلوة .. ومرة تنزل قنينة ماء .. ومرة يأخذ هو ما يشبه القمع ويكبس زر فينزل العجين ولكنه

ملون .. وعرفت فيما بعد انها البوظة .. اقتربت منه لإحساسي أنه عامل وممكن أن يكون سورياً ورأيت في يده ساعة , فقلت أسأله

: مساء الخير

: مساء النور .. اهلاً مرني ؟

: كم الساعة ؟

: ثمانية ونص

: شكراً .. أنت سوري ؟

: نعم

: أنا جئت من فترة و أبحث عن عمل .. أتستطيع مساعدتي

: أهلاً وسهلاً .. الآن ليس لدي فكرة .. مر دائماً وأنا سأسأل لك .. أنا هنا دائماً .. مر

: تسلم الله يبارك فيك .. أنا سأمر كل يوم إن استطعت .. إن كان ذلك لا يزعجك

: لا .. لا .. لماذا .. نحن أهل

مسك ما يشبه القمع وضغط زرا وقال لي ..
: تفضل

: شكراً لا أريد

: تفضل .. تفضل .. لا نستطيع إعادتهم .. اقبلها مني ضيافة
مددت يدي إلى جيبي وأخرجت نقوداً
: تفضل

: لا .. يا رجل أقول لك ضيافة .. أنت لم تطلب أنا من ضيفك .. أهلاً وسهلاً بك

: شكراً لكرمك .. ولأخلاقك

: مر دائما .. والله سأبحث لك عن عمل إن استطعت

أخذتها وودعته وغادرت وأنا أتذوق ما اعطاني إياه .. كان لذيذاً .. يقولون أن اللحم أطيب أنواع الأطعمة .. هذا أطيب وألذ , أمس اعتقدت أن السفن أب أطيب شيء .. لا .. هذا أطيب بكثير , وصلت عند أبي كامل على الموعد تماماً

: أحسنت يا ناجي .. والله أنا من اللحظة التي رأيتك فيها وقلبي لهف إليك وتوسمت بك الخير والصدق .. على الموعد تماما

: شكرا أنت غمرتني بلطفك ومحبتك هذا دين أتمنى أن أستطيع أن أرد لك شيئا منه

: يا بني .. عندما تنتبه لنفسك ولا تذهب إلى المكان الخطأ تكون قد رديت ووفيت وأكون ممنوناً

تبعته .. كان بيته قريباً من الجسر

: يا بني الآن ندخل ونأكل ثم نذهب

: يا عمي .. إذا كنت جائعاً كُلْ أنا سأنتظرك هنا .. أنا أكلت ولست جائعاً

: لا .. يا بني من أجلك .. أم كامل تكون قد أحضرت طبيخاً وأنت تأكل نواشف دائماً

: الله يبارك فيك .. غير مرة .. وتكون قد أخبرتها مسبقاً

: طيب لحظة

دخل طريقاً ضيقاً , وعاد بعد أن ركن العربة

: تفضل

مشينا في الطريق الذي أتيت منه , كأنه لا طريق أخر يوصل إلى نبع الفوار إلا هذا , بعد الكازينو وفي درب معبد ضيق سرنا حوالي خمس مئة متراً وصلنا أمام مبنى

من طابقين وقبو , المبنى بني على سفح ولذلك القبو كأنه بني لمساواة الطابق الأول بالطريق , هنا كان يسكن صالح , يسكن غرفة في القبو , كان يضع كرسياً أمام غرفته , كأنه في الضيعة , رحب بنا وعزم أبو كامل ليجلس على الكرسي , لم يعر أبو كامل دعوة صالح للجلوس مكانه , وجلس على حافة من البلوك وجلست أنا بجانبه وعاد صالح إلى كرسيه , وفهمت أنه لا يوجد غيرها عنده

: أخي صالح .. ناجي .. أنا وأنت , تربطنا به صلة قربى وجيرة , وهو مسؤوليتنا , ويجب مساعدته حتى يتعرف على المنطقة والناس , وبعدها هو سيؤمن نفسه

توجه بنظره نحوي

: شوف يا عمي .. أنا أشتغل بتكسير باطون الأسطحة والأعمدة للأبنية القديمة واستخرج الحديد منها .. أن أعجبك الشغل واستطعت العمل سأعطيك ثلاث ليرات , والشغل من السابعة للرابعة , وسأسكنك معي إذا أعجبك .. تعال معي - قمت مشيت خلفه - هنا ستنام , وأشار إلى سقيفة - عرضها متر وعلى امتداد الغرفة لها باب متر ونصف والباقي مغلق وبينها وبين السقف نصف متر - هنا تضع اسفنجة والصبح نذهب سوية لآخر هذا الوادي

هناك أشتغل , ربع ساعة مشياً , ونعود سوية , وهذي كل امكانيتي

: الله يبارك فيك , تفضلت .. أنا اليوم سأنام في المكان الذي أنا فيه وغداً من السابعة سأكون عندك وبعد أن نعود من الشغل أذهب وأشتري اسفنجة

: أهلاً وسهلاً

تدخل أبو كامل

: ولماذا غداً .. الآن أذهب أنا وأنت ونشتري اسفنجة

كانت غرفة صالح ثلاث أمتار بثلاثة يضع في الزاوية اسفنجة وأمامه بابور الكاز وبضع صحون وطنجرة ومقلاة وصندوقة مصنعة من خشب قالب صب البيتون وعليها قفل , هذا ما رأيته على السريع في فندقي الجديد . ذهبت انا وأبو كامل إلى دكان كأنه في ضيعة وصاحبه يشبه أهل الضيع .. وأحسست كأنني أرى الطيبين في ضيعتي , كل سماحة الكون وطهره , أحسسته في وجه هذا الرجل .. سلم عليه أبو كامل بحرارة .. ورد عليه

: أين هذه الغيبة يا أبا كامل .. يا رجل على أساس نحن تخاوينا .. أم جورج زعلانة منك ومن أم كامل

: والله الحق معكم .. ولكن أنتم أهلنا وتعذرونا .. أعود متعباً ومنهكاً .. وأنام كل يوم كالقتيل

: ايه .. ويوم الأحد ؟

: اليوم .. سأقول لأم كامل أنكم زعلانين وقريباً جداً سنكون عندكم والله الحق معكم

في هذه الأثناء خرجت امرأة في عقد الستين من عمرها , ابتسامتها تزرع في القلب الطمأنينة
: أهلا ابو كامل ..(ايه .. والعدرا زعلاني , أنتم غاليين علينا كتير و الزعل ع قد المحبي)
سلم عليها أبو كامل بحرارة .
: الحق معك .. والله الحق معك .. ولكن أنت تعذري .. كنت أقول لأبو جورج ..التعب هو الذي يؤخرنا عنكم .. هذا الأحد سنأتي أكيد

: تفضلوا .. تفضلوا

: أخي أبو جورج هذا الشاب(الصغير) غالٍ علي كثيراً من كم يوم جاء أريد له اسفنجة للنوم

: تكرم أنت وهذا الشاب

: كم حقها ؟

: هي والمخدة ليرتان

ناولته خمس ليرات بعد أن حاول أبو كامل أن يدفع فلم أقبل , كنت سعيداً لأنها جديدة , لم ينم عليها أحد وخالية من القمل ومن الفسفس , أوصلني أبو كامل , وودعنا وراح , وعلى الكرسي صعدت إلى السقيفة , كدت أسقط مرتين لأنني لم أستطع استخدام يدي من شدة الألم , ناولني صالح الاسفنجة والمخدة , كانت هذه السقيفة بحدود المتر عرض وثلاث أمتار طول , تمددت كدت أختنق , كان الجو في السقيفة كأنه بلا هواء .. كأنك قرب تنور , كدت أختنق ناديت

: يا عم صالح .. يا ريت تأخذ مني الاسفنجة والمخدة

: خير يا بني

: والله ياعم صالح النوم هنا مستحيل أكاد أختنق

وقف وتناول مني الاسفنجة والمخدة وساعدني في النزول قلت له

: افرشها هنا وأنام .. وأشرت له على المصطبة الصغيرة أمام الغرفة

: يا بني هنا ممر .. طريق للجيران , لا يمكن , صعب

: طيب ..عمي صالح .. اترك عندك الاسفنجة والمخدة وغداً يخلق الله ما يشاء .. الله ييسر خلقه أليس كذلك ؟

: انشاء الله .. انشاء الله .. واليوم ؟

: ولا يهمك .. سأتدبر الأمر في المكان الذي نمت فيه أمس

: أين ؟

: عندي مكان أنام فيه منذ يومين , وهو واسع جداً أنام هناك

: كما تريد

: وغداً من السابعة أكون عندك .. تصبح على خير

: مع السلامة

تركته وصرت أعلم الطريق من اليمين ومن اليسار , الفقاعات التي كانت في كفيّ فقئت وأنا أتسلق السقيفة , فكنت أحس أنني أمسك جمراً , ونسيت آلام كتفي وفخذي , وصلت أمام الدغلة .. لم تكن بعيدة .. هذا منزلي الإلهي واسع ورحب , سماء وأرض وهواء , ودائم الترحيب بك , تمددت وفتحت راحتيّ للهواء ليخف اللهيب , فتحت إحدى القناني وسكبت عليهما ماء , بعد نصف ساعة هدأ اللهيب وصرت أحس بوجع كتفي وفخذي , فكرت غدا

كيف سأعمل .. كيف سأمسك المهدة وأقنعت نفسي .. لكل لحظة رب .. هو من يدبرها , كان الهدوء يزرع في الروح السكينة , أكلت بعض الخبز وبقايا عنب لأنني لم أستطع فتح اي من المعلبات .. كانت يداي تؤلماني جداً

(3)

لا رموش للشمس لتنعس

لا مقل للورد لينام

والفصول تتشابه

حدَّ التوءمة

والقهر .. الشارع الرئيسي

للقرية .. للكون

يأتون ويروحون عليه

هكذا الحب والأشياء

يخترقهم خيط القهر

السرمدي

بكرّتُ – من أول الحلم

أفاجئك بالصباح

كان الفجر يهر عن كتفيك

كحبات البرد

وأنت تزرعين الزاروب

بخطى صلاة الصبح

كان وجهك على الحيطان

ضاحكاً

والورد فاتحاً يديه للتهجد

هي فجيعة – هذا الغلاف وصل حدود القمر

وهذا الحلم يداعب زهر الروح

عند بوابة الصباح

بمقدوره ليلنا ,

من الآن – إلى آخر هذا البياض

أن يسقي حبقه ودواليه

بأكواب شمس

وأهداب نوافذ

تحاول ألا تنعس ,

قبل أن يعانقها حلم

رسمته على دروب الألم

والدتي الحبيبة ...

هذا يوم جديد .. جديد جداً , أيقظني ككل يوم .. الأهل والأصدقاء , يا أمي سكان البراري كذلك يصير بينهم إلفة ومحبة همروجة العصافير مع بزوغ الفجر كأنها ناقوس الصباح , معلنا يوماً جديداً , فتحت عيني , كانت العصافير على الغصن الذي يمر فوق رأسي , تصطف متراصة , تغرد وتنظر إلي .. كأنها تقول لي , ها الصبح فاق .. أفق , لم أستطع الحراك للوهلة الأولى , كتفاي تؤلمانني بشكل فظيع .. ويداي لا أستطيع إطباقهما بعد أن فُقئتْ أمس بعض الفقاعات وظهرت فقاعات جديدة , وبين الركبة والورك التصق البنطال على اللحم , نضّت قليلاً .. صرت أحرك رجلي ويدي بهدوء , ربما هواء الليل البارد , ساهم في تيبس جسدي وأطرافي , والغريب يا أمي أن العصافير لم تفر , صار بيننا صحبة , كانت الساعة بحدود الخامسة , وبدأ الصباح يفرش شراشفه فوق الكون , عندما بدأت الحركة تدبّ .. غادرت باتجاه صالح , عندما وصلت كان يجلس على كرسيه يشرب الشاي

: صباح الخير

: أهلاً وسهلاً

وقام فوراً وأتى بكأس وصبّ لي الشاي , تناولته وصرت أرتشفه , أحسست أنه أطيب كأس شاي تذوقته في حياتي , شربته بسرعة وبشهية , انتبه فصبّ لي فوراً كأساً آخر شربنا وغادرنا شرقاً في طريق ترابي , مشينا حوالي ربع ساعة ظهرت جبالٌ محفورة , كأنها مقصوصة بسكين , سألته باستغراب !

: ما هذه يا عم صالح ؟

ولاحظ دهشتي

: هذه يا ولدي الكسارات , من هنا يأخذون البحص والرمل من أجل البناء , هنا كسارات ضخمة تطحن الحجارة ومن أعلى الجبال ينحتونها بتفجيرها بالديناميت , عرضوا عليّ العمل هناك وبأجر عالٍ , العامل هناك يأخذ في اليوم ثماني ليرات وأحيانا أكثر .. ولكنني رفضت ..لأن فيها خطراً كبيراً , الذين يعملون برأس الجبل بالتلغيم يربطونهم بحبال من خصورهم , وأي خطأ مهما كان صغيراً يذهب صاحبه بخبر كان

وصلنا إلى بيت مهدم من طابقين قال صالح
: هنا شغلنا

كان صالح يكسر الأعمدة والأسطحة وكل شيء ويستخرج الحديد منها , ناولني مهدة أعتقد أنها أربع كيلوات وهو يقول
: هذي ممتازة وليست ثقيلة

وتناول هو مهدة أكبر , كنت أتمنى أن تكون أقل وزنا , وبدأنا.. لاحظته كان يراقبني من طرف عينيه , كنت أرفع المهدة بصعوبة , من ألم كتفي ويدي , بعد ساعة امتلأت عصا المهدة بالدماء , أنا لم أنتبه , انتبه صالح قال لي

: ما هذا يا بني .. من أين هذا الدم ؟

فتحت يدي , كان الدم يسرح من كفيّ

: وهو ينفخ ويستغفر .. هذا حرام .. استغفر الله .. يا بني توقف .. أنت هكذا كمن يقتل نفسه

: عمي صالح دعني أكمل اليوم وبكرا يفرجها الله

: يا ولدي مستحيل .. أنت لا تستطيع أن تكمل .. سلخت يداك وكلما تابعت ستسلخ أكتر .. يا بني اسألني أنا .. كلنا صار فينا هكذا .. روح يا ابني .. روح .. جد لك عملاً آخر .. عملاً هيناً .. هنا صعب .. خاصة وأنت في هذه الحال .. يجب أن تنتظر حتى تصح يداك

: عم صالح .. أنا أمس اشتغلت بالباطون (بلبعت)
وسلخت يداي .. والآن أكملوا .. كم يوم وتشفى وتصير
هذه الفقاعات لحماً يابساً وعندها سترى أنني أستطيع
وسأعوض

: يا بني يجب أن ترتاح حتى تصح وتتيبس هكذا توزم
و(يسخنوك) وممكن تحتاج لطبيب ومشفى .. اسمع مني
روح ارتاح يومين حتى تشفى وبعدها لكل حادث حديث

ودعته وغادرت

: تستطيع الذهاب بنفسك ؟

: نعم أعرف .. لا تخف

كان ألم يدي فوق الاحتمال ولكنني صبرت , كانتا كأنني
أمسك في كل واحدة جمرة وجعهما أنساني ألم كتفيّ
وفخذيّ , قررت أن أنزل باتجاه النهر , أجد هناك مكاناً
خالياً , أرتاح فيه وآكل , الطعام الذي أحمله وحاولت
تركه لصالح فلم يقبل , وقال إنه يأكل قبل أن يأتي ولا
يأكل بعدها حتى يعود , سعدت لأنه لم يقبل , فقد أحسست
بجوع فظيع , عند أول الأبنية عند ابتداء الطريق المعبد
وجدت دكاناً .. اشتريت كيلو عنب وسفن أب وغادرت ,
ومن أمام الكازينو أخذت قنينة كبيرة (صحة) هكذا
مكتوب على ورقة ملصقة عليها تكون مملوءة بماء عذب

, عندما يشربونها يلقونها , غسلتها جيدا وملأتها ماء من الحنفية ونزلت باتجاه النهر , اتجهت شرقا لأنني لاحظت أن الناس تتجمع في القسم الغربي من النهر , وكان صياح الأولاد والشباب والبنات يملأ الوادي , تحت صنوبرة ضخمة جلست أبرّد لهيب يدي وكتفي , أخرجت الخبز وعلبة الجبنة وغسلت العنب قليلاً وأكلت .. أكلت بشهية , اسندت رأسي على جذع الصنوبرة , أيقظتني الشمس التي غربت وصارت تصفع وجهي بحرارتها الحارقة , قمت ووضعت يدي في الماء الجاري قليلا , وغادرت إلى الدغلة , غيرت ملابسي ورحت إلى الدكان الذي اشتريت منه أنا وأبو كامل الاسفنجة , كان الرجل السبعيني يجلس أمام دكانه , عرفني فوراً ورد السلام بمنتهى الود

: أهلاً يا بني تفضل

: تسلم الله يبارك فيك .. عم أبو جورج .. بدي غرفة صغيرة .. صغيرة , لو كانت على قدّ الاسفنجة , تحت درج على سطح في أي مكان

صفن قليلاً : يا بني مر بكرا , سأبحث لك عن مكان ..

: بارك الله فيك يا عمي ابو جورج

قررت أن أذهب إلى أبو كامل ولا أدري لماذا .. ربما لأنني وجدته إنسانا أكثر من الجميع

: أهلالالالالا - طويلة جدا قالها -

: أهلا فيك عمي أبو كامل .. الله يديم عليك الصحة والعافية .. شكراً لاهتمامك بي .. إليك تقودني قدماي ولا أدري لماذا .. سامحني أرجوك

: لا .. لا تقل ذلك .. أنت مثل أولادي .. اخبرني كيف صالح ؟

: صالح (آدمي) ولكن .. المشكلة بي .. والله أنا لست قادر على العمل معه خاصة أنني ذهبت إليه بعد يوم عمل في البيتون سلخت يدايّ وكتفاي فأكمل العمل معه على الباقي وفتحت كفي أمامه

: يالطيف .. ياساتر .. ما هذا ؟! الله لا يوفقك يا صالح

: والله صالح ليس له ذنب .. هذا ليس من اليوم فقط .. هذا من أمس من صب البيتون كما قلت لك

: لماذا لم يرسلك فورا ؟

: الحقيقة عندما انتبه ورأى الدم على نصاب المهدة قال لي .. لا قدرة لك على هذا العمل الآن .. على الأقل الآن ..

وأمس لم أنم عنده .. عمي أبو كامل على السقيفة .. نار جهنم كدت أختنق فرحت

: يالطيف .. ياساتر - كان يقول ذلك وهو ينظر إلى يدي اللتين أسبلتهما كي يزيح عنهما عينيه اللتين امتلأتا بالدموع ما جعلت دمعتي التي حارت من الأمس وحاولت ألا تسقط , ولكن دمعة أبو كامل أسقطتها , تمالك نفسه أو أحس أنه جعلني أنا أضعف أمام ما أنا فيه , نظرت إليه وقد حول عني وجهه وأخذ يقشر عرانيس الذرة

: عمي أبو كامل أنا أعرف أن ظرفي صعب , ولا أريد أن أزعجك .. أنا سأصبر , لا تخف عليّ .. وسأجد حلاً إن لم يكن اليوم فغداً , إن لم يكن غداً فبعد الغد , عم أبو كامل , سنصبر حتى نموت لأنه لا خيارات أخرى أمامنا , ولا بديل عندنا

: - وكأنه تدارك - لا تخف يا ولدي هذه وزمات بسيطة وفوراً تصح .. كلنا صار فينا هكذا .. لا تخف .. انتبه للعربة , سأذهب إلى الصيدلية وآتي لك بدواء أحمر .. الدواء الأحمر ينشفهم فوراً .. لا تخف .. هذه الدنيا بنت ستين ألف كلب

: هينة عمي أبا كامل .. هينة .. كم يوم ويصحا ن وبدون أي شيء .. الدواء الأحمر سيظهر على يدي .. وهكذا لن يقبل أحد أن يأخذني لأي عمل .. يفرجها الله عمي

: ماذا أعطاك ؟

: من ؟

: صالح

: لم يعطني شيئا .. ولا أريد أي شيء

: لا بالله ليس صحيحا .. تذكرت .. خضر موسى هو من أقربائك .. أقصد من أقرباء والدتك رحمها الله يعني من أخوالك .. يعمل ناطوراً في بستان قريب من هنا .. في البستان بناء طابقين نراه .. ربما يقبل و يسكنك عنده , إذا رضي ترتاح من الإجار , يا بني عد إلي عند الثامنة أذهب أنا وأنت إليه ونرى , وإن كنت تحب البقاء بقربي تفضل أقعد على هذا الكرسي .. تفرج .. وعندما نخلص نذهب

: عمي لا أريد أن ألبكك بي .. أنا أذهب وأبحث عند الأفران ربما أجد عملا لديهم وأعود إليك في التاسعة

: لا قبل .. تعال قبل .. الثمانية والنصف

: تمام ..(بخاطرك)

: مع السلامة

بعد زاوية أبو كامل بمئة متر بناءً من عدة طبقات الطابق الأرضي صالة ضخمة واجهتها زجاج فوقها لافتة مضاءة .. تضاء ثم تنطفئ ثم تضاء بالتدريج , ثم تنطفئ , ثم تضاء بالكامل هذه الحركة الجميلة أستوقفتني (أفران انطلياس الحديثة) سرت باتجاهه واقتربت من الواجهة الفخمة .. والتي تتوزع عليها الرفوف المليئة بأشكال غريبة عجيبة من الحلويان والمعجنات , وفي صالته كذلك , موزعة بمنتهى الأناقة .. كان في الصالة شاب دائم الحركة , يرتدي ثياباً أنيقة , وشعره الأسود مصفف بمنتهى الجمال ووجهه تعلوه ابتسامة دائمة , عندما رآني مشى باتجاهي بهدوء

: أهلاً وسهلاً .. أي خدمة ؟

: أهلا بك .. شكراً للطفك وذوقك .. الحقيقة أنا أبحث عن عمل , وأريد أن أسألك هل أنتم بحاجة لعامل

: أنا هنا عامل الصالة .. ولا أعرف .. الخواجا يأتي عند التاسعة إن أحببت تعال .. أوعد غداً في العاشرة يكون قد أتى

: شكرا تفضلت

تابعت بعده بمئة متر كذلك مبنى ضخم في الطابق الأول واجهة عريضة جدا شبيهة بالأولى ولافتة كبيرة تزنر

المبنى مضاءة كذلك وعلى نفس المبدأ (فرن الأرز)
وشروح عن المواد التي ينتجها على زاوية الساحة نفس المكنة التي رأيتها في جل الديب , يقف أمامها شاب , أنزل قنية ماء وعدد من الكؤوس البلاستيك فيها قهوة وربما كاكاو وضعها في صينية وهمّ بالمغادرة , أنا اعتقدت أن هذا الشاب عمله هنا , وهو كأنه اعتقد أنني أنتظره لينتهي لآخذ أنا ما أريد , ولكن عندما همّ بالمغادرة بادرته بالسلام

: مرحبا

: أهلاً وسهلاً

: أنا أبحث عن عمل هل تستطيع مساعدتي ؟

: أنت سوري ؟

: نعم
: الحقيقة أنا عامل هنا في الفرن وسوري مثلك , أعتقد أنهم يريدون ضبيب خبز , ثواني لأسألهم

انتظرته قريباً من الواجهة على جانبها الأيسر .. كانت الصالة تشبه التي قبلها .. خرج إلي رجلاً متوسط القامة والعمر , ودون أن يسلم سألني
: ما هو العمل الذي تجيده ؟

: أي شيء ..أعمل في أي مكان تريده

: أي شيء .. تجيد الشغل على السهلي ؟

: أتعلم يا خواجا أتعلم .. خلال يوم أتعلم

: نحن نريد عامل سهلي .. يعني يجيد العمل .. أن تتعلم
لا أعتقد العمل ينتظر التعلم .. طيب تعال معي
لفّ من جانب الساحة ودخل من باب جانبي, تبعته وأنا
أقول يا رب .. أريد أن أخلص من شغل الباطون وتكسيره

: مرحبا يا شباب

ردوا جميعا

: أهلاً .. أهلاً

: يا أبو خليل ما رأيك أن يشتغل هذا الولد مكان سمير
وسمير يشتغل مكان هاني ؟

حدّق أبو خليل بي ملياً وحوّل نظره نحو شاب كان بالقرب
منه يلمّ الخبز الذي يخرجه ابو خليل من بيت النار ويضعه
على لوح الخشب ثم يرفعه على رفوف الحديد ثم يتناول
لوحاً من نفس الرفوف من مكان آخر ويلمّ الخبز الذي
فوقه ويضعه في كيس نايلون

: (ايه سمير) ؟ تستطيع العمل على السهلي ويرجع محسن على الفرنجي لأن المعلم يريده تحت في الفرنجي؟

: أستطيع .. ولكن بنفس أجر هاني

رد أبو خليل :عندما يصير الفرن لأبي أعطيك قد هاني مرتين

: يا سيدي أنت سيد هذا الفرن .. وما تقوله يصير وعلينا كلنا والخواجا ما تقوله لا يناقش أحدا فيه .. الله يعطيك الصحة والعافية ويحمي لك العائلةو الأولاد , أنت من يحسم الموضوع

ابتسم ابتسامة التشاوف وقال

: أكيد تستطيع ؟

: يا سيدنا .. جربني مرة وشوف .. إن لم أكن قد الحمل أعود إلى ضب الخبز

: وهذا الفقير أين نذهب به .. نطرده مثلا ؟!

: يا سيدي اتركه لضب الخبز , وأنا أشتغل أي شيء تريده .. أي شيء .. عمي أبو خليل جربني يوم وشوف .. عمي أبو خليل أنا (بعجبك)

: طيب نجربك .. يا بني ما اسمك

: اسمي ناجي يا عمي أبو خليل

: تعال في العاشرة .. الخواجا يأتي في هذا التوقيت وأكون حكيت معه .. عمي هنا الشغل بالليل وبالنهار, وانت ستكون معنا بالليل (منيح) ؟

: ممتاز

: عمي .. الخواجا يدفع لضبيب الخبز خمس وعشرون ليرة في الأسبوع كبداية , وتأخذ معك كل يوم ربطة خبز ونرى شغلك ونقرر

: عمي أبو خليل أرجع في العاشرة ؟

: نعم تعال في العاشرة , أكون قد كلمت الخواجا وإذا وافق , تباشر العمل , و يبقى سمير معك كل بكرا يعلمك الشغل

: الله يبارك فيك ويديمك

غادرت والفرحة تملأ كياني .. ذهب الوجع , لم أعد أحسّ أن يدي وكتفي فيهم وجع .. ها قد فرجت .. ارتحت من تكسير الحجارة والاسمنت وشغل الباطون , وتصح جروحي على مهل , مشيت جنوباً لا أدري إلى أين , حتى وصلت إلى ساحة كبيرة تلتف حولها الطريق بشكل دائري , في الوسط مرج أخضر وشجيرات وورود , بعض

الناس يفترشون الأرض , على أطراف الساحة رصيف عريض فيه أشجار متباعدة .. وكذلك هنا الناس يملؤون المكان , مررت بجانب امرأة في الخمسينات من عمرها , نادتني , اقتربت منها قالت
: تعال أقرأ لك طالعك

وقفت صامتاً كالأبله لا أعرف ماذا أرد وتابعت
: بيّض الفال

بقيت على صمتي وقرأت هي على وجهي علامات الحيرة فسألتني

: انت أول مرة تأتي إلى هنا ؟

: نعم أول مرة

: أنا أحسب .. أقرأ لك فالك , أرى لك ماذا يصير معك وما صار
: نعم .. وما هو المطلوب مني ؟

: بيّض الفال

: لم أفهم .. ماذا يعني بيّض الفال

: يعني بدك تعطيني فرنكين أقل شيء

: انت سألتني .. أنت أول مرة تأتي إلى هنا وقلت لك نعم يا سيّدتي ليس لدي نقود

: أنا أحببتك - ويشهد الله - سأقرأ لك طالعك؛ لوجه الله وعندما تمر .. إذا أحببت اعطني , وإذا لم تحب الله يسامحك

وفردت عدة قواقع رأيت مثلها بالأمس على الشاطئ كانت في يدها , ثم لمتها وفردتها مرة أخرى , ثم لمتها وفردتها مرة أخرى وقالت

((يا ولدي...

كحقل الغيم كفك افتحه

ودع الشمس تنير لي الأخاديد

والدروب القادمة في حِرجِ الأيامْ

يا ولدي ....

بقناديل الشمس مشّط انتظارك

فالشمس تأتي دائماً من شوارع الليل

والهمار يُفرخ في بيوت القرّ

يا ولدي ....

في الطريق إليك ,

يتحممُّ الشجر بحكايا الينابيع

و في رحم الأعراس يصهل الورد

ويتفتق الفجر على ثغر القيامةْ

يا ولدي ....

في الدروب إليك

تتدحرج الأرض ككرة الصباح

والعوسج ينسى مخالبه في كتف التنين

و يغسل الصفصاف قدميه برمل الصحراء

ويطيِّر الليل آخر قبرات المساءْ

يا ولدي ....

في الدروب إليك..

الحزن يخلع قدميه ..

ويمتطي رأسه

والموج يكبُّ كُتبَ العاشقين ,

على صخور المحظورات

وتتأبط لآلئ الجوع ,

أذرعة المقهورين

وينتعل خريف العمر ..التراب

عشقاً أبدياً للحياة

ويركض المطر في محجريك

ويمر الأوان على مهل

في بيداء الجفافْ

يا ولدي ....

في طريقها الدروب إليك ...

تُعلنكَ المدن ,

بريئاً ..... ؟ !

من الاسترخاء والنوم

من الأماني السافرة

من بيوت الشبابيك

من رائحة النشوة

من ياسمين امرأة

تسكن حضن الاشتهاءْ

يا ولدي ....

في الدروب إليك ...

تُهَيوِن أشجار الزيتون ,

مغناجة كالحب الأول ,

ويفرش القمر عشيقاته

فوق عمامة الكونْ

يا ولدي ....

في الدروب إليك ..

يأوي النخيل إلى بابك ..

ويرتل المعبد كتابه المقدس

على منبر العمر الراحل

فتصيرُ مَحَجَة المريدين

لمسح غبش الضميرْ

يا ولدي ...

في طريقها الدروب إليك ..

تُشعل أناملها ..

شموعاً – نبراساً

لوعدك الصادق

لقامة محبرك القادمْ

يا ولدي ...

في طريقها الدروب إليك ..

تقبض على جمر النقاء

وتلويحة أيادي الأطفال

وندى صباحٍ يتثاقل ,

وهو يودع ثغر الأزهار ,

وربات الكرومْ

يا ولدي ....

في طريقها الدروب إليك ..

تملأ جرارها

من حُليمات رؤومات

وصهيل عطر البنفسج

ونشوة تغريد الشحارير

وتوقد حوريات الثلج – للهيب الحقولْ

يا ولدي ...

افتح كفك الآخر ..

واقرأ ....

ألستَ بقارئ ؟؟؟

.....

يا ولدي ...

خذ بقدميك أحذية الدروب ..

واعبر الغيّاب ,

إلى جهة الوقت ..

فهي كفيلة بتعْبيرك ..

جسور الجلنار - أطواق الياسمين

وآفاق النارنجْ

يا ولدي ...

هذي صفحة أخرى ..

عشب الأفئدة تحطبْ

وذبحَ الجوعُ أعناق التفاحْ

هذي صفحة أخرى ..

نَوَسُ القنديل يغبّش سطور الوقتْ

والنهار يغلق عينيه إلى قُبيل التخوم ؛

ليرى حروف الليل القادم

وينكشُ بعصا الطبل أذنيه ؛

ليسمع نقيق القادمين

وأزيز نحيب الهزيمة – يمر ..

على ضفاف الروح – التي طلّقها الانتظار..

فأوصدت منافذ الاحتمالات ..

وبصقت شفاه الضحك

وها – تَهمُ ..

بزحل سحاب محفظة الدم ..

وتودع حبر الحقيقة ,

الملوث باسمِ العقاربْ

يا ولدي ...

لا تلحظ شارعاً ..

لا يتزوج الإنصات - ولا يتبعثر فيه السمعْ

يا ولدي ...

طيّر يمام الروح ..

مع أول صبح – يوزع خبز التنور

ونشف جلدك

من ندى اليأس ...

واكتب لكل فجر جديد – أغنية جديدةْ

واعلن بيانك الأبدي ..

حيَّ على الصراخ – هيا نطيرْ

يا ولدي ....

ها كفّاك ..

يطيران إلى الملأ ,

يملؤهما الحنين ,

يطير منهما الدمع ....

ها – نبوءاتي أمليكْ

يا ولدي ...

لا دليل لقانون النضوب

لا دليل لقانون الاندثار

لا دليل لقانون الخلود

في كفيك تهرُّ النهايات – كنقاط المستقيم

يا ولدي ...

حبك ..

يتمدد في قاعك كالبحر ,

وكالبحر يتنفس مزناً للريح ,

ويورق في جنبات الدروب ..

حزناً وقهراً وخبزاً – كأنه أبدي))

: يا لطيف .. مستحيل ..

ونظرت إلي ولمّت القواقع مرة أخرى ورمتها ورددت مرة أخرى

: يا لطيف .. يا لطيف

ثم لمّتها ووضعتها في حرجها وأخرجت من جيبها ملء يدها بحصاً بحرياً , كذلك رأيت منه الكثير على الشاطئ ورمتها , ونظرت إلي نظرة أحسست أنها سرت كالماء في كل جسدي وقالت

: اقترب مني

قرفصت ووقفت لأن جروح فخذي أحسستها تمزقت

: ما بك يا ولدي .. بك ألم كبير .. اقترب مني ...

أغرتني .. بل سلبتني كل إرادتي وقرفصت هذه المرة بهدوء رغم الألم

قالت : أنت كل شيء فيك يوجعك .. أنت روحك توجعك .. أنت غريب في هذا الكون .. أنت من يوم الذي خُلقت لم تر يوماً كيّسا -وحدقت مرة أخرى في عينيّ - أنت طيب ونظيف .. ولكن لا حظ لك.. شوف يا بني أنت نجمك محبوب وخاصة من النساء .. أنت تحب الفرح ولكن الحزن يرافقك - وصمتت قليلاً - ثم تابعت .. انتبه لنفسك , لا تأمن لأحد .. في طريقك كثيرة هي النساء
- مسحت على وجهي بيدها بمنتهى الحنان - وتابعت .. انتبه لنفسك يا بني .. إلهي يحميك

الموقف سلبني .. لا أدري ما حدث لي .. أدخلت يدي في جيبي لأخرج لها نقوداً

: اقترب مني يا ولدي – قرفصت مرة أخرى – أنا لا أريد منك لا الآن ولا في أي يوم شيئاً .. وأدخلت يدها في عبّها وأخرجت نقوداً ووضعتها في يدي وأطبقتها بقوه - صرختُ قليلاً من الألم - .. ما بك يا ولدي ؟

فتحت يدي وأعدت لها النقود

: وأنت أم حنونة وأنا لا أريد منك إلا أن تكوني دائما بألف خير .. يديّ تؤلمانني كثيراً - مسكت بكفي ونظرت إليه قليلاً .. قبلته وقالت

: الله يفرجها عليك يا ولدي

رأيت دمعة في عينيها , مسكت بيدها وقبلتها .. أنت دائما هنا ؟

: نعم يا ولدي لماذا ؟

: لا شيء .. أريد أن أسلم عليك فقط عندما أمرّ من هنا

: نعم .. يا ولدي نحن دائما هنا .. لا تأمن لنا .. نحن هنا كثيرات وكثيرون .. لا تلتفت لأحدٍ منّا .. أنت صغير يضحكون عليك .. اسمع مني .. ايه ؟

: خلص .. سأسمع منك .. أنت فقط , كلما مررت أسلم عليك إن كان ذلك لا يزعجك

: احفظني جيداً .. أخاف أن تتوه عني .. قد نتشابه .. انتبه عليّ جيداً .. ايه ؟
: لن أنساك ما حييت أيتها الأم الحنونة .. لا تخافي عليّ .. ولكن قولي لي لماذا قلت مرتين - يا لطيف .. مستحيل - أعدتها عدة مرات , ما الأمر ؟ لم تقولي لي ؟

: فيما بعد .. فيما بعد .. ولماذا فيما بعد ؟ .. الآن سأقول لك .. لا شيء يا ولدي .. هذه طريقتنا في العمل يا ولدي

: لا أعتقد .. ولكن سأقبلها .. لأنني سأراكِ دائماً .. صدقيني .. سأراكِ إن كان ذلك لا يزعجك

: لا .. يا ولدي لا يزعجني أبداً .. وأتمنى .. أتمنى .. أحلم

: سلام

: سلام

تركتها واتجهت شمالاً , وعلى غير هدى ولا قصد , كنت سعيدا قبل أن أرى هذه المرأة .. شغلتني .. حاولت أن أطرد وجهها الخمري وعينيها الخضراوين وثغرها البني وذلك الوشم الأزرق على عنقها في الميلين .. دمعة عينيها التي جالت يميناً ويساراً ثم انهمرت بعد أن رأت كفيّ , لماذا قالت ما قالته ؟ هل تستطيع هذه المرأة البسيطة أن تقرأ الغيب ؟ كنت اسمع الكبار عندنا يقولون .. الله يضع سره في أضعف خلقه .. لا .. لا .. من يشبهونها هناك كثر هي قالت لي ونبهتني منهم .. مشيت كثيراً .. تفاجأت أنني أمام السينما التي كنت أمامها أمس , لم أعد بعيداً عن الساحة , ارتسمت المنطقة في ذهني شيئاً فشيئاً , فكرت .. أذهب لعند أبي أسعد وأشتري صفيحة لحمة بعجين وسفن

أب وأعود لعند أبي كامل , لم أعتقد أن أبو أسعد سيتذكرني لأنه رآني لمرة واحدة , ولكنه مجرد أن دخلت

: أهلاً وسهلاً يا ولدي .. أهلاً وسهلاً .. طمئني هل وجدت عملاً .. أين تنام ؟

: في اليومين الماضيين عملت بصب الباطون وتكسير الباطون

: وهل وفقت - وهو يبتسم ابتسامة لطيفة - ؟

: لا يا عمي .. سلخت يدي وكتفي وفخذي فوق الركبة من الرفش والتنكة والمهدة .. ولكن كأنني اليوم سوف أجد ما أبحث عنه .. وعدني المعلم في فرن الأرز أن يشغلني غداً ضبيب خبز ..

: من .. الخواجا ؟

: لا .. المعلم الذي في الداخل .. أبو خليل

: أبو خليل ؟

: نعم أبو خليل .. تعرفه ؟

:نعم أعرفه.. هو من الشير .. هو آدمي جداً.. لكن معلمه خنزير .. أقصد الخواجا صاحب الفرن .. سلم عليه وقل

له أنا من أقرباء أبو أسعد ويقول لك مر عليه وعندما يأتي أنا أوصيه بك .. ماذا تحب أن نضيفك ؟

: عمي أبا أسعد أريد سفن أب وواحدة لحم بعجين

: تكرم
حاول ألا يأخذ لم أقبل ورفضت أن أخذهما قبل أن يأخذ ثمنهما

: يا لطيف كم تشبه أباك وبكل شيء

: الله يبارك فيك أنت تفضلت

: يا ولدي .. والله أنت مثل ابني .. عندما أراك يتقطع قلبي

: الله يديم عليك الصحة والعافية

: يا بني .. طل علي دائما .. وطمئني عنك

: الله يبارك فيك .. أكيد .. سأمر دائماً وأسلم عليك وأخبرك .. سلام عمي أبا أسعد

: مع السلامة

عدت أدراجي نحو أبي كامل , كدت أحس بشيء من الغبطة لولا تلك المرأة , التي انطبعت في مخيلتي كالوشم الذي على عنقها , وصرت أفكر بكل ما قالته لي .. لم

يقلقني ما قالته أبداً , بل شغلتني الفكرة , هل يستطيع الانسان قراءة الغيب ؟! شغلني الدفء الذي ملأني منها .. لماذا تعاطفت معي ؟ لماذا بكت عندما رأت يدي ؟ لماذا نصحتني ألا أقترب من جماعتها اللواتي يشبهنها كما قالت ؟ ما الذي شدها نحوي ؟ ما الذي أسرني عندها ؟ ..... عندما وصلت عند أبي كامل كانت الساعة تقترب من الثامنة , سلّمت عليه وقصصت عليه كل ما جرى .. كان سعيداً وأنا أحدثه , وكان يحمد الله بنشوة كأنه وجد كنزاً وقال
: إن شاء الله بادرة خير يا ولدي إن شاء الله خلال فترة قصيرة ستكون مثلنا وأفضل بإذن الله

كان أبو كامل لبقاً جداً , كأن كل الناس تحبه وتحترمه , فكل زبائنه ينادونه عمي , أو أبو كامل , وكان هو يبادرهم بحب غير مصطنع , كنت أنا مثلهم أراه في عينيه , في كل حواسه .. كنت أحسّ بالحب يخرج من عينيه ووجهه قبل لسانه تجاه زبائنه كنهر يتدفق , يرحب بهم ويقلّب لهم العرانيس فوق الجمر , يناولهم ويعطونه وعندما كان يبادر ليرجع لهم ما زاد كانوا يغادرون وهم يبتسمون له (الباقي على شانك أبو كامل) كنت أقف صامتا أتأمل الجميع , من بين الزبائن شاب وصبية .. صبية في غاية الجمال كانت تبدو كقطعة مرمر ترتدي ثيابا تغطي فقط رؤوس الأشهاد , سلم عليه الشاب بحرارة

: يا عمي أبو كامل .. نقي لهذي الصبية ما يليق بها

: والله صعبتها عليّ كثيراً يا خواجا .. هذه الصبية الحلوة الله يخليها لك ويخليك لها ويحميها ويحميك من كل عين , ويديم المحبة بينكم .. كل ما في هذا الكون من جمال .. هي أجمل وأغلى منه .. سأنقي لها أفضل الموجود .. (العدرا تحميكم يابيك)

ابتسمت الصبية ابتسامة غنج ورضى وكذلك الشاب , برقت عيناه وانفرجت أسارير وجهه وقال

: (والله يا أبو كامل وأنت ما فيه منك المسيح يحميلك صحتك وعيلتك)

غادرا بعد أن ناوله وحاول أبو كامل أن يعيد الباقي رد عليه

: (ما في شي مستاهل يا ابا كامل سعيدي)

:(الله يسعد أيامكم .. ويخليكم مع بعض كل العمر بسعادة وهناء)

والتفت نحوي وقال

: يا بني من خمسة عشر سنة وأنا هنا على هذه الزاوية صيفاً شتاءً , الذي كان عمره سنة صار شاباً والذي كان كبيراً مات أو على وشك , والذي كان شاباً صار كبيراً

وشاب .. صار عندي زبائن كثر وأعرفهم وأعرف وجوههم ومنهم من أعرف أسماءهم وعائلاتهم , وأغلبهم يعرفني وأحسّ أنهم يحبونني

: في غير موسم الذرا ماذا تبيع .. سألته ؟

أبيع الذرا والعبيد والكستنا كلٌ له موسمه دائما أجد ما أبيعه , الله سبحانه ما أعظم حكمته , خلق هذه الدنيا بميزان .. وميزان ربك أعظم الموازين .. وهكذا الله ساترنا , الله يديم علينا نعمته

: الله يديم عليك الصحة والعافية ويحمي لك أم كامل والأولاد , والله أنت نادرون أمثالك .. أنا غلّبتك معي .. سامحني الله يوفقك

: يا بني الذي لا خير فيه لأهله .. لا خير فيه أبداً , و أنا ماذا فعلت ؟ والله لو أستطيع فلن أقصر أبداً .. ولكن يا ابني (العين بصيرة والأيد قصيرة) يا بني هذه الدنيا بنت ستين ألف كلب .. ولماذا كلب !! لا .. والله بنت خنزير

: عمي أبا كامل بعدك ساحة كبيرة تزدحم بالناس ,و فيها نساء معهن بحص وقواقع .. ينادين على المارة .. شوف طالعك .. شوف بختك .. شوف ماضيك وحاضرك .. من هؤلاء ؟

: إلى هناك وصلت بمشوارك.. هؤلاء غجر .. نوّر .. انتبه منهم هؤلاء يسرقون الكحل من العين .. أوعى أن تكون قد استجبت لندائهم أو اقتربت منهم ؟!

: لا لم أقترب منهن , فقط أسألك لأنتبه

: ممتاز .. كلما رأيت شيئاً ويشتكل عليك اسألني عنه

لم يبق مع أبي كامل عرنوسا واحداً , التفت إلي وقال

: الحمد لله .. تفضل يا بني نرى أبا سليمان , يا رب تتيسر ويكون أهلاً للمعروف

إلى بيت أبي كامل ذهبنا أولاً حيث ركن العربة قرب منزله وذهبنا جنوباً بعد حوالي الكيلو متر انعطفنا إلى اليسار في طريق فرعي بين بساتين الليمون المسورة وإلى اليسار مدخل لبستان .. بابه حديد , كبير جداً وقف أبو كامل أمامه ونادى .. أبو سليمان يا أبو سليمان .. بعد قليل طلّ علينا رجل ضخم متوسط العمر أسمر ,قسمات وجهه تشي بالصلابة وعدم الطيبة .. رحب بأبو كامل وتجاهلني تماماً قال له أبو كامل
: سلمت على ناجي أنت من أخواله ؟

: أهلاً وسهلاً - ومد يده مصافحا- أهلاً وسهلاً .. لم أعرفه .. من ؟

: هذا ابن اختكم .. أختكم راحيل زوجة سالم الشيخ

:نعم .. نعم .. أهلاً وسهلاً .. تفضلوا

: يا أبو سليمان , هذا الشاب جاء من كم يوم وللآن لم يجد غرفة يسكن فيها جئت ببالي كونه من أقربائك وأنت من أهل المعروف وتسكن في هذا البستان وحدك , فما رأيك أن تستقبله .. ينام عندك وتستأنسون ببعضكم وتنال ثوابه , واليوم وعدوه بعمل في الفرن وهكذا كل يوم تأكل خبز طري ما رأيك ؟

صمت قليلا .. ولكن اذا عرف الخواجا سيزعل مني يا أبو كامل

: وكيف سيعرف ؟ أنت دائما تأتي بالعمال للبستان .. أنت الكل بالكل واذا رأوه وسألوك قل لهم ابن أختي وجاء يزورني .. كأن الخواجا شغله الشاغل من يأتي إليك ومن يذهب من عندك .. يا أبو سليمان أنا أعرف أنه لا يسألك عن شيء المهم أن يكون البستان بخير

: يا أبو كامل أولاد الحرام كثر .. إذا عرف أحد ما وأخبر الخواجا يسبب لي مشكلة

: قل لكل من يراه عندك أو معك .. أنك تشغله بتعشيب الليمون .. من سيعرف ؟ على أساس الناس غادية وبادية

من عندك .. يا أبو سليمان أنا أعرف وأنت تعرف من يوم صرت ناطورا في هذا البستان لم يدخله ابن أدم بقصد زيارتك لا يدخله إلا الشغيلة ..

: طيب .. طيب .. بكرا هات فراشك وتعال .. وشوف أي غرفة نظفها واسكن فيها , وإذا سألك أي أحد قل أي شيء ولكن لا تذكرني بأي شكل لأن قرابتنا حاولوا وأنا لم أرض وكلهم زعلوا .. كأن البستان لأمي والبناية لأبي , ولكن أنت سأسكنك معي ولكن بشرط ألا تخبر أحدا لا أريد أن يعرف أي إنسان أنك تسكن عندي , وتساعدني بتعشيب البستان , ولا يأتي معك إلى هنا أي إنسان على الاطلاق .. يوافقك هذا يا خال ؟

: الله يوفقك ويديمك .. هذا معروف لا أنساه - قاطعني أبو كامل -

لماذا لبكرا ؟ الآن نذهب ونأتي بالفراش والأغراض أن نأتي بالليل أفضل

: طيب كما تريد

: أنا سأذهب وآتي بالأغراض

: تعرف تذهب وحدك ؟

: إن شاء الله

: يا الله ..بارك الله فيك أبو سليمان تصبح على خير , تفضل يا بني نترافق إلى المفرق

غادرنا في الطريق قال لي ابو كامل

: تعرف لماذا رضي أن يسكنك ؟

: تغابيت وقلت له .. لأنه آدمي

: لا بالله .. رضي لأنه سمع بالخبزات , أبو سليمان إذا عضّ الكلب يكلبه .. ألم تره صفن؟ .. رضي ليوفر الخبز , البناية فاضية .. هو كذاب .. وهل يسأله الخواجا عن أي شيء ؟ هو عند هذا الخواجا منذ أكثر من خمس سنوات , حاول ناس أن يفتنوا بينهما لم يستطيعوا (يلا .. شعرا من طيز الخنزير مكسب) لا تزعل يا ولدي

: أنت تعرفه أكثر مني المهم أن أسكن ولو مؤقتاً

: صحيح

ودعت أبو كامل عند الجسر وتابعت

صالح .. كأنه لا يغير حتى مكان كرسيه

: مساء الخير يا عمي صالح

: اهلاً وسهلاً مساء النور .. كيفك .. طمئني عنك ؟

: الحمد لله .. الحمد لله .. ما زلت حيّاً

: إن شاء الله تبقى حيّاً .. إن شاء الله وجدت عملاً مريحاً ؟

: إن شاء الله .. و عدوني .. وأريد أن أسكن مع أحد الشباب

: إن شاء الله خير , الله يوفقك ويفتحها بوجهك

طويت الاسفنجة والمخدة وربطتهما جيداً وودعته وغادرت من حيث أتيت , وصلت وجدت الباب مغلقاً ومقفولاً .. ناديت .. يا خال أبو سليمان .. يا خال أبو سليمان .. ولكن لا حياة لمن تنادي , وضعت الاسفنجة عند البوابة وجلست فوقها .. وانتظرت خمس دقائق .. وناديت مرة أخرى .. ومرة أخرى لا حياة لمن تنادي .. كأن أبو سليمان ندم على قراره , وغادر .. أخذتني الأفكار والتخيلات في كل الاتجاهات استقرت أفكاري على أن أعود إلى الدغلة بيتي العزيز هناك لا قفل ولا مفتاح , حر أنا والطيور والحشرات والزواحف , فهي من يوم سكنت معها لم تزعجني ولم أزعجها , لو لا الغسيل والحمام لكنت بقيت هناك أبد الدهر , قلت أنادي للمرة الأخيرة وأروح .. ناديت ثلاث مرات وانتظرت قليلا , حملت الاسفنجة وهممت بالمغادرة وإذ بصوت أبو سليمان : لا تؤاخذني غفيت .. تفضل .. تفضل

فتح الباب بالمفتاح وأدخلني .. علائم الكذب كانت واضحة على وجهه وملامحه ولكنني لم أستطع تفسير أي شيء , فالمستيقظ للتو علائم النوم تظهر عليه واضحة , وهذه العلامات لم تقترب من أبو سليمان أبدا قلت له

: خال أنا أسف لإزعاجك .. خال إذا كنت نادماً .. بسيطة .. الآن أعود من حيث أتيت

: لا .. لا .. ولكن إياك أن تقول لأحد

: يا خال والله لن أقول لواحد في الكون .. خال أنا لا أعرف أحداً هنا

: طيب .. أنا لن اقفل الباب الخارجي بعد الآن , عندي جوزة قفل خربان أضعها كأنه مقفول , شدها لتحت تفتح , وترجعها كما كانت عندما تدخل .. هكذا ياخال .. نوهم الناس انه مقفول

: طيب خال على رأسي

: تعال معي – وأخذني إلى إحدى الغرف في الطابق الأرضي وفتح بابها .. كانت رائحة العفونة معبقة فيها – يا خال بكرا تجيب معك لمبة وحصيراً وتنظفها جيداً

: تكرم يا خال أنا رايح إلى الفرن لأرى الخواجا .. تريد مني شيئاً ؟

: لا .. سلامتك.. جيب معك شمعة وبكرا تأتي باللمبة وأقراص تشعلهم لطرد البرغش .. لأنه لن يدعك تنام إذا لم تشعل هذه الأقراص

: كيف هذه ؟

: قل للبائع أقراص للبرغش وهو يعرف

: طيب

وصلت كانت الساعة بحدود العاشرة والربع .. عند باب الصالة الخارجية , رآني ذلك الشاب الأنيق جاء باتجاهي مبتسما

: انت مررت من أجل العمل

: نعم

: تعال معي

مررنا من الجانب إلى باب العمال

: أبو خليل .. أبو خليل .. أتى الشاب

: أهلاً .. أهلاً .. يا بني الخواجا اليوم لم يأت للآن , والظاهر لن يأتي اليوم , يا بني تعال غداً الساعة السادسة أكيد .. وأكون قد رأيت الخواجا وأخذت موافقته .. انت تعال أكيد للشغل

ناداني سمير

: أخي ما رأيك أن تقف قربي ويصير عندك فكرة عن العمل وبكرا تكون جاهزاً

دخلت وأنا في غاية السعادة ووقفت بجانبه اقترب من أذني ووشوشني , خلص اشتغلت , لا تخف .. ابو خليل إذا قال للخواجا الحليب أسود .. يقول أسود (بس هو هيك .. قال يعني متلنا تماماً) ورفع صوته وهو يقول لي مبتسماً

: أخي .. الخبز الذي يخرج من بيت النار من عند أبو خليل .. تضعه فوق لوح الخشب وترفعها على السقالة .. وتنزل اللوح الذي برد خبزه .. تلمّه وكل عشرة أرغفة في كيس , إياك أن تضع رغيفاً ليس فاتحاً .. يعني مثل هذه .. اتركها جانباً ؛ لنضعها في تنك الماء لتنتقع لإعادة عجنها ..واللوح الذي يفضى تأخذه لعند المعلم جوزيف هنا عند الرقاقة -ونظر إليه وابتسم - ولكن الرجل الذي أشار إليه على أنه المعلم جوزيف لم يعره أي التفاته وكأنه لم يسمع منه شيئاً على الإطلاق , سمير شاب في الخامسة والعشرين مليء طويل زنوده مفتولة ويشي لك بالطيب والبساطة , قال لي

: (وك خيي)

: ناجي

: (ليك خيي ناجي والله لا علم ولا شي)

: اتركني أشتغل محلك وأنت راقبني

: طيب .. لكن انتبه ألا تتسخ ثيابك

قلت في عقلي وعلى أساس أنا ألبس ثياباً فاخرة وحرام تتسخ

: ولا يهمك أخي سمير ولا يهمك

عملت معهم بمنتهى السعادة حتى انتهت الواردية في الصباح . كانت أرغفة الخبز المنفوخة بالبخار والهواء الساخن تفقأ من أحد جوانبها فتحرق اصابعي وكفاي المحترقة أصلاً , قال لي سمير - بكرا تتعلم بنفسك كيف تمسك الرغيف من دون أن تفقأها - كان العمل بالنسبة لما لاقيته في غاية السهولة , كان أبو خليل يراقبني وكنت أحس بنظراته وهو يختلسها بطرف عينيه , وعامل الرقاقة والعجانة اهتما بي وخاصة جوزيف عامل الرقاقة الذي علمت فيما بعد أنه يوسف .. يوسف هنا ينادونه جوزيف , خرج وأتى بقنينتي كازوز كراش , هكذا مكتوب عليها وضيفني , حاولت ألا أقبل ولكنه أصر وبود ومونة , كانت عيناه تشع بالود والعطف تجاهي , وكان فيهما حزن غريب ..كان الكلام قليلاً إلا بعض التنكيت من هنا وهناك وعلى بعضهم وأغلبه كان على محسن عامل

السهلي , وكان دائما يبتسم ولا يرد , نكاتهم عليه كلها توحي بأنه خجول ولا يقترب من النساء ويخافهن

أحد السوالف من عامل العجانة –

: محسن .. عندما تذهب إلى حارة الغوارني , تذهب وحدك ؟! خذ معك سمير , نساء حارة الغوارني يقفن على الأبواب وعندما يمر شاب مثلك جميل وأنيق ورجل .. يُمسكن به ويدخلنّه إلى الداخل و.... أنا هكذا سمعت , وأنت ساكن هناك .. ويجب أن تكون حذراً وجداً , وكي لا تتعرض لأي مكروه خذ معك سمير دائما كما قلت لك

ورد أبو خليل

: اطمئن .. اطمئن .. محسن حسبها جيداً , يذهب وهن مازلن لم يستيقظن بعد , وعندما يعود يكون الجميع قد غادروا إلى المشاوير وهكذا ضمن الذهاب والإياب بحفظه تعالى

عند انتهاء الواردية قال لي أبو خليل

: يا بني أنت نجحت بالامتحان وتعال غداً أقصد اليوم مساءً وعلى مسؤوليتي وأنا سأذهب الآن لأرى الخواجا , انت ولد شاطر وأنا أحببتك انتظرني

غاب الجميع وفضيّ الفرن بانتظار الواردية الثانية , خرجت ووقفت أنتظر أبو خليل , فوجئت بالذين كانوا من لحظات بلباس العمل .. وهم يخرجون بثيابهم النظيفة وحتى الأنيقة .. أبو خليل لم أعرفه على الاطلاق .. خمّنته الخواجا عندما اقترب مني فوقفت منتظراً ماذا سيسألني , لكنه كان أبو خليل .. ابو خليل الخواجا ..

: عمي ناجي أنا الآن سأدخل إليه انتظرني دقيقتين

سمير الذي غير ملابسه وجاء , كأنه لاحظ دهشتي

: لا تستغرب .. نعم هذا هو ابو خليل الخواجا انظر .. هذه السيارة المرسيدس , هذي سيارته .. أبو خليل خواجا .. أبو خليل هنا منذ خمسين سنة .. أصلاً .. هو لا يذهب إلى سوريا أبداً .. شايف هذا الشارب ؟ النساء يُقتلن عليه .. أبو خليل (بيعجبك)عنده كل صاحبة (بتفلج فلج) .. يا أخي ناجي الذي يحبه ربه هكذا يعمل معه .. يفتح أمامه أبواب الكون .. والذي لا يحبه يمسح فيه الأراضي ويلعن أبو أبوه .. (هيك) .. سلام صديقي

: مع السلامة

غادر بعد انتهاء الخطبة , بعد قليل جاء ابو خليل وناداني

: تعال معي

تبعته , صعد درج , في الطابق الثاني بهو مليء بالتماثيل والنباتات دق الباب وفتح

: خواجا هذا هو الشاب

الخواجا رجل ضخم , مقطب الجبين , حنطي اللون , يجلس خلف مكتب كبير جداً وأمامه كنبات فاخرة , في الزاوية على يمينه منحوتة من الخشب هي عبارة عن أرزة ضخمة وخلفه مباشرة صورة كبيرة ببرواز أنيق وفاخر للرئيس اللبناني سليمان فرنجية . كان ينظر في بعض الأوراق أمامه ولم يلتفت إلينا أبدا

: (اي منيح جربوه وشوف انت)

: أمرك خواجا

غادر وغادرت خلفه

: تمام .. أنا سأبقى أزكيك عنده دائما

: الله يبارك فيك

(4)

عندما تفتح عينيها

يأتي الربيع في الشتاء

وتستيقظ أمانينا

مع انبلاج الفجر

يموج الزرع في عينيها

ويخضر الأمل في عينينا

ليس سحراً هو سر

ليس مطراً هو غيم

هو نور بلياليـنا

لا تغمضي يا غادتي ..

فيموت الزيتون والنرجس

وتبيض مآقينا

هو حلم نصفه حقيقة

هو علم نصفه حلم

مكبوحة فيه السلاطين

لا تغمضي يا غادتي ..

نمنا كثيراً ومتنا أكثر

حتى دروبنا نسينا

افتحي عينيك

شوفي وجهي

شوفي وجعي

شوفي وطني

قبليني سنينا

هذا قلبي حفنة دم

.. قبضة من هم

.. ضمة من وجع

.. حبل من فزع

غيمة من تشرينَ

افتحي عينيك

دعيني أكتب شعراً

.. أرسم أملاً

.. أبني وطناً

للمجد يهدينا

أعطني منها قبساً

أُلون هذا الزرع

أُورق هذه الجبال

أُمرج هذه الصحراء

أسقي هذا النهر

وأبني بيتاً لوطني

أشعل أيامنا ولياليا

أعطني منها سهماً

أكوي فيه جراحي

أصوب فيه درب المستقبل

يقيني غدر المارقينَ

يا توءم الروح ..

يدي ضعيفة

ظهري يؤلمني

وصوتي مخنوق

وأنا مثقل بالجراح والأنين

يا شقيقة الروح

بدونك ..

يدي وحيدة

وظهري عار

و لا سبيل للمسير

وأنادي ولا سامعينَ

يا قبلة الروح ..

مثقل أنا بصليبي

بالأماني

بالأحلام

بالكوابيس بالأنينَ

يا قبلة الروح

دربي مفروشة

بالحفر بالأشواك

بالأسماء بالطقوس

بالتقاليد تحفر وتمحو أساميَنا

يا بلسم العين

لم ننتهِ بعد

لم نبدأ بعد

فأيقظي أيامنا

وانثري أغانينا

في شغاف القلب

في النبضات أنت

في الشرايين

هدهدي وجعي

واروي عطشي

وبلسمي جراحي

وتعالي نبني وطناً بأيدينا

والدتي الحبيبة
اليوم كان مميزاً بكل تفاصيله , ووصفه مستحيلا ولكنني كما عاهدتك أن أصدقك بما أكتب , ولا أكذب عليك أبدا , غادرت الفرن وأنا في قمة سعادتي وأعطاني سمير ربطة خبز وقال بصوت عالٍ
: بما أنك اشتغلت يحق لك ربطة خبز وهمس في أذني أنا نقيتها لك مع ربطتي من الليل , خمس عشرة خبزة ليست عشرة , وسألته وبصوت خافت

:يا سمير الله يبارك فيك .. العامل كم حصته ؟ .. ما هو المسموح له ؟

: همس كلهم يأخذون عشرين وأكثر

: يا سمير أنا سألتك كم يحق له ؟

: عشرة

أنا اليوم لا حق لي بشيء ولكن أنت الله يبارك فيك وأمام الجميع أتيت لي بالربطة ولذلك أنا ممنونك وكثيراً ولكن في المرات القادمة أنا لا آخذ إلا عشرة , يعني ما يحق لي

: طيب .. فهمت عليك .. بكرا تتعلم .. هذه المرة أنا المسؤول

: سمير أنت شاب رائع .. اهتممت بي وساعدتني هذا فضل لا أنساه.. أنت أخ غالٍ

: وأنا أحسّك مثل أخي الصغير

وصلت إلى البستان وكانت البوابة مغلقة وقفل الجوزة محطوط , سحبته إلى الأسفل , فتح .. دخلت وأعدت القفل كما كان , وإلى الغرفة التي اختارها لي أبو سليمان فتحت الباب والشباك وقلت أنام ريثما تكون الدكاكين قد فتحت فأذهب وأشتري اقراص البرغش واللمبة وتايت - هكذا لفظها ابو سليمان وقال لي هي احسن من الصابون وخاصة لتنظيف الثياب والأرض - ومكنسة .. فرشت الحصير وفوقه فتحت الاسفنجة وتمددت .

صحوت على صوت ابو سليمان
: يا خال .. يا خال ..

: صباح الخير يا خال

: صباح النور .. صار الظهر

: كم الساعة ؟

: (شي احدعش)

قمت مسرعا وأنا أقول له

خال هذي ربطة خبز فيها خمسة عشر رغيفاً خذها كلها واترك لي رغيفين أنا يجب أن أرى الخواجا

: لم تأت كل الليل أين كنت

: اشتغلت معهم ونطرته للصبح ولم يأت .. يمكن الآن يكون قد أتى

: كنت أريد أن نتكلم قليلا بخصوص الشغل .. شغل البستان

: يا خال عندما أعود سنتكلم وسأفعل كل ما تريده

غسلت وجهي وانطلقت , وجهتي يا أمي وكل تفكيري كان جمانة , وماذا ستحمله اليوم لي , حلمت كثيرا وجال خيالي في أماكن لم تطأها مخيلة إنسان , ولكن كنت أعود وأختصر أحلامي , على أنها ستجعلني ناطوراً عندها أو

عند أحد معارفها , أو أنها ستشغلني اليوم وستعطيني عشر ليرات وكمية كبيرة من الطعام , أو أنها تعاطفت معي جداً وأمنت لي سكناً , ملأت كؤوس أحلامي وكببتها مئات المرات , عندما وصلت أمام ساحة الكازينو سألت أحد العمال كان ينظف الساحة ..

: مرحبا .. كم الساعة الآن لو سمحت ؟

: تقريبا الوحدة والنصف

سعدت لأنني لم أتأخر المكان صار قريباً , لم يطل انتظاري , وقفت السيارة الفخمة بجانبي وأومأت لي , لم أحسّ بالارتباك في كل حياتي كما الآن , وسألت نفسي .. ما بي ؟! امرأة غريبة , كبيرة , غنية , فائقة الجمال , وأنا غريب فقير , منتوف .. لا سماء لي ولا أرض .. لماذا أسمح لنفسي أن تأخذني أبعد من النكاش , والعتالة , والسخرة , هذا ما خلقنا له الله سبحانه , ونحن لسنا مخيرين في شيء , لماذا أسمح لنفسي أن تذهب إلى أماكن لا تخطر في بال عاقل ولا حتى مجنون , لماذا لا أتعامل مع الموضوع على أنه .. عاملاً , صغيراً , فقيراً تعطف عليه سيّدة , والنساء يشتهرن بقلوبهن العامرة بالعطف والحنان والأمومة والخير , ووجدانهن النقي وعطائهن الذي لا يضاهيهن فيه بقية الخلائق مجتمعة

: مرحبا

: اهلا .. اركب

فتحت الباب وجلست .. مدّت يدها وسلمت وتركت يدها في يدي والتفتت قليلاً , التقت عيناي بعينيها .. الجميلة كالحلم , كانت الخطوط الخضراء في عينيها ممتزجة ببعض الخطوط البنية , تدعوك للسجود أو للتهجد أو للتسبيح .. لتنتشي .. لتصير شيئا آخر جديداً .. عنقها الذي ينساب كقطعة مرمر , ونهداها اللذان يقفان كعصفورين على غصن يغطي رأسيهما قطعة قماش زهرية تنسدل عنهما بمنتهى الروعة والأناقة , ووجهها الذي نحته خالق ذواق ومبدع

: كيفك ؟.. وهي تبتسم وتنظر للبعيد

: الحمد لله .. وأنا أحدق في أي شيء تقع عليه عيني

: انتظرت كتيراً ؟

: قليلاً

: أحكي لي ماذا فعلت .. أين سكنت

: اشتغلت بصب البيتون وتكسير الحجر والبيتون , واليوم وعدوني بعمل في فرن يعني أسهل

: في صب البيتون !؟ والتكسير ؟!

: نعم .. هذا ما وفقت به
: هين الشغل ؟

: لا ليس هيناً.. الشغل بصب البيتون صعب , والتكسير بالمهدة كذلك صعب , لم أستطع المتابعة بالاثنين , سلخ كتفي على الميلتين ويدايّ , والمهدة والتكسير أكملت على الباقي

: كيف ؟

: سلخ لحم كتفيّ .. ويديّ ظهرت فيها فقاعات هذا في اليوم الأول في صب البيتون .. في اليوم الثاني , فقئت الفقاعات وسلخت يدي من المهدة فلم أستطع الاكمال

: وأنا أسلم عليك أحسست بشيء في يديك أرني

فتحت كفي أمامها .. صعقت وخففت سرعة السيارة وأوقفتها وهي تنظر في كفيّ وعينيّ

: ما هذا ؟!

: كما ترين

كانت خرائط اللحم المتهتك وبقايا الدم المتجمد ترسم لوحة سريالية في راحتي

: وكيف تستطيع ؟ وسكتت

: في اليوم الأول كانت صعبة .. كنت أذهب إلى النهر وأضعها في الماء حتى تبرد .. الآن أنا أفضل .. هي تندمل .. وأطبقتهما

: ماء النهر ممكن أن يجرثمها .. أنت يلزمك طبيب .. وشهر استراحة حتى تطيب

: ابتسمت .. شهر ؟! .. شهر استراحة !؟ وأين وكيف ؟ .. هيّنة .. هيّنة .. سيصحان في الفرن .. التعامل مع الخبز يطيّب الجروح
تابعت المسير وعلامات التعجب والعطف وأشياء أخرى لم أستطع قراءتها في وجهها , أمام البوابة وقفت وهمت بالنزول لفتح البوابة , كنت سريعا جداً .. نزلت ودرت أمام السيارة نظرت إلي وهي تناولني المفاتيح , نظرة كادت تسقط دمعتي , فتحت البوابة ودخلت .. سكرت خلفها وتبعتها

: اليوم سنسقي هذه الأحواض وهذه الشجرات

دلتني ماذا أفعل وكانت تتابعني , كنت أعشب وأسقي , خلال ساعة سقيت كل شيء

: تعال نرتاح

صعدت وصعدت خلفها .. ومن غرفة كبيرة جدا إلى غرفة ثانية عرفت فيما بعد أنها غرفة الطعام , هذه الغرفة تزيد مساحتها على مساحة بيتنا وبيت أبو اسماعيل جارنا , يتوسطها طاولة كبيرة وحولها كراسي , أنا اعتقدت أنها للزينة وليست للاستخدام سحبت كرسي وقالت

: اجلس

وفتحت البراد وأخرجت صحناً , لا ليس صحناً .. شيئاً يشبه الصحن كبيراً مليئاً بالتفاح والعنب وأشياء أخرى لم أعرفها وضعته وقالت وهي تنظر إلي

: ما رأيك أن تعمل دوش وثم نأكل ؟

: وقفت كالأبكم , لا أعرف بماذا أجيب , لم أفهم ما ترمي إليه , سكوتي كأنه أوحى لها بالموافقة الخجولة فقالت وهي تأخذني من يدي
: تعالى معي .. أنت (خجلان)

ذهبت معها لا أعرف كيف ؟ ولا إلى أين ؟ ولا لماذا ؟ كنت كطفل جزع خائف , سارت إلى ممر ثم فتحت باباً ودخلت ويدي ما زالت في يدها أتبعها كالهر

: (يلا .. ساوي دوش وتعال)

نظرت يميناً ويساراً , غرفة كأنها مصنوعة من زجاج فيها أشياء من المستحيل أن اعرف كيفية استخدامها , هذا ما يسمونه الدوش! فسرت بسرعة أن الدوش له علاقة بالحمام , الأرض والسقف والجدران كلها تلمع وفي الطرف حوض مستطيل أبيض , خلفها كانت مرآة كبيرة ومغسلة والحنفيات الفضية في كل مكان , كأنها قرأت حيرتي وخوفي جيدا , وهو ما جعلها أكثر راحة وجرأة في التعامل معي , هكذا فسرت فيما بعد , أحسست أنها تصنع مني دمية , تفصلها كما تشاء , وأنا كنت كالأبله , السعيد ببلهه , فتابعت
: ما رأيك أن أساعدك ؟

صار شيء من الرعب والخوف يجتاحني وينغص عليّ هذه اللحظات , وكان شيء ما في داخلي يوبخني ويقول لي .. أيها الجبان .. أمامك الجنة مفتوحة أبوابها لِمَ الخوف ؟ وحضرت الذاكرة وحكايا الناس في ليالي الشتاء الذين كانوا يؤلفونها , عن مغامراتهم , وعن ما سمعوا عن أناس أخذتهم النساء , وقتلتهم وباعت دمهم ولم يبيّن لهم بعدها أثر , اختلط الأمر وضاعت من أمامي السبل .. بقيت هي وشهوتي في جهة وكل ما سمعته وما فكرت فيه وخوفي ورعبي في جهة أخرى .. وانتصرت , انتصرت عيناها والدفء الذي يشع منهما , شفتاها والعذوبة التي تتدفق منهما , لهفتها التي حملتني من كل هذا الكون وحلقت بي

إلى عالم أخر , الخجل الذي حاول قتلي قتلتّه أصابعها وهي تنزع عني ملابسي , قتلتّه أمومتها وأنوثتها التي صرخت عندما رأت كتفي .. عندما نزعت قميصي الخارجي وبان لحم كتفاي المتهتك والدم المتيبس , صرخت صرخة أخافتني , ولكن الرعب الذي ظهر في عينيها هدهد من خوفي ..

: ما هذا ؟! .. يا عدرا

الظاهر كان منظر كتفي موجع , عندما لم أستجب لخوفها هدأت وسألتني
: ألا تؤلمانك ؟

: قليلاً .. الآن .. قليلاً .. أمس كان الألم فظيعاً

كانت أنفاسها تملأ رئتي وتفتح شبابيك روحي .. اقتربت منها قليلا .. واقتربت هي .. اقتربت أكثر .. غارت عيناي في عينيها , فعلت ما فعلته يوم ودعتها في السيارة .. ولكنها هذه المرة لم تطلق سراحي .. بعد لحظات كنا عاريين .. وبعد لحظات أفرغت رغبتي وشوقي ولهفتي وكبتي وثورتي .. نظرت إلي وأنا ما زلت في حضنها
: أول مرة

: أول مرة .. نعم أول مرة أنت أول امرأة أعرفها

: استعجلت

: الرغبة هي التي عجلت .. نكررها

: تستطيع ؟

: نعم أستطيع

: لم تعرف امرأة قبل الأن ؟
: لا .. أبداً .. عرفت العادة السرية , منذ فترة قصيرة , قبل أن آتي بشهر , دلنا عليها شاب أكبر منا بعدة سنين , كنا مجموعة , عندما بدأ يشرح لنا عن النساء والعادة السرية , وكيف يفعلها خمس مرات متتالية في اليوم , أحدهم قال وهو من عمري أو أكبر بقليل أنه مارسها حتى قذف دما , أنا اعترضت وقلت , هذا حرام , وعيب , ومضر .. ولكنني صرت أمارسها خفية

: لماذا اعترضت ومارستها خفية , والآن تقولها لي أنا بالذات

: ربما الحاجة , ربما الغريزة , ربما الاثنتان معاً , أما لماذا أخبرك أنت بالذات عن شيء أخفيه عن كل الكون .. لا أعرف بالضبط , ربما لأنني أحس أنك الكتاب الذي يجب أن أكتب فوق صفحاته كل ما يخبئه الفؤاد , وتجيش به الروح , أحس أنك كل هذا الكون بالنسبة لي , الكون

الجميل الأنيق , الكون الذي صنع لي جناحين ويطلقني لأطير , ربما لأنك أحسستني أن في هذا الكون شخصاً ما يخاف علي ويحبني , ما تفعليه لأجلي , لا يصدق .. لا أتحدث به ولن أتحدث به , أولا لأنه لن يصدقني أحد , وثانيا لأنه يجب أن يبقى لي , لروحي تتسامر به في خلواتها ووحدتها , ما تفعلينه معي ليس له ثمن , وأنا الفقير الدرويش , لا أستطيع رد مثقال ذرة منه .. اليوم وأنا أعبر الشارع كادت سيارة تدهسني .. أنا أحلم بك , وأنا صاح وأنا نائم .. أنت لا تفارقين عيني على الإطلاق , وبمنتهى الصراحة حتى أنا لا أصدق ما يحدث .. اليوم وأنا أعبر الشارع .. وسكت

: لماذا سكتت .. تكلم

: كنت أفكر بكل ما حدث الآن , أقسم لك رأيته , بعد ذلك أحسست بالندم , أحسست بانني أسيء لك بهذا التفكير , ثم أقول .. لا .. لا .. أنا لا أسيء ولن أسيء , لن أفعل إلا ما تريده , هذه المرأة أمي وصديقتي وحبيبتي وكل هذا الكون ويجب أن أكون كما تريد لا كما أريد أنا , هي تفكر بي كشاب مشرد , كطفل مظلوم , أتى به الدهر إلى هنا وفقط

: هل تشعر بخجل الآن وتحس أنني كبيرة كأمك مثلاً ؟

: لا .. الآن .. أرى فيك أنثى أيقظت رجولتي , انثى ملأتني عطفاً وحناناً .. أنت لا تعلمين ماذا فعلت بي منذ لحظات عندما صرخت من منظر كتفاي .. كنت أود أن أبكي .. ملأتِ حلقي غصات .. بلعتها .. كي اثبتَ لك أنني لستُ ولداً .. طفلاً .. لولا ذلك كنتُ بكيتْ , كنتُ أود أن أبكي وأنتِ تلفيني .. أن أبكي وأنا اشكو لقلبك وجعي وألمي وقهري وسود أيامي .. بالمناسبة من ساقك إلى دربي ؟ من أتى بك إلي ؛ لأملأ جرارك بهمومي وآلامي ؟!

: لا تصمت .. تكلم .. تكلم كيفما تشاء , كيفما تشاء , هي الأقدار , فيما بعد ستعرف عني كل شيء , أما لماذا وكيف ومن ؟ أنا مثلك كذلك لا أدري .. ما حصل حصل والآن أحس تجاهك بكل الأشياء الجميلة , أنت كل شيء جميل لي في هذا الكون - قالت ذلك وهي تغمرني وتشدني بكل ما تستطيع من قوة - فقط عليك بالكتمان , إياك أن تتحدث عني لأحد , تقتلني وتفضحني , وأنا لا أدري من ساقك إلى دربي ولماذا زرعت كل ثقتي بك

: أموت دون ذلك , لن أبوح أو أتحدث عنك حتى ولو كان ثمن ذلك الموت , سرك يذهب معي إلى القبر , أنت الضوء الذي ينير لي الدرب في غربتي , غربتي في كل شيء , كل شيء غريب عني وأنا غريب عنه , الأكل

والشرب , الناس , الشوارع , الأبنية , البيوت , أنا غريب ليس فقط هنا بل في كل هذا الكون , وأنت الوحيدة من صرخ لوجعي وأحست به , ربما ساقك إلي إلهٌ لطيفٌ رحيمٌ ذواقٌ , رغم أنه في العرف هو حرام ومستنكر والله يعاقب عليه

: وأنت ما رأيك ؟

: لا أعرف .. ولكن عندي ثقة مطلقة , أن الله يعاقب على الأذى , أن تؤذي أي شيء يعاقب عليه , وأنا لم أؤذِ أحداً , إلا إذا كنت تحسين أنني أذيتك عندها فقط سأعرف أنه سيعاقبني , وعندها سأركع عند قدميك وأقبلهما وأطلب العفو منك أولا وأغادر

ضمت رأسي بقوة إلى نهديها وأخذت تعبث بشعري , وكنت أسمع همسا لم أفهم منه شيئا .. صرت أداعب حلمتيها .. علمتني كل شيء .. افعل كذا .. قم .. اقعد .. تمهل .. بهدوء .....

أرعبتني وهي تتأوه وتتنهد وتحاول كبت الصراخ وتعض على شفتها .. عندما ارتجفت وبدأت تهدأ , أحسست أن شيء ما قد حدث .. أسرعت قليلا ..

سكنا نحن الأثنان قليلاً .. نظرت إلي وضمتني وقبلتني

: جداً .. شكراً .. هكذا

كانت مبتسمة والفرح يشع من عينيها من كل مسام فيها قالت

: تمدد هنا

فعلت ما قالت في ذلك الحوض المستطيل الذي عرفت فيما بعد أنه البانيو وراحت بمنتهى الهدوء تليفني , وبعد قليل تمددت قربي , ملت نحوها وهممت بمداعبتها قالت

: لا .. قبلني فقط .. لا أريد أن أذيك .. لنترك شيئاً للأيام القادمة

خرجنا من البانيو , أخذت منشفة كبيرة جدا , وصارت تنشفني خاصة عند أكتافي , كانت تلامسهما كمن يهمس , تمسهما مساً , أنا لم أكن أرتدي ألبسة داخلية , عندما نزعت عني ملابسي , لاحظتُ في عينيها الاستغراب , ولكنها أخفت أو حاولت تخفيف ذلك , بعد أن نشفتني ونشفت نفسها لفت نفسها بالمنشفة وقالت انتظرني لحظة , بعد بضع دقائق عادت

: ممكن تكون كبيرة قليلاً ولكن البسها لوقت قصير

احسست أنني لا أساوي شيئاً , وكأنها قرأت ما أفكر به

: إياك أن تفكر منذ اللحظة وحتى نهاية العمر بذلك .. فكر بي .. أنني .. كما قلتَ ، من لحظات .. كل الكون وما يحويه , وأنا سأفكر .. أنكَ كل الكون وما فيه .. انس أي شيء آخر .. أي شيء آخر

: لا داعي .. دعيني أرتدي ثيابي وبعد فترة سأشتري كل ما يلزم , وكل ما تختاريه لي .. لكن الآن دعيني , لم تدعني أكمل , وضعت يدها على فمي

: لا تناقش

قبلت يدها وارتديت القميص القطن الأبيض الناصع وكيلوتاً , وكانا كبيرين

: أعرف أنهما كبيرين ولكن مؤقتا لا بأس .. لا بأس

عندما رأتهما عليّ قالت

: القميص والبنطال كبيرين جداً , اتركهما , ارتدِ قميصك وبنطالك .. في المرة القادمة سيكون كل شيء تمام

أكلنا وشربنا كولا وكانت تصر على بعض الطعام , ثم ملأت كيساً كما المرة السابقة

: ما أعطيتني إياه في المرة الماضية مازال لدي منه الكثير

: المرة القادمة إن بقي منه شيئا سأزعل منك , يجب أن تأكل جيداً(ايه) أنت تتعب ويجب أن تأكل جيداً .. نلتقي الاثنين في نفس الموعد ونفس المكان .. لم تخبرني أين سكنت ؟ أخذنا الحب ولم يترك مجالاً لأي شيء آخر ..

: منذ تركتك وأنا أنام كل يوم في مكان , اليوم على أساس سأسكن عند ناطور في بستان قريب من جل الديب ومن الفرن الذي سأشتغل فيه

: للاثنين إن شاء الله تكون قد فرجت .. بدها صبر , والآن إلى أين تريد ان أوصلك , للفرن أم للبستان

: لا .. أريد أن أذهب وحدي .. لا أريد أن أغلّبك ولا أريد أن يراني أحد معك

: هذه لا تخف منها , أنت تعمل عندي ببعض الأعمال .. المهم الكلام .. المهم يا حبيبي ألا تتحدث عني .. عما يدور بيننا

: أنا وعدتك وعاهدتك أن يذهب معي إلى القبر سرك هذا بل سري

عند الباب عانقتني , حتى أحسست لوهلة أنها ستعيدني إلى الداخل مرة أخرى , أو تدخل بي ولا تخرج

قريبا من البستان كنت أضع محطة وقود نقطة علام قلت لها

: هنا هذا المفرق بعد مئة متر يوجد باب حديد للبستان والفرن تعرفينه

نظرت إليّ .. وغرقت بعينيها إلى الأعماق , ثم نظرت في الطريق المزدحمة ..

: نلتقي كما اتفقنا

: إن شاء الله

الطريق المزدحمة حرمتني من عناق أخير , أبو سليمان كان عند الباب , تصنع الاعتناء بالأشجار

: الله يسعدك يا خال

: اهلا خال أهلا إن شاء الله مشي الحال

: الحمد لله

: الخبز ممتاز الله يبارك فيك .. تركت لك الكيس فيه خمس خبزات

: تكرم يا خال .. أنا سأذهب إلى الفرن بعد قليل تأمرني بشيء ؟

: سلامتك غداً نتكلم

: نعم يا خال غداً .. الله يسعد

: الله معك

(5)

هي إله مفتوح الشرفات

هي قصيدة ولو تصحرت اللغة

هي طاهرة عندما تكونون رجالاً

هي عاشقة إنْ كنتم آباء ـ شعراء

وهي عاهرة – لبوة ـ عندما تصيرون أزلاماً

هي البحر يُغرق من لا يجيد الكرامة

هي أمٌ لكل المؤمنين –

لكل الضالين –

لكل العاشقين ـ

هي الأرض ...

تحمل فوق صدرها وفي أحشائها

درر الكون وزبالته

هي الشمس ....

تنشر أشعتها – أمومتها

لا يضير الشمس تفسخ الجيف

هي نون الخلق -

وهي ..... / عندما تقرر /

تخيط فتوق الوجد

والدتي الحبيبة

اليوم أحس أن هذا الكون , فيه ما يستحق الاحترام , وفيه ما يستحق أن نعيش لأجله , رغم كل ما فيه على نقيض ذلك . جمانة .. هذا الملاك العجيب , أثبتت لي , أنني رجل .. رجل صغير العمر , أعطتني دروساً حفرتها في ناقوس ذاكرتي , لا تقدر بثمن , ولا يضاهيها مدرسة ولا معهداً ولا أكاديمية , فتّحت عيني على عالم الأنثى , هذا العالم الذي بدونه , كان هذا الكون غير موجود وبدونها لا يساوي شيئاً , جمانة علمتني .. هذا كذا وهذا كذلك , هنا كذا وهناك كذلك .. هنا نتمهل , وهناك نسرع , هنا نقف وهناك ننطلق إلى فقه الجمال .. علمتني الأسماء ومعناها , الأماكن وفحواها , وضعت أصابعي على سر الكون وغاية الوجود . يا أمي .. إن غابت جمانة .. سأصير عارياً , وحيداً في صحراء هذا الكون , وأعتقد أنني لم أعد أستطيع فقدها . يا أمي .. عندما ضمت رأسي إلى صدرها , لوهلة خلتك أنت , وعندما علمتني كيف أقبل

ثغرها .. خلتها سمر ابنة سعيد الدركون التي تفتّحت عيناي على تفتح أزرار أنوثتها .. وعندما كانت تناولني الطعام وتجبرني عليه .. خلتها أختي أميرة , وعندما ودعتني عند الباب ومسحت على شعري .. خلتها جدتي زلفا , وعندما فتحتُ باب السيارة رمقتني بنظرة وقالت .. (دير بالك على حالك ايه) .. سمعت صوت أبي وهو يمطرني بغيم حنانه الملوع الخائف عليّ , أمي بالمناسبة .. كيف حال والدي , أنني مشتاق لذاك الرجل الطويل العريض , مشتاق لرؤية عينيه الحزينتين , للحب المتدفق منهما الذي جعلني أكبر بسرعة ,عينيه اللتين كانتا تعتذران مني ولا أدري على ماذا ؟ فأنهار أمامهما ؛ لدرجة كنت أتصنع أية حجة لأغادر وأبكي ولا أدري لماذا ؟ سلمي عليه , قولي له ناجي مشتاق لتقبيل يديك .. أبي يا أمي من يوم لقائي بحياة .. وهو لا يفارق بالي .. حياة التي رهنها والدها .. حياة .. الجميلة كقمر أسرته الغيوم الداكنة وحجبت ضياءه , تذكرته وكيف صار مضرب مثل , حين رفض كل عروض السماسرة , الذين يأخذون البنات للرهينة , ولم يفرّط بحشاشة كبده .. حين قال .. نعيش معاً , أو نموت معاً , ولا يجوز أن يحيا أحدٌ منا على حساب موت الآخر

أمي الحبيبة .. أنا سعيد اليوم لأنني عملت بجد , وزمات يداي أعاقتني ولكنني صبرت , البخار الحارق داخل

رغيف الخبز كان يلهب هذه التقرحات , خف ذلك بعد آخر الليل عندما اهتديت لطريقة مسك الرغيف بحيث لا ينفجر الهواء بين يدي , كنت لطيفا مع الجميع , حتى أبو خليل وشوشني – يا بني لا تبالغ في الاحترام , هناك ناس لا تستأهل .. لا تعطي أحداً زيادة عما يستأهل تخسره – قلت له وأحسست أنه تفاجأ بجوابي .. يا عم أبو خليل .. الناس طباع وتربية , ومن ربيَّ على احترام الآخرين ولو أساؤوا له , لا يستطيع الرد .. يا عم أبو خليل كل إنسان على ما ربيّ شاب , وعندما نحترم قليلي القدر والقيمة والأصل , يمكن أن نرفع من مستوى تعاملهم وذوقهم , وإن لم يفعلوا نكون قد فعلنا بأصلنا وتربيتنا . كان يوماً جميلاً لولا هذا النتن أبو سليمان . عند السادسة وصلت , كان عند البوابة , كأنه لم ينم كل الليل بانتظاري , أخذت رغيفين وناولته الباقي قال

: (خال الله يخليك .. نام ساعتين ثلاثة ثم يا ريت تعشب كم ليمونة .. استطاعتك , المهم أن تفعل شيئاً , نريد أن ننهي البستان قبل أن يملأه العشب .. لا تنسى , أنا رايح لا أتأخر .. الخواجا يريدني)

: تكرم يا خال تكرم

نظفت الغرفة جيداً بالماء والتايت وفرشت ونمت , في العاشرة استيقظت على صياحه
: خال .. ياخال .. يا خال

: نعم .. نعم

: نومك ثقيل جداً.. من ساعة وأنا أحاول إيقاظك دون جدوى .. كنت سأكبّ عليك ماءً

: يا خال أنا منذ يومين لم أنم .. خير يا خال ؟

: يا خال .. من أجل أن تقوم و تركش ليمونتين قبل أن تذهب إلى الفرن

: كم الساعة ؟

: تقريباً .. اثنتين

: طيب خال .. طيب الله يعطيك العافية .. الآن أقوم وأركش .. تكرم

ذهب وأنا حاولت أن أقوم وأقصر شر هذا الرجل اللعين .. مرة أخرى استيقظت على صياحه
: اعتقدتُ أنك قمت .. ذهبتُ أرتاح قليلاً وفقت لم أجدك والساعة صارت خمسة لم يبق وقت كافٍ للعمل ولكن لا بأس ولو ليمونة واحدة , أفضل من لا شيء

: خال .. أنا اليوم تعبان ما رأيك أن نؤجل العمل للغد

: الظاهر لن نتفق

: طولة البال من الرحمن يا خال سأفعل كل الذي تريده ولكن امهلني قليلاً من الوقت

تركني وراح وسموم الكون تقطر من وجهه , شبه أيقنت أنني لن أستطيع العيش مع هذا الرجل .. قلت أصبر .. أصبر وتذكرت المثل الذي كنت ترددينه دائما (ما حاجك للمر .. الأمر منه) قمت وسألته دلني كيف سأعمل , أخذني إلى غرفة مليئة بالعدد , فيها كل شيء , ناولني أداة أول مرة أرى مثلها وقال

: هذه مجرفة إن لم تعجبك نقي أي شيء يعجبك وأحفر به المهم أن تنكش تحت الليمونة بدائرة مترين وتنقيها من العشب

أخذت المجرفة وبدأتُ , لم أكمل حول شجرة , حتى التهبت مرة ثانية وزمات يداي , وأحسست كأنني أمسك بهما جمراً , غادرت , غسلت وأكلت , لاحظته يراقبني وهو يتمختر من بعيد

(6)

حين عبرنا جراحَ اليتمِ ..

إلى ضفاف التشرد

حَملتُ صِرارَ أحزاني وأوطاني

وكتاتيب عشقي وقصائدي ..

وكبّيتُ دمعي على شَراشفِ الغيمِ

وتنهيدة النايات

وعلى حوافر صراع الطبقات

و معاطف عصافير الشتاء

على وجنات ورود الدودحان

وما بيننا لعنة الولادة

ونافذة ترنو إلى البعيدْ ..

وشارع يهرولُ خلفَ بقايا حلمٍ

تشظى ..

على صخور شواطئ بقعة الضوءْ

نوِّخْ ... نوِّخ ...

على هذي الشواطئ ناحَ حمامُ الروحْ

والدتي الحبيبة

ألم يدي سرق مني فرحتي بعملي الجديد , أبو سليمان , سرق فرحتي , سألني سمير الذي كان النابض في عمله الجديد ؛ ليثبت للجميع أنه عامل ماهر مكان محسن على السهلي .. سألني

: أنت اليوم مفكور , قل لي ما بك

: من أمس وأنا بدون أكل وجائع

أحببت أن أمرقها هكذا

: خسئ الجوع , أنا من الصبح اشتريت كيلوين قوانص ونظفتها ووضعتها بالبراد .. لحظة

وبسرعة راح وأتى بكيس مليء بالقوانص .. أتى برغيف خبز وفرش فوقها حتى امتلأت رش فوقه الملح وضعها على لوح خشب وقال

: سيدنا وتاج راسنا عمي أبو خليل هذا لناجي , من الأمس لم يأكل

: تكرم أنت وناجي وقال موجها كلامه لي .. يا بني لا يجوز أن تبقى بلا أكل هكذا تخسر صحتك - و أخذها وأدخلها في الفرن -

في الحقيقة ألم يدي ما كان يزعجني وليس الجوع ولكنني عندما رأيت القوانص تتحمص قرب الجمر أحسست بالجوع , بعد عدة دقائق أخرجها أبو خليل ووضعها أمامي

: تفضل يا ناجي

قلت : سمير ؟

: لا .. هذي لك أنت , لفها سندويشة سريعة وكُلْ .. أنا عندما أجوع الكيس موجود ..

جوزيف هذا الرجل الذي ملأ روحي وكياني وبدون أي كلام , لا أدري ما الذي شدني لهذا الرجل أو ما الذي شده للاهتمام بي وبهدوء , قال

: نحن كلنا أكلنا قبل أن نأتي .. أنت لم تتعود بعد على روتين الحياة هنا

قلت .. شباب .. أريد أن أضيفكم كازوز كل واحد يقول النوع الذي يريده , ردّ الجميع .. لا نريد شيئاً

: إن لم تقولوا سآتي لكم على ذوقي

قال أبو خليل ..

: (ناجي روح جيب على حسابي أنا بدي ضيف , وبدأ يسأل أنت شو بدك وأنت شو)

حفظت الطلبات دفعت للصندوق وأتيت بالكازوز , وزعتها على الجميع وقلت

: عمي أبو خليل لا تزعل مني هذه المرة فقط .. أنا دفعت

: الله يسامحك .. يا بني .. نحن من يجب أن ينتبه عليك لا أنت .. (يلا بسيطة)

كانت لقمة فائقة اللذة وخاصة مع السفن أب صديقي

أيقنت أنني لا يمكن أن أبقى عند هذا الرجل (الخال) هو خالٍ من أي شيء له علاقة بالرأفة والإنسانية , طوال فترة الواردية لم يغب عن تفكيري لحظة واحدة , في الصباح كان ينتظرني عند الباب

: صباح الخير

: أهلا صباح النور .. يا خال اليوم لا أريده كالأمس , أنا مشغول , كما اتفقنا , وإلا لازم تشوف مكان ثاني .. هكذا الأمور لا تمشي

: والله يا خال أنا يداي ما زالت موزمة من البيتون , اصبر عليّ كم يوم حتى تندمل قليلا .. كم يوم فقط -

وفتحت راحتيّ أمامه .. كل الليل بالفرن وأنا أحسّ فيهما جمر والخبز حرقهم

: ما بهما لا أرى شيئاً يستوجب ؟ الحمد لله , هذا اللحم غداً يتيبس وتصبح يديك مثل الحديد

: نعم .. ولكن حتى يتيبس يلزمه كم يوم .. خال عندي اقتراح ما رأيك اعطيك أجرة من يعشب وينكش وتعفيني .. تأتي بعامل وأنا أدفع له ما تريد .. أنا هكذا أدع يديّ حتى تصحان والبستان يصير تمام

: أنا لم أسكنك عندي من أجل الإجار (هيك ما بيمشي الحال أبدا)

: كما تريد .. الآن قدامك سأضب فراشي وأمشي الله يبارك فيك تفضلت

: رح متى شئت

: لا .. الآن .. قدامك .. حتى تقفل خلفي

: (ما في داعي .. ما في داعي)

: لا .. لن أتأخر .. دقيقتان وأكون قد غادرت

حملت الاسفنجة والكيس وربطة الخبز وغادرت وهو يتأملني , و إلى الدغلة

(7)

هذي سود الليالي

وهذا رزيل العمر

مطعون بعويل الذئاب

دمي حبر اللغة

و الجرح .. البحر وأجاجه

هذه تيماء الخوف

وكهوف المتاهات

والقلوب المقدودة من حجر

والضمائر المثقوبة بمسامير الانتظار

والسفن التائهة في بحار الدم

ولا مرافئ تتسع لهذا الوجع ,

المضمخ بحرقة الترحال

ونحيب الرحيل

والدتي الحبيبة ...

جميلة حياة البراري يا أمي .. صدقيني يألف الإنسان كل شيء وكل الأشياء تألفه حتى الزواحف والوحوش والطيور , أمس استيقظت ككل يوم على همروجة طيور الصباح , فتحت عينيّ .. ما رأيته إن رويته لن يصدقني أحد .. لا تبعد عني نصف متر تلتف حول نفسها كالكعكة , رفعت رأسها وصرنا ننظر إلى بعضنا .. بادرت أنا بعد أكثر من دقيقتين وبهدوء وجلست وما زلت وما زالت كل منا ينظر إلى الآخر .. دقيقة وغضت بصرها عني وبدأت تحل نفسها وتغادر .. حنش لونه بني غامق حوالي المترين بثخانة الزند , ممكن أن يكون من حوالي الشهر وهو ينام قربي .. كأنه أحس بالأمان قربي , في اللحظة الأولى أحسست بشيء من الخوف ,ولكن بعد برهة زال .. صرت كل يوم أراه أحيانا أنتظره حتى يمر , لم يخطر ببالي أن أؤذيه لأنني أيقنت بعد رؤيتي له في اليوم الثاني أنه لن يؤذيني , كنت حريصاً ألا أترك بقايا طعام في المكان أبداً كي لا تكون دعوة لكل ما هبّ ودب ليأتي لضيافتي , صدقيني يا أمي حتى العصافير صرت أمر بقربها لا تتحرك وكأنني غير موجود , وكنت سعيداً جداً أنها تثق بي , لولا مشكلة الغسيل والحمام لبقيت أبد الدهر هنا , اشتريت بيدون بلاستيك أعبئه وأتركه في الشمس ليفتر .. تركته هناك عند الشلال , أذهب إليه ألتجئ خلف

شجرة الصفصاف وأتحمم وأغسل ملابسي كلها وأنشرها وعندما أعود في اليوم التالي تكون قد نشفت , والرائع خلال كل هذه الأيام لم ينتبه إليّ أحد , الآن في الصيف وحتى نصف الخريف ممكن ولكن بعدها .. هذا هو السؤال الذي شغلني وكيف أستطيع التصرف في فصل الشتاء .. فكرت أن أصنع من الأغصان كوخاً وأغطيه بالنايلون , ولكن قصة برد الشتاء وثلوجه ورياحه والغسيل والحمام جعلتني أعدل عن الفكرة نهائيا وعدم الركون للراحة في هذه البرية وتكثيف البحث عن مأوى

(8)

على امتدادٍ بيننا ...

شارع طويل ..

يتسكع في مساءاته

الشوق الموبوء بوجع الغربة

والرغبة المطعونة بسكين البكاء

والرأس المهروس بتعب القدمين

على امتدادٍ بيننا ...

رجل .. يحلم ..

انْ يُلقي أحمال التعب

في قاع سحيق

أنْ يهرَّ دمع قهره الموزوم ؛

بقيء الخيبات

أنْ يقتصّ من ذئاب الوقت

العابر كالعاصفة

أنْ يقوم إلى حضن أنثى .. أنثى ؛

وينعس

رجل .. يحاول ,

أن يستر ناره

من هبوب الريح

يبرد الجرح بثلج الأيام

وبلسم القصائد

يبحث عن غدير الحقيقة ؛

ليغتسل من وسخ هذا القميص ؛

إلى ثوب الضياء

رجل , ممن تعفر الأرض جباههم

ويزرعون سنديان الصباح

ويتأتئُون صدق المباح

على امتدادٍ بيننا ...

حزن كموج البحر

لا البحر يهدأ ولا الموج يرتاح

حزن كجبال الأرض

لا الأرض تمور ولا الجبال تنزاح

على امتداد بيننا ...

صرة حزن .. بحجم وطن

والدتي الحبيبة

قلت أذهب إلى ماري أسألها إن كان مر عليها الخواجا وترك لي خبراً , وربما صار لديها غرفة للإيجار , ثم أذهب إلى أبو جورج

: مرحباً يا خالة

: أهلاً وسهلاً

: أنا ناجي

: أهلاً يا بني تذكرتك

: هل مر الخواجا يا خالة

: لا يا بني لم يمر

: خالة .. وغرفة للإجار ,هل هناك خبر ؟

: لا يا بني .. لم أجد لك غرفة بعد .. مر دائماً واسألني

: شكراً .. تفضلت يا خالة

غادرت شرقاً إلى ذلك الرجل الطيب ربما لديه خبرٌ طيبٌ .. على نفس الكرسي كان يجلس

: يعطيك العافية عم أبو جورج

: الله يعافيك .. تفضل

: عمي أبو جورج هل هناك ما تبشرني به ؟

: من أجل الغرفة أليس كذلك

: نعم
: يا بني تستطيع دفع الإجار وحدك ؟

: نعم .. ياعم .. أدفع .. كم ؟

: يا بني - وأشار بيده غرباً - هناك عند ذلك البيت غرفة كانت للحارس على طرف الجنينة سقفها توتياء وفيها تواليت واسع , يعني تواليت وحمام , تريد صاحبتها قيمة إيجارها ثلاث ليرات في الشهر

: تمام .. ياعم .. دلني .. أذهب وأقول لهم أنك أرسلتني

: تعال معي أنا سأذهب معك .. كرمى لأبي كامل , وكرمى لك , والله أنا أحببتك - يا حني انتبهي على الدكان خمس دقائق لن أتأخر -

رأس النبع , بيوت متباعدة منها طابق ومنها طابقان سرنا باتجاه الغرب قرابة الخمس مئة متر , كان بيت من طابقين مسور , دق الباب الخارجي وانتظرنا قليلا .. ثم ضغط زر الجرس , أطلت من الشرفة سيدة ثم اختفت , بعد لحظات فتحت الباب

: أهلا مخايل أهلا تفضل

: ست سارا هذا الولد – ونظر إلي مبتسما – أقصد هذا الشاب الذي قلت لك عنه – والتفت إلي مرة أخرى .. (أنت متل ابني ونحن نبقى نقول للأبن ولد ولو صار عندو ولاد .. لا تزعل ايه)

: لا .. لا .. ياعمي أبو جورج وأنا كذلك .. (متل ابنك وأنت متل أبي)

: ايه يا ست سارا .. تعطيه الغرفة ؟

: وحدك ؟

: نعم وحدي

: هذي الغرفة على طرف البستان هي بالأصل للناطور , نحنا سكنا البيت وما عدنا بحاجة لناطور , سقفها توتي , يعني (مو منيحة كتير) تعال معي - مشينا أنا وابو جورج خلفها , في زاوية السور حائطين من حيطانها هو حائط السور نفسه , لها باب مباشرة من السور على الشارع , غرفة كبيرة وغرفة صغيرة داخلها حمام وتواليت , سقفها بضع أخشاب وفوقها توتياء -

: هذي هي .. فهمت عليّ كيف ؟ لا نحب الضجيج ولا الزحمة .. وإذا كنت كيّس تصبح من أهل البيت

: إن شاء الله لن تري إلا الخير .. واذا رأيت أي شيء لا يعجبك (هينة) ترحليني .. يبقى البيت بيتك ..لكن أريد أن أسألك .. من أجل الحر والمطر والبرد .. إذا حسنّت فيها يزعجك ذلك ؟

: كيف يعني ؟

: يعني آتي بإسمنت وأصب فوق التوتياء

: لا مانع .. و قدام أبو جورج أنا أدفع ثمن المواد وأنت اشتغل .. أهم شيء لا أريد ضجة والنظافة , وأجرتها بالشهر ثلاث ليرات

: تكرمي .. أستطيع أن آتي اليوم وهذي ثلاث ليرات سلف

: لا .. اعطيني أخر الشهر .. باين أنك آدمي .. تفضل لأعطيك مفتاح الباب الخارجي الذي على الشارع .. أنت تفوت وتطلع من هذا الباب .. يعني لا تدخل من بابنا , وهذا البستان الصغير إذا احتجنا إليك من أجل العناية به فبأجرك

: فهمت كل شيء .. إن شاء الله لن تري إلا كل ما يسر خاطرك

غادرت أنا وأبو جورج وأنا أشكره وأحمد الله عندما وصلنا كان أمام الدكان سيارة (كميون بيك أب) تنتظر أبو جورج مليئة بمختلف البضائع

: (العوافي عم مخايل)

: (اهلا وسهلا ..تسلم ايديك .. جبت كل الأغراض ؟)

: نعم .. وهذي الفاتورة

نزّلتُ الأغراض أنا والسائق هو غادر وأنا بقيت اسأل ..عمي أبو جورج هذي أين أضعها ؟ وهذه أين ؟ وزعت الأغراض في الدكان ونظرت إليه وأنا سعيد جداً

: عمي أبو جورج امرني

: الله يبارك فيك أنت امرني

: عمي أبو جورج من أجل الغرفة .. امرني

: ذكرني باسمك

: ناجي

: عمي ناجي - ومد يده في جيبه وأخرج نقودا - امسك

: عم أبو جورج والله العظيم إن كررت ذلك لن آتي إلى هنا مرة أخرى .. أنا أفكر أن أبقى حدّك دائماً , إذا كان ذلك لا بزعجك

: والله أنت ابن حلال وأنا مبسوط جداً لأنك صرت قريباً , أنا أكون ممنونك إذا بقيت حدي

: أنا سأذهب لآتي بالأغراض وغداً آتي إليكم

: الله معك

غادرت ومعي المفتاح , وأنا أكاد أطير من الفرح .. صار عندي بيت .. أنا سيده ولا يشاركني بالسيادة عليه أحد .. أنام وقت أشاء وأستيقظ وقت أشاء هو يشبه الدغلة ولكن بسقف وجدران وماء وحمام , سأخسر العصافير والزواحف التي كانت تشاركني هذه البرية , أخذت الإسفنجة والصندوقة وعدت , فتحت الباب من الشارع ودخلت .. خلت نفسي أدخل إلى قصر أو إلى معبد , وضعت الأغراض وذهبت إلى أبو جورج

: لم أتأخر

: أهلاً وسهلاً خير يا بني ؟

: أريد مكنسة وسطل وصابون وتايت

: (برابو عليك .. برابو)

نظف الجدران والأرض والحمام وكل شيء

(9)

يمرقون كحبل الغسيل

على شرفة الأيامْ

إلا طيفك يلتصق فوق التلافيفْ

لا مواعيدَ لقرعهِ الأجراس

يمرون ...

أسمعُ أنينَ الليلِ من وقعِ الخطا

يعبرونْ ...

ويبقى ظلك يكنس غبار النعاس ,

عن شرفات الحنينْ ..

يكتبُ ...

سكابا ... ويئنُ ... ويسكبْ ...

فيفيضُ الحنينْ ,

فأكتبُ مطراً ..

ينهمرُ على صدرك ..

يتبعثرُ بيني وبينك ..

يستيقظ الصباح على صراخ الآهْ

فيأخذُ بلَلَنَا لينشرهُ على أجنحةِ الريحْ

وعلى كل المفارقْ ,

ننتظرْ ...

لتهرمَ المسافاتْ ,

أو يتغيرَ عشقُ الريحْ

أو نشفى من مطرِ الذكرى

أو نذبحَ امتلاءاتنا بالبكرة ..

ويصير غيرَنَا العاشق المجنونْ

نوِّخْ ... نوِّخْ ...

لهذا الجنونُ يهدلُ يمامُ الروح

والدتي الحبيبة

اليوم كنت في عيد , ملأ الفرح روحي , فرح إغلاق أحد أبواب الظلم , كنت أعمل بمنتهى الجد , ناسيا ألمي

ووجعي , وتكيفت قليلا مع العمل وصرت أجرب أفضل الطرق كي أبقى مرتاحاً على الخباز , حيث لا يكون على بسطة بيت النار خبزاً أبدا , ولا يبرد الخبز على السقالة فيتيبس , أهم شيء هو استحداث الطريقة الأفضل لمسك الرغيف وهي للتو خرجت من بيت النار , بحيث تبقى سليمة وانا أضعها على لوح الخشب فلا تحرق أصابعي , لا حظ الجميع سعادتي سألني سمير

: ماشاء الله اليوم أنت في أحس أحوالك

وقال جوزيف (يوسف)

: الله يديم عليك الفرح والصحة

قلت : اليوم أنا سأضيفكم سفن أب (حلوان .. حلوان)

ابتسم جوزيف وقال
: لماذا سفن .. (الكراش منشو بيشكي) ولكن قل لنا أولاً لماذا ؟ ما المناسبة ؟ بالمناسبة أنت نقلت إلي بالعدوى الفرح , الله يديمها عليك وعلينا , عندما رأيتك سعيداً , سرت بي العدوى وصرت مثلك سعيداً , ولا أعرف لماذا؟

: اليوم خلصت من بابٍ من أبواب الاستعمار , اليوم وجدت فيلا واستأجرتها , صحيح يلزمها شغل , يلزمها

بيتون فوق التوتياء .. ليست مشكلة , المهم خلصت من كل الذين حاولوا إذلالي .. أبي كان يقول (الحلاقة بالفاس ولا عازة الناس .. الناس اخوتك واصحابك حتى تحتاجهم ؛ لذلك .. يا ولدي .. حاول ألا تكبَّ ماء وجهك) وودعت دغلتي الغالية العزيزة والتي سأبقى أزورها , فهي من أوتني وبدون منّة حين لم أجد مأوى , وحمتني من القمل والبراغيث ولؤم من انتفت من قلوبهم الرحمة والرأفة والخير

تساءل جوزيف مبتسما
: بدأنا نحكي بالسياسة ؟ (بكير عليك .. بكير كتير) الله يبعدها عنك ويبعدك عنها .. وما هي الدغلة ؟

: (لا ه ..لاه ..) يا معلم جوزف من لا يعرف الدغلة !؟ الدغلة .. الحرش الكثيف المتلاصق والذي يصعب الدخول فيه .. يا سيدي مجموعة أشجار متشابكة أغصانها وتحتها مساحة تستطيع أن تختبئ وتنام ولا يراك أحدٌ إلا العصافير والزواحف والحيوانات إن وجدت , التي تشاركك المكان , العصافير تشاركك الأغصان , تغرد لك بالمجان لتنام , والزواحف تشاركك الأرض , بعد أن تألفك تصيرون بوحدة حال .. يا سيدي هذه هي الدغلة , بيتي من يوم أتيت وأنا فيها أنام وأرتاح , بالمناسبة , الصنوبر يأتيك بالهواء من غامض علم الله , وأشجار

الصنوبر تتسامر ولكن بصوت خفيض تستطيع أن تنام على همسها ملء جفونك وكأنك تسمع فيروز (يا شجرة الأيام ...) يا سيدي وممكن أن تبكي قبل النوم على رائحة أتت بها النسمات من غامض علم الله , من صوب من تركتهم .. من صوب من تحبهم .. هذي هي الدغلة

: بربك .. كنت تنام بالبرية !؟ ألم تخف من الأفاعي , العقارب , من الوحوش ؟!

: أقسم لك يا معلم جوزيف .. كل الذي ذكرته لم يخطر ببالي نهائيا , أنا فكرت فقط أن أنام في مكان لا يوجد فيه قمل وفسفس ووسخه محمول وفيه ناس , يا صديقي صدقني عندما كنت أدخل وأخرج العصافير لا تطير , وبقربي كان ينام حنش لونه بني بثخانة زندك وطوله مترين , صار بيننا إلفة وود واحترام أحد المرات وبواسطة العم أبو كامل حاولت أن أسكن عند أحدهم .. وضع فرشتي على السقيفة , بصدق حاولت أن أنام بعد بضع دقائق كدت أختنق , وكان بإمكانه أن يضع فرشتي قربه على الأرض ولكنه لم يرض ولا أعرف لماذا .. قلت له دعني أنام أمام الباب لم يقبل , إلا في السقيفة , غادرت إلى الدغلة .. وقبلها نزلت في فندق , أقصد عند شخص آخر لن أذكر اسمه لأنه لا ذنب له بقيت للصبح سهرانا امام الباب لأنني بعد ساعة من محاولتي النوم داخل

الغرفة , بدأت الحك و أين أضع يدي تقع على القمل صرت ألمه عن جسدي وحشرات أخرى أجزم أنها فسفس , لأنها تقرص وتلتصق بالجسد .. رحت إلى البحر ونزلت بثيابي ثم إلى نبع الفوار شلحت كل ثيابي ونقعتها بالماء واغتسلت بالماء البارد , جيد أن الدنيا صيف وشوب .. بعدها تواسط لي الرجل الطيب العم أبو كامل لدى أحد أقرباء أمي – على أساس أنه من الخوال - هو ناطور بستان , في البستان بناء طابقين ليس فيه الدومري يا سيدي لم يتركني أنام .. يريدني أركش وأعشب كل النهار في البستان وفي الليل آتي إلى هنا .. المشكلة أنكم لن تدعونني أنتم كذلك أنام هنا , ومن أجل ذلك كانت الدغلة هي وطني الجميل الرائع والعصافير والزواحف كانت أهلي وجيراني , لم يزعجني أحداً منهم وأعتقد أنني لم أزعج أحداً منهم , هذا الخال كان يوصيني .. لا تنسى الخبزات .. وأنا قبلت .. بالمناسبة طلبت منه أن يمهلني فقط حتى تشفى يدي من الوزمات التي سببها البيتون وتكسير البيتون .. قلت له أمهلني فقط حتى تصح يدي وأنا سأفعل كل ما تريد .. طلبت منه الصبر , أريته كفي المتهتكة والدماء التي مازالت تنزّ منها قال لي مستغربا .. (ما فيها شي بكرا بتيبس وبدبس وبتصير متل الحجر كلنا صار فينا هيك أول مرة) ولم يرض وطردني .. وفي كل مرة كنت أروح إلى وطني الصغير الجميل / الدغلي

/ أتمدد وأنام وأفيق .. وأفيق وأنام .. والله ولا مرة أزعجتني بكلمة ولا بهمسة , كانت مثل الأم الحنون – قهقه الجميع إلا جوزيف وسمير الذي كان قريباً مني جداً , كان وجهي بوجهه أغلب الأحيان لأن عملنا الأقرب لبعض .. التقت عيناي بعينيه رأيت دمعة تكاد تغادر عينيه وهو يسألني بصوت خفيض متهدج وهو يشيح بوجهه عني (يا رجل كنت قل لي والله العظيم كنت نيمتك في فراشي .. وك تفوو لعن الله ها الأيام الزفت) وهمست له .. (هينة أخي سمير هينة مشي الحال) احسست بودهم جميعاً احتضنوني جميعا وخاصة جوزيف (يوسف) كنت أحس أنه أخي الكبير , بل أبي .. كان يرشدني همسا .. اعمل كذا .. هذا كذا .. وذاك كذا .. لا تفعل هذا .. وأنا كنت أقبل ما يقوله لي بانتباه شديد وبحب فائق , وكنت ألاحظ أنه سعيد بمحبتي له كما أنا سعيد بمحبته لي , وكنت أنفذ ما يقوله دون أي نقاش , وكنت أساله عن أي شيء يمر ولا أعرفه , بيني وبينه , ويدلني .. جوزيف .. قليل الكلام , في عينيه حزن دفين , جعل منهما عينين جميلتين ودودتين جداً , أبو خليل الخباز (المعلم) رجل طويل بدين أسمر له شارب كثيف وثخين جداً وعينان كعيني الصقر وشفتان سميكتان ووجه عريض مستدير ورأس كبير , كل ما فيه يدل على أنه رجل شرس قادر , وكان الجميع يهابه ويتحاشاه ويتفادون غضبه , أبو خليل

كان يشعرني بحبه واحترامه لي وكان يقول لي دائما أنت في المستقبل ستصير شيئاً مهماً جداً , فيضحك الجميع وأنا معهم .. كنت أحسبها نوع من الدعابة اللطيفة منه حتى سأله مرة سمير

: (مثلا .. عمي أبو خليل .. شي رئيس .. شي وزير)

: يا سمير الشيء المهم في الحياة ليس الوزير وليس الرئيس .. الشيء المهم في الحياة هو أن تعمل شيئاً تذكره الناس بعد أن تغادر .. بعد أن تموت بمئات السنين وألاف السنين .. يا سمير هل تعرف اسم أي حاكم أو خليفة من الذين مروا في التاريخ ؟ من لا يعرف المتنبي .. من أهم الرؤساء اللبنانيين أو جبران خليل جبران ؟ يا سمير عمك أبو خليل شبه أميّ ولكن الحياة اعطتني دروساً وأنا استمعت لها جيداً وحفظتها , لذلك منحتني شهادة عليا من خبرتها من جامعتها , وهذا الشاب الصغير شديد الانتباه يلتقط بسرعة , ومهذب وهذا أهم شيء فيه على الاطلاق , احترامه للناس وخاصة للذين يكبرونه في العمر , يا عمي سمير المتربي المتأدب تظهر عليه العلائم فوراً , والناس مجبرة تشهد له , شاؤوا أم أبوا (فهمت عليي وك ابني)

: (يا عمي أبو خليل , الله يخليلنا ياك .. أنا قصدت فقط اعمل جو يعني شوية حب والفي بس)

: (نعم ..أعرف .. أعرف .. وأنا أحببت أوضح .. لأن ممكن البعض يفهم أنني أسخر .. بس هيك)

أهم شيء دلني عليه جوزيف هو ثلاث حجرات فيها ماء بارد وساخن ليتحمم فيها العمال إذا أرادوا , عندما رأى الدهشة بادية على وجهي , لام نفسه لاعتقاده أنها من البديهيات , أخبرني هناك خزن كثيرة ممكن أن تختار خزانة وتضع اشياءك فيها وتقفلها , مثل ثياب العمل والخروج والصابون وأي شيء

(10)

المتعبون

كل يومٍ تمحُّ ملامِحهم

حتى تكاد تندثر

وتجف وجوههم

حتى صارت لا ينفعها مطر ,

شعرهم غادر مع الريح ,

شعرة شعرةْ

رقّوا من القهر ..

صاروا كالزجاج

عندما مرَّ نسيم الليل

لم يستطيعوا أن يتمايلوا

فانكسروا

والدتي الحبيبة

غرفتي الجديدة , الدغلة أفضل منها كهواء وبرود , الدغلة مكيفة .. شجر الصنوبر يظللها ويأتي لها بالهواء العليل

النقي البارد , هنا .. تسقط الشمس على التوتياء فتضاعفها التوتياء فتصير حرارة الغرفة شبيهة بالفرن الذي أعمل فيه , ولكنني سعيد .. سعيد يا أمي .. أنا سيّدها ..هي لي وحدي .. أفعل فيها ما أشاء , شغلتني .. شغلت تفكيري .. كيف أحسنها ؟ كيف أجعلها صالحة للسكن ؟ فكرت بمئة حل .. اليوم شطفتها .. غسلت الحيطان , ورشرشت أمامها وسقيت الأحواض وشجرات الليمون والدراق والدوالي .. لمحت صاحبة المنزل تراقب بين الفينة والأخرى , قلت إن كانت لا ترغب بما أفعله , ستخبرني .. نمت حتى بدأ الحريق يدب في الغرفة , استيقظت وأخرجت ما تزودني به دائماً جمانة .. سيّدة هذا الكون وأمه وأبوه وأنثاه وكل شيء فيه راقٍ وجميل وأنيق ومحب ومعطاء .. أكلت وقمت وأنا أفكر كيف آتي بالإسمنت والرمل والبحص , خاصة وأن صاحبة البيت قالت أنها ستدفع ثمن المواد كلها وبدون أي تخطيط حملتني قدماي إلى العم أبو جورج

مرحبا عمي أبو جورج:

اهلاً يا بني .. كيفك اليوم ؟ :

الحمد لله :

اخذت كرسي وجلست قربه

: لديك كلام .. خير يا بني ؟

: لا يا عمي لا شيء .. أريدك أن تعتبرني مثل ابنك قل لي أي شيء أشتغله أي شيء

: الله يخليك ويحميك .. أريد أن تكون دائما بألف خير .. سلامتك بعد قليل سأذهب إلى السوق لآتي ببعض الأغراض

: تمام .. خذني معك

: السيارة كميون بيك آب .. ولا تتسع إلا لشخص

: عمي أبو جورج هذي سهلة أقعد في الصندوق

جلسنا تحت شجرة التوت الضخمة المعمرة وعندما رآني ابو جورج أنظر إليها بمتعة قال

: هذه الشجرة يا بني .. أكبر من والدي رحمه الله.. لم يبق من شجر التوت إلا هذي , كانت المنطقة مليئة بأشجار التوت , عندما هدمنا البيت القديم وبنينا هذا البيت .. قلت للمعمرجية إياكم وهذه التوتة , هي أهم شيء .. إياكم والاقتراب منها .. هي عندي أهم من كل البيت هي من رائحة الأهل .. أمي وأبي كانا يقضيان تحتها النهار وأغلب الليل .. كانا تحتها ينتظران أخي الذي سافر إلى أمريكا وانقطعت أخباره , أبي كان شاعراً .. أقصد صار

شاعراً بعد سفر أخي , بقي ينظم المعنّى والقريدي والزجل والشروقي والسويحلي والعتابا حتى مات .. أمي كان صوتها جميلاً جداً , كانت عندما ينام الجميع تغني وتبكي حتى جهجهة الضوء , أنا وأبي كنا نتصنع النوم ونستمع , وأكثر من مرة رأيت أبي يبكي بصمت على صوت أمي , وكنت أبكي أنا على بكائهما .. هذه هي حكاية هذه الشجرة , إنها رفيقة أبي وأمي ورفيقتي أنا وخالتك حني بعد أن سافر الأولاد كلهم , الصبيان والبنتان .. سافروا لعند عمهما , الذي عاد بعد وفاة أمه وأبيه الذي قتلهما غيابه والآن أنا وخالتك حني .. نقعد تحت هذي الشجرة ننتظر كما انتظر أبي وأمي .. ننتظر الأولاد .. عندما سافر أخي بقيت أنا مع أمي وأبي , أما الآن فأنا وخالتك حني , وحيدان ناطران .. ناطران اثنين .. الأولاد .. وعزرائيل

: الله يطول بعمرك وعمر أم جورج وإن شاء الله سيرجعون وترونهم وترون أولادهم

: والله يا بني ليست الهيئة .. كأن الذي يروح لا يرجع .. وإذا رجع يكون فات الأوان وعدّا

: إن شاء الله يرجعون وبأقرب وقت وتفرح فيهم

: من خمس سنين لم يأتوا .. نسوا .. يا بني .. الشاب .. لا يتذكر أهله حتى يصير كبيراً ويشيخ ..عندها يشتغل الحنين للماضي .. وهو شاب يكون مشغولاً بالمستقبل .. عندما يكبر يجلس ليفلي الماضي , لأن المستقبل بالنسبة له خلص وانتهى .. وهذا ما وقع به أخي .. عندما بدأ يحن ويفلي الماضي , وتذكر أهله .. أمه , أباه .. في هذا الوقت كانا قد ملّا وفلّا .. قتلهما الانتظار .. أظن أن كل الناس هكذا .. طبيعة الإنسان هكذا .. طبيعة الكون , الوجود .. وهكذا الدنيا

: ليس كل الناس يا عم .. هذا أنت لم ترض أن تذهب وتترك أمك وأبوك .. ولم تقبل قلع شجرة التوت لأنها تذكرك بأهلك , لأنها من الماضي ومن المستقبل .. لم ترض أن تسافر , وكنت تستطيع كأخيك

: نعم .. كنت أستطيع .. ولكني لم أستطع أن أترك أبي وأمي .. هذان الاثنان يا بني هما وطنك .. وطنك الحقيقي .. وطنك الصغير , والذي يبيعهما .. يبيع أي شيء .. وكل شيء

: صحيح الذي يبيعهما .. لا يبقى عنده شيء للبيع ولا للشراء , يصبح عارياً .. حتى من ورقة التوت , عند شجرة التوت وقفت سيارة الكميون البيك آب

: كيفك مخايل جاهز ؟

: نعم جاهز

ركب أبو جورج عند السائق وركبت أنا في الصندوق , على طرف سوق كبير وقفت السيارة , فهمت من خلال حديثهم أنه سوق الخضار , اشترى أبو جورج فواكه وخضار امتلأ نصف السيارة , كنت سعيداً وأنا أساعد أبو جورج وفي قمة نشاطي , ولا أدري سبباً لسعادتي بعد خمس مئة متر من سوق الخضار , سوق أخر محلات على الجانبين , سوق المواد المنزلية , المنظفات والسكاكر والخردوات , اشترى منها أبو جورج عدة كراتين , امتلأت السيارة ولم تعد تتسع لشيء , وعدنا .. أنزلت حمولة السيارة تحت شجرة التوت , ثم صرنا نرتب كل شيء بمحله عند الخامسة كنا قد أكملنا عملنا وبمنتهى الجمال .. رتبنا أنا وأبو جورج , ونظفنا كل شيء .. أنا من دفع أبو جورج لذلك لأنني كل غرض يدلني أين أضعه , كنت أمسح مكانه والمواد القديمة أستفها .. الجديد أضعه في الخلف والقديم أضعه في الوجه بعد مسحه , أم جورج كلما نظرت إلي تصلب وتقول (العدرا تحميك يا ولدي) وأنا كنت أوهمها أنني لا أسمعها , عدنا لكراسينا تحت شجرة التوت , وأم جورج بعد دقائق تخرج ومعها طبق , قمت وتناولته ووضعته أمام أبو جورج

: تفضل.. يا بني

: عمي والله أنا أكلت قبل أن آتي

: يا ابني أنا عملت كل هذا كرمى لك .. العدرا تحرسك وتحميك , ونحنا تروقنا والآن صار وقت الغداء .. قالت أم جورج

:(يلا .. يلا .. يا بني) قال أبو جورج

ونحن نأكل سألت أبو جورج
: عمي أبو جورج أريد منك خدمة

: خير يا بني ؟

: أريدك أن تدلني على من يأتون بالرمل والبحص والاسمنت أريد أن أحسن وضع الغرفة , التوتياء السكن تحتها صعب جداً الآن نار وفي الشتاء ستدلف ويكون البرد أضعافاً مضاعفة

: صحيح .. يا بني ولكن هذا العمل ليس هيناً لذلك ابحث عن معلم أولاً

: عمي أبو جورج أنت دلني والباقي عليّ.. أنا أتدبر الأمر

: غداً أسأل ابراهيم الذي كان معنا يمكن يؤمن المواد كلها

: أنا كل يوم عندك .. من اليوم وصاعداً أنت لا تفعل شيئاً .. اترك كل شيء وعندما آتي أفعل أي شيء تريده

: طيب انتظرني دقيقة

دخل الدكان وخرج وهو يحاول وضع يده في جيبي

: (لا ه .. لاه ..) هذي لم أحببها منك.. على أساس أنا ابنك ..هل هناك أب يعطي ابنه أجراً لمساعدته .. الله يسامحك

أم جورج : هذا لا يجوز يا ابني وحرام , أنت ابنا صحيح ولكن هذا حقك

: لا بالله لن آخذ شيئا .. لا الآن ولا في أي يوم .. هذا بيتي وأنت أمي وهذا أبي .. (بخاطركم .. ادعو لي)

: يا ابني أنت تارك أهلك من أجل أن تشتغل بكم ليرة وليس لتشتغل (ببلاش)

: يا عم أبو جورج أولاً أنا أشتغل في الفرن .. أنا أساعدك في وقت الفراغ , أنا اعتبرتك أبي وأم جورج أمي .. دعني أحس أنكما .. أب وأم حقيقيان

حدق بي ملياً ثم دار وجهه عني ودخل الدكان , وأنا غادرت باتجاه النهر حيث رأيت ما يشبه البيت مصنوع من الخشب , وفي ذهني أن أتأكد إن كان مهجوراً أم لا , ضفاف النهر مليئة بالنفايات وخاصة قناني البلاستيك وسطول الدهان الفارغة والتنك , على طرف بستان كان البيت الخشبي , ملقى على جانبه فيه نوافذ ما زالت والكثير من خشبه مهترئ , أيقنت أنه ملقى لعدم الحاجة إليه , فكرت أن أشتري منشاراً وقدوم وكماشة وأزميل ومفك براغي , أفكك بعض أخشابه وأضعها تحت التوتياء وأصب فوقه البيتون وأتركه , راقت لي الفكرة ولكنني قلت أسأل أبو جورج أستشيره إن كان في الأمر أي خطأ لجهة أن يكون لهذه صاحب , تابعت .. عبرت الجسر إلى حيث يقف أبو كامل , لم أجده خفت أن يكون قد أصابه أي مكروه , فكرت أن أذهب إلى بيته , وصرت أفكر .. أعرف الزقاق الذي دخل به وخرج منه ولكنني لا أعرف بالضبط بيته , تراجعت .. ربما يكون في مكان ما .. مشغول ..... قررت أن أذهب إلى الساحة أسلم على أبو أسعد , أشتري لحم بعجين وسفن أب , في منتصف الطريق سمعت صوتاً ينادي

: يا خال .. يا خال ...

التفت ..كان أبو سليمان

: مرحبا

: أهلاً وسهلاً

: زعلان مني أليس كذلك ؟ والله لم يكن قصدي زعلك .. أمك وأبوك كانا غاليين عليّ كثيراً , ولكن الظروف تحكم الإنسان .. أنت تعرف ..أنا ناطور ولا أستطيع التصرف بأملاك غيري .. إن عرف الخواجا يطردني شر طردة

: الله يوفقك .. أنا لست زعلان أبداً.. قصرك وانت حر فيه

: أين سكنت ؟

: الله يتدبر خلقه

: صحيح .. أبق مُرّ .. واذا كان معك خبز أنا أشتريه

: أنا لا أبيع خبزاً .. تكرم عينك .. عندما أمر من ناحيتك سأعطيك الخبزات وبدون أي مقابل

: تفضل .. نشرب الشاي

: شكراً تسلم .. بالأفراح

تركته وأنا أقول في نفسي .. الله لا يبارك فيك , وأنا عندك أكلت أكلاتي وخبزاتي ولم تسقني ماء .. الله لا يكثر من أمثالك

: الله يعطيك العافية عمي أبو أسعد

: أهلاً .. أهلاً

: جئت أسلم عليك .. وأريد واحدة لحم بعجين وسفن

: أهلاً .. تكرم .. تكرم اخبرني ماذا صار معك ؟

: أشتغل بالفرن , ووجدت غرفة عند رأس النبع , سقفها توتياء

: الله يوفقك .. سقف توتياء .. صعب .. أصعب من القعدة بالشمس

: هينة .. بالليل أكون في الفرن وللساعة عشرة .. احد عشرة .. يكون الحر ما زال محمولاً وأكون نمت كم ساعة , بعدها أذهب إلى أي مكان , أنا سألت صاحبة البيت إن كنت أستطيع صب فوق التوتياء باطون قالت نعم وأنا أعطيك التكاليف , ولتلك الأيام يفرجها الله

: ممتاز .. حتى تجد أفضل منها أو تصلحها .. انت شاطر ما بدك تواصي , دير بالك على حالك , ولا تنزل إلى بيروت , أوعى تنزل إلى هناك قبل أن تقول لي .. أوعى تروح مع أي شخص قبل أن تسألني

: عمي ابو أسعد أنا أفهم عليك تماما .. لا تخف علي .. أنا ليس لدي شغل هناك .. عمي أبو أسعد .. أريد أن أشتري قدوم وكماشة ومنشار ومفك , أين أجد ؟

: خير إن شاء الله .. ما حاجتك بها ؟

: أحتاجها في الشغل في الغرفة ويحتاجهم الانسان دائماً

: هنا لن تجد .. ممكن في جل الديب أو في بيروت , أنا عندما أمر من هناك سأشتريها لك .. إن شاء الله لا أنسى

(11)

الفقراء

نزفوا من الأعالي - من القيعان

قبلتهم القمح , وصلاتهم الجوع

نبتَ الألم على شفاههم كالبنفسج

يعبرون حفاة ,

كي لا يوقظوا غانجاتِ عشب الدروب

عسى ما مرّ من ناهدات المزن

ترضع طُفيلات الحقول

فتتسلق الضحكات

على شاهقات الوجعْ

ويذهب المطر ..؟!

يُشعل حطب أرواحهم

ويحفر بفأس دهشتهم

أخاديد الحياة

والدتي الحبيبة

وهذا فجر آخر ينشر قمصانه على حبل عمرنا , ويكتب بحبره الأبيض على صفحات لياليا , وهذا يوم آخر يستيقظ , وبعد قليل يلملم أشياءه للرحيل , خبأت ربطة الخبز بكيس واتجهت جنوبا , نحو العرافة , بحثت في كل الأنحاء لم أجد لها أثراً , كان القليل ممن يشبهونها , فكرت أن أسأل عنها أحدى الشبيهات , ولكن كيف أسأل , لا أعرف اسمها ولا أعرف عنها شيئاً , أتيت اليوم لأعطيها ربطة الخبز , كانت الساحة مليئة بالعمال .. اكتشفت أن ساحة انطلياس , ليست وحدها مركز تجمع للعمال , تحاشيت الاختلاط بهم , غادرت مقرراً العودة عصراً قبل أن أذهب إلى الفرن , فهي قد لا تأتي في هذا التوقيت المبكر , في العاشرة تقريبا أيقظني الحريق .. الحر في الغرفة لا يستطيع أحد تحمله قلت .. أذهب لعند أبو جورج ربما لديه ما أساعده به

: صباح الخير

: اهلاً وسهلاً

رد أبو جورج وأم جورج اللذان كانا كالعادة تحت شجرة التوت , ينتظران .. شيئاً ما , أحداً ما ..

: طمئني كيفك .. كيف الشغل ؟

: الحمد لله عمي أبو جورج تمام .. ماذا عندك اليوم ؟

: لا أفهم عليك

: ماذا سأفعل ..أي شيء أساعدك فيه ؟

: الله يخليك .. ويديم عليك الصحة والعافية .. اليوم لا شيء

: عمي أبو جورج رأيت عند النهر ما يشبه البيت , كأنه لا حاجة لأحد به , أخشابه مهترئة , فيها بعض الأخشاب سليمة , برأيك هو لأحد ما .. هل يغضب صاحبه إن فككته واستفدت من الأخشاب السليمة فيه أريد أن أفككه وأستفيد من أخشابه في الغرفة ..الخشب يقي من الحرارة والبرودة , الغرفة بعد العاشرة لا يمكن البقاء فيها من شدة الحرارة والسبب التوتياء

: يا بني اسأل أقرب بيت عليه .. صاحب البستان الذي هي بقربه

: متى ستذهب إلى بيروت ؟

: لماذا ؟

: أريد قدوم وبانسة ومنشار وإزميل ومسامير

: غداً يكون عندك البحص والرمل والاسمنت .. أمس حكيت مع ابراهيم .. وفهم عليّ .. وعرف ماذا نريد , قال لي عنده صديق معه سيارة بيك أب ويشتغل بالكسارات وهو سيؤمن كل شيء أما عن العدة فهي جاهزة .. تحت في القبو .. فيه كل شيء .. قدوم وبانسة ومنشار ومسامير وكل شيء خذ ما تحتاجه .. اسم الله عليك ما أشطرك

: اي ساعة سيكون عندك

: في هذا الوقت ..

دلني أبو جورج على صندوق العدة وتركني أخذت ما أريده وعدت إليه

: هذا ما أحتاجه الآن , أعيدها قريباً

: على مهلك .. أعدها متى أردت

: شكرا أيها الأب الحنون .. الله يديمك

: والله يا بني أنا أول مرة بحياتي أتعامل مع أحد هكذا .. هناك شيء فيك جعلني أحسّ تجاهك بالحب والاحترام .. أنت آدمي وأنا أحببتك من كل قلبي

: (دعيلي .. دعيلي يا ام جورج)

: مع السلامة .. عندما يمر ابراهيم .. سأخبره أننا ننتظره غداً بالعاشرة

: بحماية العدرا قالت أم جورج

على مقربة من النهر بستان , البيت الخشبي خارج سور البستان .. قرب البستان وجدت رجلاً يقلم أشجاراً سلمت عليه وسألته

: هذا البيت الخشبي لك ؟

: ابتسم وقال لي .. تقصد (الكرفانة)

: لم أفهم ما قال .. نعم أقصد هذه وأشرت له

: أنا عامل ولا أعلم عنها شيء ولكن أوكد لك أنها مكبوبة ولا حاجة لأحد بها .. لماذا تسأل ؟

: أريد أن أفك منها بعض الأخشاب

: فك ما تريد لا حاجة لأحد فيها

بقيت حتى حوالي الرابعة , وأنا افكك هذا البيت المهجور (الكرفانة) ثم عدت إلى غرفتي أخذت ربطة الخبز وذهبت إلى الساحة لأرى البصارة بطريقي إلى الفرن , هذه المرأة التي لا تغيب عن بالي وأحاول أن أجد رابطاً يربطني فيها , في المكان الذي رأيتها فيه كانت تجلس ,

عرفتها من بعيد بالرغم أن ظهرها باتجاهي , عندما اقتربت وصرت بمحازاتها , وقفت حتى تنهي كلامها مع امرأة تشبهها , أصغر منها بسنين , انتبهت تلك المرأة لأن وجهها كان يقابلني تماما , نظرت إليها وأنهت الحديث , انتبهت نحوي وصاحت وهمت بالوقوف

: هلا .. هلا

منعتها عندما قرفصت ومسكت يدها وقبلتها وهي تحاول سحب يدها

: كيفك اليوم – وهي تحتضن وجهي بكلتا راحتيها وتقبلني ؟

: أنا منيح .. منيح .. لا تخافي علي (عمر الشقي بقي) مررت باكراً .. اعتقدت أنني سأراك .. وأسلم

: أرني يديك

: كيسين .. كيسين .. يومان ويصحا تماماً -وفتحتهما أمامها - وفي غفلة مني قبلت راحتي مرة أخرى

: هذا لا يجوز .. أنا فقط من يقبل يديك .. أنت لا .. لا يجوز .. الأم لا يجوز أن تقبل يد اولادها

: لا .. يجوز .. الأم تقبل طفلها حيث تقع عينها

: أنا الآن رجل

: لا .. أنت طفل

: الآن أنا ذاهب إلى الفرن أتيت لك من الصباح بحصتي من الخبز .. أنت أي ساعة تأتين إلى هنا ؟

: ليس لنا وقت محدد , أحيانا آتي باكراً وأحياناً لا آتي .. لماذا يا ولدي

: لأعطيك من حصتي من الخبز .. في الفرن لنا ربطة خبز كل يوم
: لماذا أنا ؟

: لا أعرف .. ما رأيك ألا تسأليني من الآن وصاعداً .. هذه حصتي

باستها ووضعتها على رأسها , ونظرت إلي بعينين يتدفق منهما الحنان كالنهر أثناء فيضه وقالت

: أي ساعة أنت تمر

: أنا أخرج من الفرن في السادسة والنصف أكون هنا بالسابعة

: سأنتظرك

: هذا الصباح .. أقصد غدا ..لا .. بعد الغد انتظريني .. (دعيلي)
: دعني أبوسك

(12)

من شاطئِ الروحِ إلى شغافِ القلبِ

تتمدُّدين

ترتاحين

تستظلين

أشجاري وأنفاسي

هنا الأشواقُ ساجدةٌ

قربَ حمأةِ البُركان ,

وهنا يرْجِعُ العيدُ إلى محرابهِ

إنْ صَدَحتْ ,

مآذنُ العشق ,

أو قُرعتْ للهوى الأجراس

هنا الشَبَابيكُ يفتحها ,

ضَوعُ الحنين ,

على حُقولِ الوجد

هنا يُكتبُ العُمر بحبرِ الدمع

فتزهر الشمسُ

والليل مُتَّصِلٌ

والفجرُ كصفحةِ الصدقِ .. ماسي

هنا تُفْرِغُ الكأس ،

هنا تُترِعُ الكأس ,

هنا الشعرُ .. حانة الخَيّام ,

هنا مَزَجَ صهباءَ الإله ,

خمراً , أبِو النَوَّاسِ

يا قبلة الهوى ...

مُدّي خافقيكِ لنا

هذي أرواحنا سابحةٌ

كالغيم ,

تحمل ورداً

ونَخْيلاً ,

أشرعة للريحِ ..

وتهتف ..

هذي مراكبي ..

ورایاتي ونبراسي

قولي حقيقة الكون ...

قولي .. أنا الماء والطين ,

.. موقد الخلق ،

وناره أنفاسي

قولي .. أنا المحيطُ ،

وعين الحقيقة ,

وهذي المجرّاتُ ..

والأبجديةُ بعض ما نَطَقتْ ..

حروفي ..

والبرقُ كُرّاسي

قولي .. أنا السفائنُ ,

أنا الضفاف ..

أنا المرافئ ..

أنا القناديل ..

والفجر الذي سيشرقُ ,

التاريخ حبري .. و قرطاسي

أنا المناديلْ ..

إنْ فَاحَ سوْسُنها

أنا الشَقائق في النعمى ..

والصُبْح إنْ أورقَ ..

في إشراقِ أغراسي

أنا النيازكُ ..

أنا الملاحمُ ..

والفرسانُ صاعدةٌ ..

إلى الأساطيرِ ,

أنا زفافُ الطيورِ ..

إنْ غنجت ,

أنا رسائل العشاق ـ حميم اشتهائها

أنا قصائد السنابل ..

أنا معلّقةُ الصحراء ..

أنا شَفَة الدّنيا .. إذا ابتسمت

أنا الدم الورديّ .. فاغتسلوا ؛

بدمي , ودمعي , وإحساسي))

والدتي الحبيبة

أنت وأبي وأخوتي لا تغادرون البال , لا ينافسكم في هذا الكون إلا جمانة .. جمانة تشبهك كثيراً اليوم موعدنا , جاء ابراهيم وأدخلت البحص والرمل والاسمنت , وذهبت لأسلم على أبو جورج وأم جورج , فهما صارا بالنسبة لي فرضاً من فروض الوجود , فلا أحسب يومي إن لم أرهما

: مرحبا

: أهلاً وسهلاً.. نزلت الأغراض ؟ سأل أبو جورج

وأردفت أم جورج

: يا بني أنت مفروض تنام لبعد الضهر .. لازم تكون نمت

: يا خالة .. نمت للعاشرة ممتاز .. مريت أسلم وأسألكم إن كان لديكم أي شيء أفعله قبل أن أذهب

: يا بني هكذا ستعدم صحتك .. هذا لا يجوز

: خالتك حني تقول الصح .. لازم تنام منيح وتأكل منيح .. شغل الليل يهد الحيل

: يلا .. بكرا عندما نساوي الغرفة أنام للخامسة .. قربت كم يوم إن شاء الله .. المهم هل هناك ما أشتغله قبل أن أغادر

: سلامتك لا يوجد أي شيء .. بكرا نازل على السوق إن كنت تريد مرافقتي

: أكيد أرافقك في العاشرة أكون عندك

:(دعولي)

: مع السلامة

: العدرا تحميك

غادرت باتجاه الصنوبرة , فوجئت بسيارة جمانة تقف تحت الصنوبرة فتحت الباب وسلمت .. بقيت يدي في يدها وعينيّ في عينيها .. ولوهلة خلص الكلام .. لم أجد ما أقوله

: كأنني تأخرت عليك أنا أسف

: لا أنت لم تتأخر .. باقي للموعد نصف ساعة .. أنا من أتى باكراً

قرأت ما كانت تسأل عنه

: تركتها في الغرفة , مقاسها كبير

: أعرف أنها كبيرة , لا تهتم .. محلولة .. هل وجدت غرفة ؟

: هنا ليست ببعيدة وأشرت لها

: أعرف المنطقة جيداً , تمام .. المهم أنت اليوم سعيد

: بصراحة .. أنت من جعل هذه الحياة .. هذه الدنيا .. جميلة وحلوة .. أنت محوت قبحها وحليت مرارها .. أنت من جعلني أفوز عليها .. لا أعتقد في هذا الكون ما يشبهك ولا يدانيك

: لا تبالغ .. وأنا أيضا أراك كما تراني وأكثر .. أنا بحاجة إليك أكثر مما تتصور .. أنت رجل صغير السن فقط .. وأنا بحاجة إليك جداً .. أنت رجل ظلمه القدر , وربما هناك أناس مظلومون مثلك , ولو كان لديهم بيوت وسيارات ومالٌ , وأفخر المأكل والملبس , صدقني هذا لا يساوي شيئاً – كانت تتحدث وهي تقود السيارة وقد تجاوزت مفرق البيت , لم أسألها , وكأنها قرأت ذلك في

انتباهي على الطريق بين الفينة والأخرى – نحن الآن ذاهبون إلى بيروت نشتري بعض الأغراض ونعود بسرعة ولن نتأخر فأنا مشتاقة إليك أكثر مما تتصور .. هل تعلم قياس خصرك ؟ نمرة رجلك ؟

: خصري لا أعرف , أعتقد أن نمرة رجلي 39 .. قلت ذلك وأنا أنظر إلى حذائي البلاستيك والخجل يكاد يقتلني .. وجمانة تقرؤني كصفحة في كتاب

: لا تخجل .. نحن اتفقنا أن نكون وحدة حال , ما ينقصك عندي وما ينقصني عندك , ولا فضل لأحدنا على الآخر , هذه المرة سنصاب أنا وأنت بالإحراج قليلا , ولكن في المرات القادمة ستكون أميراً متوجاً .. أميري الرائع أنت بالنسبة لي كل شيء في هذا الكون , سأمنحك كل ما أستطيع , لأنك تمنحني أكثر مما تستطيع , أنت تمنحني أقصى ما تحلم به أيّة امرأة في هذا الكون , أنت صرت سعادتي

: أنت من يبالغ .. أنا أنسان بسيط ,بل أكثر من بسيط , ما أراه منك فوق منتهى الحلم , القدر لم يمنحني إياه

: تعال نتفق , أنا وأنت , على أننا متساويان وعلى أن لا نتحدث في هذا الموضوع مرة أخرى , تعال نتصرف على أننا واحد .. واحد

: سأقبل وسأفعل كل ما تقولينه .. ولكنني سأبقى أعرف وأوقن أنه غير ذلك .. وسيبقى إيماني المطلق , بأن هذا الكون مجتمعا لا يعادل أي شيء فيك .. وحدها أمي وأبي وأخوتي يعادلونك .. لأنهم وحدهم في هذا الكون يحبونني لا لشيء .. وأنت مثلهم تحبينني لا لشيء .. وحدك من يملأ روحي وحياتي .. حياة وجمالاً ومعرفة .. لا لشيء .. لأنه لا شيء لدي

: لديك ما يوازي هذا الكون الذي تحدثت عنه , عندك الحب والصدق والجمال وهذا كل ما أريده

ركنت سيارتها وأومأت لي أن انزل , تحاشيت أن أسير بقربها بهندامي البسيط الذي لا يناسب هذه السيدة , لذلك حاولت أن أوحي لمن يرانا أنني مجرد عامل يرافق سيدته , كنت دائما إلى الخلف قليلاً على يمينها أو يسارها

: قولي عني أنني أعمل عندك .. هندامي لا يناسب

: لن أقول شيئاً , ولن يسألني أحدٌ اطمئن , من سندخل عليهم يريدون أن يبيعوا فقط , لا يهم من نحن ولا يريدون أن يعرفوا عنا ولا عن غيرنا , اطمئن .. على كل حال في المرات القادمة ستكون مختلفا .. يا سيدي في المرات القادمة سيعتقدون أنك ولدي

دخلنا في سوق ضخم جداً المحلات فيه متلاصقة وعلى الجانبين والشارع مسقوف , كأنها ذاهبة إلى مكان بعينه , توقفت أمام محل ترددت للوهلة الأولى بالدخول خلفها , لأن المحل كان أنيقا مبهراً جداً , رحب بها أحد الباعة عند الباب وكان في الأربعين من عمره , أنيقاً جداً , علامات الغنى والثراء بادية على محياه , قتلت التردد وتبعتهما , سمعتها تقول له

: تعرف قياس هذا الشاب ؟

: نعم مدام أعرفه ولكن نتأكد

ولف متراً مصنوعا من القماش حول خصري , وقاس كتفي

: أريد من هذا ومن هذا – وأشارت لعدة أنواع وألوان من البناطلين كانت موضوعة بشكل أنيق وأريد من هذا وهذا وأشارت لعدة قمصان – نسق ألوانها .. (ايه)؟

: تكرمي مدام حاضر

اختارت كحلي غامق وبني غامق وساعدت الرجل في اختيار القمصان ,والكنزات , طواها بشكل جيد ووضعها في كيس أنيق , دفعت وغادرت وهو يرحب بها وتبعتها , لم يبد الرجل أي اندهاشاً ولا أي تساؤلاً , مما كنت أتوقعه

, بل كان شديد الترحيب بي أنا كذلك , فاكثر من مرة كان يوجه السؤال لي , وكنت لا أعير أسئلته أي انتباه لدرجة اعتقد أنني أخرس , لأنها كانت تتولى الرد دائما , وليس ببعيد دخلت محلاً آخراً لبيع الأحذية , يماثله أناقة وترتيباً

: حذائين نمرة 39 أو 38 أسود وبني

: لهذا الشاب ؟

: نعم

: اختاري ما يعجبك

: من هذا الموديل ومن هذا

لم أرد هنا كذلك على الأسئلة كنت أخرس تماماً , وقرأت علامات الرضى والاعجاب لديها , فكانت تنظر إلي بين الفينة والأخرى بمنتهى الحب وتبتسم وتغمز , نظرتها هذه كانت تسحب مني الإرباك والخوف والغربة والاستغراب , الذي استطعت إخفاءه , نظرتها المحبة لي كانت ثناءً لي بما أفعله , فجعلتني أتصرف بمنتهى الثقة والعادية , قبل نهاية السوق كان له تفرع ضيق قليلا دخلت فيه , كأنه لبيع الألبسة الداخلية , غادرنا السوق وبيدي ثلاثة أكياس مليئة بالألبسة والخجل والشعور بالدونية , كأنها قرأت ما أحسّ به , فسكتت لم تتكلم أبدا , طريق العودة كان أسرع

, فخلال فترة قصيرة كنا في البيت , عندما فتحت الباب ودخلنا وأغلقت الباب , طوقتني وقالت
: أعرف ما يجول في خاطرك , لذلك لم أكلمك طوال الطريق , ما يجول في خاطرك لا يزيله الكلام .. يزيله الحب .. إياك أن تدعه يدوم .. أنت أفضل وأهم ما في هذا الكون بالنسبة لي .. أنت أعز عندي من كل هذا الكون
: وما أدراك بما كنت أفكر ؟

أنا أقرؤك كما أقرأ صفحة في كتاب .. أريدك أن تعتبر نفسك جزء مني .. حسسني بذلك أرجوك .. ها أنا أترجاك .. نظرتك هذه تقتل فرحتي بك .. تقتل فرحي معك

: سأحاول .. أعدك

ذهبنا متعانقين إلى الحمّام , في المرة الأولى لم أذكر شيئاً مما علّمتني , ابتسمت وقالت
: وأنا مشتاقة إليك

طوقتني وأغرقت فمي بقبلها , هذه المرة تذكرت كل ارشاداتها , واكتشفت أن المتعة بتقبيلها ومداعبتها تفوق لحظة القذف بكثير , وأنا أداعبها وأمتصّها من أصابع قدميها حتى ثغرها , كانت آهاتها وأنينها يفوق كل متع الكون .. ويوقظ كل أحاسيس النشوة والجمال في النفس , فتطير الروح كالفراشة , لا يضاهي نداءها - لج - أي نداء

آخر , عدنا مرة أخرى وتحممنا بالماء والقبل.. ومرة أخرى هممت .. طوقتني وقالت
: كفى هذه المرة .. لا أريد أن أؤذيك , إن حدث لك شيء أمت

أحضرت لي الملابس الجديدة , لم تدعني أقوم بأي شيء
: لا تفعل شيئا أنا سأجهزك .. عريساً

ألبستني كل شيء , ابتعدت عني قليلاً , وأقبلت وطوقتني مرة أخرى وأخذتني أمام المرآة

: ما رأيك .. أميري الجميل الأنيق الرائع ؟ لا أريدك أن تخرج إلا هكذا , كل ما لديك اتركه للعمل

: ليس لدي ما أقوله .. أنت أكبر وأجمل من أي كلام .. أنت لم يخلق لك الله مثيلاً , ومسكت يديها وقبلتهما سحبتهما بسرعة

: طوقني وقبلني دائماً , هكذا أحب

مائدتها كانت جاهزة .. أعرف القليل القليل مما وضع عليها , في كأس جميل وضعت مكعبات ثلج وسكبت من زجاجة جميلة وأنيقة

: جرب هذه لذيذة وليست مضرة أبداً

تذوقتها .. ثم رشفت ..

: لذيذة

: هذه وسكي

صارت تطعمني بيدها

: لا تخجل .. هذا يحقق لي متعة

في الحقيقة أكثر الذي كانت تقصه بالسكين والشوكة وتطعمني منه لا أعرفه .. صرت أتعرف عليه وطريقة الأكل , لم أكمل الكأس اللذيذ المثلج حتى أحسست أن ناراً صارت تخرج من كل مسامي وبنشوة لذيذة تجتاحني ورغبة جارفة لمعانقتها , طوقتها .. ثم عدت بها بدون أي كلام إلى السرير , وغبنا مرة أخرى

: شكراً أيها الرائع .. تأخرت أليس كذلك

: أنا .. أم أنت

: نحن الاثنين .. إن بقينا هنا لن نكنّ

أوصلتني أمام غرفتي ودعتني بنظرة

: نلتقي الخميس بنفس الموعد إلى اللقاء

(دير بالك ع حالك ايه)

أخذت الأكياس وأنا أنظر يميني ويساري وكل ظني أن كل الناس ينظرون لثيابي وهندامي الجديد .. هذا الشعور زال عند الغروب , وأنا أسير في طريقي إلى الفرن , أيقنت أنه لا جديد على الناس , كل ذاهب في طريقه وإلى مبتغاه

(13)

منذ ...

انعدمت المسافات بيننا

منذ ...

التهب الدّجى

وانتشى عبير الياسمين

منذ ...

أغدقت عثرات الخافق

برحيق الحياة

وابتهج الأمل

وعرّش الشوق

على أهداب العين

منذ ...

زرعتني في العروق

وأقمت في البال

كالحور على ضفاف القلب

ألوذ ظلالك

حين يلتهب الأنين

منذ ...

أسررت للنور سر الحياة 0

ووشوشت

للخمرة سر الخلود

ونشوة الحنين

يا ابنة الألم والأمل

عندما نمضي ..

ويسكت هذا الفؤاد

سأحزن

وفقط

لأنه ..

لم يعد يستطيع

مداعبة طيفك

الضنين

يا وليفة الصبر ..

من يستطيع

أن يفي حنيننا و حرقتنا

وأنت ترحلين

يا وليفة القهر ..

محالة أنت

محالة أمومتك

محالة أبوتك

محالة أيامك

محالة لياليك

محال الحنان

فيك والحنين

كالصبار ..

تلوكين الماء

وتنشرين

على سياج العمر

شراشف الحياة

تنثرين أجنة الحبق

على ضفاف الجفاف

فتعشق المزن

الحوار الحميم

فيعجّ الكون

بالحداء

وتقف باشتهاء

وتنتشي

السنين

يا جبل الكرامة

يا عاشقة وعشيقة الأرض

الحزن ترتيلة

الفقراء

في معبد الأمل

يكتبونه ..

على فساتين الأيام

قصائد تؤرخ ..

ألم الجوع

ووجع القهر

ونزف الرّوح

وعطش المهج

ورائحة الخبز

المعجون بالدّم

والدّموع

وغصة

الأنين

يا قصائد..

الألم ..

والوجع ..

والضنى ..

والحرمان ..

والصمت ..

والأمل والحياة

اليوم

وأنت تنأين ..

تكتبين ..

آخر نبضات القلب

آخر حروف الألم

آخر خطوط الحياة

وبيدين ..

أنهكهما ..

التلويح ..

تلوحين

والدتي الحبيبة ..

في السابعة كنت في الساحة , على جذع النخلة كانت العرافة تسند ظهرها تراقب الطريق القادم من جهة الغرب , عندما ظهرت لها , كانت الشمس مازالت لم تكنس بعد

كل بقايا الظل عن الأماكن , مشت باتجاهي بقامتها المديدة وثيابها الفضفاضة وخصرها الناحل الذي يطوقه زنار مزركش من القماش ومنديلها الملون الشفاف , الذي ينسدل مع شعرها كعاشقين متعانقين

: صباح الخير أيتها الأم الحنونة

وهي تغمر رأسي

: صباح النور يا ولدي

: اليوم أنا لست بحاجة للخبز خذي الربطة كلها

: تعال معي وبعد ذلك نتكلم في مسألة الخبز

: إلى أين ؟

: إلى بيتي .. إلى حيث أسكن

: اليوم لا أستطيع .. في الأيام القادمة

: لا .. اليوم ستذهب .. بيتي ليس بعيداً من هنا .. لا تخف يا ولدي .. أنت ولدي .. أنت ولدي الذي لم يخرج من رحمي .. أنت ولدي الذي دخل إليه , وسكن روحي .. لا تخف

: إياك أن تفكري هكذا .. أنا أشك بنفسي ولا أشك بك لحظة , أنت الأم الحنون التي أحبها ولا أفرط بها .. ولا تسأليني لماذا ولا كيف .. لا إجابات لدي

: وأنت لا تسألني والله العظيم و أنا .. لا إجابات لدي .. إذا تعال معي أعرفك على بيتي , لن أؤخرك كثيراً , تعود إليه متى تشاء , هو بيت أمك .. تقبلني أمك

: أقبلك .. أقبلك وجدا .. سأذهب معك حيث تشائين

ذهبنا صعوداً , بعد الشارع الرئيسي صارت الشوارع تضيق وصرنا نصعد بين شارع وشارع موازٍ , أدراجاً كدروب القرى تقريباً الفرق , هنا أن الأدراج مبنية بالحجر والاسمنت وبشكل أنيق , مداخل البيوت على جانب الأدراج , الحبق والجوري والأزهار المختلفة تملأ المصاطب والأبواب يقرعها الصباح ويزفها عبقه , بعض الناس كانوا يجلسون أمام بيوتهم وعلى الشرفات وفوق المصاطب , يشربون القهوة بصمت , كأن الصباح هنا دائما يرافقه الصمت والهدوء والتأمل , وحدها العصافير تملأ الأفق بتغريدها المختلف .. سيمفونية الصباح , بعد شارع صعدنا درجاً طويلاً جداً بنهايته ساحة صغيرة تتفرع منها أزقة ضيقة وبيوت مبنية من الخشب والتنك والتوتياء , الأولاد الصغار يتصايحون بلغة غير مفهومة ويتراكضون على الأدراج نزولاً وصعوداً, كنت ملفتاً

بعض الشيء , فكل شيء يدل على أني غريب بعض الرجال والنسوة المتهدجون فوق الأدراج , كانوا يرمقونني بنظرة خفية , باب من الخشب والتنك وجنزير وجوزة قفل أخرجت من عبها مفتاحاً معلقاً بأحد السناسل المعلقة في رقبتها , فتحت ودخلت في النصف الأول من العتبة وقالت

: تفضل يا ولدي .. تفضل

دخلت ..نزعت من معصميها الأساور وعن رأسها المنديل .. الداخل لا يدل على الخارج أبداً .. غرفة كبيرة فيها تخت وخزانة وطاولة وصوفا (ديوانية أو دشك) وأربع كراسي صغيرة , في الجانب الأيسر باب آخر لغرفة ثانية هي الحمام والمطبخ .. جدران الغرفة اسمنت والسقف اسمنت ومطلي .. الأساس نظيف جداً ومرتب جداً

: هذا بيتي الصغير يا ولدي .. تفضل .. – وأجلستني على الصوفا , وأتت بكرسي صغير وضعته أمامي تماماً وجلست عليه , ركبتاي ملاصقة لركبتيها وحدقت في عينيّ – : اسمعني يا ولدي أنا حضرت ترويقة ثواني واحضرها ونتكلم عن كل شيء .. كل شيء .. أتت بطاولة صغيرة وضعتها أمامي ودخلت المطبخ وأتت فوراً بطبق فيه زيتون ولبنة وحلاوة وبيض – وقالت

: ثواني احضر الشاي

بعد دقائق أحضرت ابريق الشاي وجلست على الكرسي بجانبي , ملأت الكأسين شاي

: تفضل ..

بدأنا نأكل كانت لقمة شهية ربما لبساطتها وجدتها كذلك .. ربما لأنني أحب هذه المرأة وربما حنانها الذي ملأني دفئا وطمأنينة رغم احساسي بغربة الوسط الذي أنا فيه .. عيناها الخضراوان كعشب البراري الغض ووجهها الحنطي الذي بدأت تغزوه بعض خطوط الأيام , وشفتاها البنيتان المكتظتان كحبتي تمر , أقراطها , السناسل الكثيرة المعلقة في رقبتها الطويلة الموشومة تحت الأذن , وجديلتان يختلط فيهما الحناء بالشيب تنحدران حتى الخصر

: يا بني أنا اسمي سحاب .. أمك الثانية سحاب .. أنا لا أولاد لي .. كنت متزوجة من غجري لم أنجب له أولاداً , تركني وتزوج غيري ورحل يقال إلى هنغاريا أو رومانيا , كنا يومها في السويدية هل تسمع بها

: نعم أسمع بها ؟

: بقيت مع والدي ووالدتي , لم يكن لهم أولاد غيري تركنا اللواء يوم ضموه إلى تركيا , حاولنا البقاء لأننا كنا مستقرين .. كان عند أبي دكان يصنع به الأسنان أقصد يصلح الأسنان ويلّبس الأسنان ذهباً , وكان لنا بيتٌ جميلٌ في السويدية طردونا منه , نحن والكثيرون من السوريين والأرمن والأشوريين , غادرنا عبر الجبال دليلنا البحر حتى وصلنا اللاذقية , بقينا هناك عدة سنين , أتينا إلى هنا , مات أبي وأمي هنا بعد وصولنا بسنتين من القهر والغبن , بقيت وحيدة , عملت في البيوت خادمة , تعرضت لكل ما يتصوره العقل وما لا يستطيع عقل تخيله من الذل والمهانة والتعذيب , وتعرضت – ووقفت برهة ولم تكمل – ثم تابعت في منحى آخر تماما .. أغلب من في هذا الحي التعيس يعرفون بعضهم ويعرفون أجداد أجداد أجداهم .. إلا أنا مازالوا يخمنون , بعضهم يقول سحاب ليست غجرية .. هي عشير الغجر .. تعرف لغتنا وتعرف عاداتنا ولكنها ليست غجرية .. تزوجني غجري منهم حاول أن يدفعني للعمل في البغاء , أخبرت والدي فطرده شر طردة ومن يومها لم يقترب مني أحد منهم أطلت عليك كثيراً .. أليس كذلك ؟

: لا لم تطيلي .. أنا أستمع بشغف .. أنا سعيد بك وبتبنيك لي .. أنا سعيد أنك أمي – نظرت إليّ بحزن شديد وطوقت وجهي براحتيها وقبلت عيني -

: وأنا سعيدة .. كل عمري لم أشعر بما أشعر به الآن .. مرّ عليّ أمم وظروف وأهوال , قابلت الحسن والرديء , أحببت وكرهت .. ولكن ما أحس به تجاهك مختلف .. كأنك ربيت في رحمي وخرجتَ وضيّعتك , والآن وجدتك .. ربما .. ألا يحدث ؟!

: هو ما حدث .. هذا ما حدث بدقة .. أنا خرجت من رحمك وتهت , والآن قد عدت , هذا ما أحسّ به من أول يوم رأيتك فيه , تعاملي معي أنني ولدك الوفي , أنسي أي شيء آخر

: سأفعل .. كُلْ .. لم تأكل شيئاً

: بلى أكلت وشبعت ولم أكل من يوم أتيت أكثر مما أكلت الآن وسعيد بما أكلت

: تشرب قهوة .. سأغلي لك ولي قهوة

لم تنتظر أن أجيب .. هي لا تعرف أنني لم أشرب القهوة في حياتي , تركتها تفعل ما تشاء , صار النعاس يدب في كل أوصالي , اسندت رأسي على مسند الصوفا ريثما تغلي القهوة و أتذوقها وأعرف طعمها

: كم الساعة ؟

: العاشرة والنصف .. عدت من المطبخ وجدتك قد غفوت مددتك قليلاً وذهبت أتيت ببعض الأغراض وعدت .. مازلتَ نعساناً .. نم يا ولدي نم وأنا سأفعل شيئاً للغداء

: يكفي سأذهب الآن لدي بعض الأشغال

: متى ستعود ؟

: لا أدري .. حفظت المكان جيداً , إن لم أجدك في الساحة سآتي إلى هنا

: هذا مفتاح البيت – وأخرجت مفتاحا كأنها أحضرته قبل أن استيقظ – إن لم تجدني افتح وادخل وانتظرني

: لا لن آخذه الآن .. الآن .. ريثما يتعود الناس هنا على أنني ولدك , بعدها لكل حادث حديث

: يا ولدي .. انس الناس .. كن معي وانس الكون

: يا أمي ما دمنا نعيش في هذا الكون فيجب ألا ننسى ذلك .. وما دمنا نعيش وسط هؤلاء الناس يجب ألا ننسى أنهم موجودون , نفي وجودهم .. نفي للحقيقة .. دعينا نعيش بمنتهى العقل والمنطق , سيتعلمون أنك أمي ولن يطول ذلك ولو اضطرنا الأمر لتغيير المكان والزمان

: لا تتأخر عليّ

: لن أفعل .. ولا أقدر .. ادعي لي – مسكت يدها وانحنيت لأقبلها سحبتها وطوقتني وأخذت تقبلني كالمجنونة وكيفا يقع فمها – قبلتها على خديها وعلى عينيها وعلى رأسها وضممتها وانصرفت , عند الباب كانت تنادني

: لا تتأخر يا ولدي

: حاضر يا أمي لن أتأخر .. حاضر

سعدت بندائها جداً ورفعت صوتي متقصداً لأن المارة في الطريق كانوا كثر وكلهم من سكان حي أمي سحاب .. سحاب ما هذا الاسم .. سأسألها إن كان اسمها الحقيقي , أمي سحاب لم تسألني شيئاً , لم تسألني عن أهلي , عن بلدي , عن أي شيء .. نمت .. سرقني سلطان النوم , أعفاني من أسئلة أمي سحاب .. ربما الأيام قادمة سنسأل كثيراً ونجيب

(14)

ذنبي أنك سيدة خطيئتي

ذنبي أنني لا أريد المغفرة

حبك خطيئتي الطاهرة

ذنبي أنني أحب الطهارة

والدتي الحبيبة

كأن القدر مدّ لي يده , كل الأمور تتحسن , الغرفة تكاد تنتهي عملت فيها ما لا يتوقعه أحد , صارت بيتا من خشب من الداخل والخارج , كل أخشاب الكرفانة وبيت الخواجا فريد , زارني العم أبو جورج لكثرة ما حكيت له عما أفعل , عندما رأى ضمني وقال

: أنت ولد شاطر .. شاطر جداً وفنان

أبو جورج كل يوم أذهب إليه بعد أن استيقظ مباشرة .. أنظف له أمام المحل وأذهب معه إن كان يريد أن يأتي بأغراض , السيدة أم جورج التي ينادونها كلهم حني وينادون أبو جورج مخايل .. الناس هنا ينادون بعضهم بأسمائهم ولا يكنونهم , أبو جورج قال لي

: أنت تعودنا عادة لسنا معتادين عليها .. نادنا بأسمائنا كما بقية الناس

: قلت له لا أستطيع .. أخجل .. أنتم في هذا السن , من المعيب عليّ أن أناديكم بأسمائكم

: يا بني الناس هنا هكذا .. لو قلت مليون سنة أبو جورج , لن يفعلوها هم , أصلا ولا يعرفون من هو أبو جورج إن لم تقل مخايل

: لينادي الناس كما يريدون وأنا أناديكم كما يجب

أم جورج عجوز .. بل من جعلها عجوز غياب أولادها جميعا .. ولكنها كلما أتيت لأقوم ببعض الأشياء , تكون قد أحضرت الترويقة , هكذا يسمون طعام الصباح , جعلتهم ينسون أنني أساعدهم , ولم يعد أبو جورج يعرض عليّ المال , آخر مرة قلت له

: انس أنني أعمل شيئاً .. قل أنت وخالتي أم جورج .. هذا ولدنا .. يفعل ما يجب أن يفعله ولد مع والديه .. يومها لفتني الخالة أم جورج وقالت

: والله الحق معك و خلص يا مخايل لا تعرض عليه شيئاً بعد الآن (هاد ابنّا)

: طيب .. خلص .. خلص انس الموضوع الحق معك

مررت على الخواجا فريد الذي أتى وأنا أفك خشب (الكرفانة) وسألني عن حاجتي بهذه الأخشاب التي أفككها وسألته معتذراً إن كانت تخصه وإن كان بحاجة لها قال

: هي كانت لي ومن سنين أخرجناها خارج البستان لعدم صلاحيتها .. سقفها اهترأ وبنينا بدلا عنها غرفتين كان يستخدمهما الحارس , هل ترى ذاك البيت هو بيتنا القديم قبل أن نبني هذه الفيلا .. فيه كثيراً من الأخشاب مر عليه وخذ منه ما تريد .. أنا رأيتك وأتيت من أجل شيء آخر

: امرني خواجا

: أنا فريد مطانيوس

: أهلاً وسهلاً خواجا

هذا البستان الصغير فيه ليمون ودراق وأجاص يعني مشكل , الذي كان يشتغل فيه راح من فترة إلى بلده أريد أن تعشبه وتنكشه على مهلك ما رأيك ؟

: على رأسي وعلى عيني , خواجا كل يوم شجرة شجرتين وعلى مهلي ولا أريد شيئاً

: لا .. أنا لا أقبل أن تشتغل (ببلاش) تكرم عينك الذي تطلبه سأعطيك إياه .. تعال معي وتعرف عليه

هو محازي للنهر تماما فوق الكرفانة

: من هنا لآخر هذه الجلول وهذه غرفة العدّة , وهذا البيت القديم كل الذي فيه نحن لسنا بحاجة له , خذ كل الذي

تريده , الباب مفتوح , الأغراض التي فيه لسنا بحاجة لها , خذ الذي يعجبك

عندما عدنا من السوق سألت سائق البيك آب

: عندي كمية من الأخشاب عند النهر أريد نقلهم وأريد مساعدتك والذي تريده تكرم عينك

: تكرم عينك نحن بأمر مخايل وأقربائه .. لهجتك ليست لبنانية ألست من أقرباء مخايل ؟

سبقني أبو جورج بالرد

: نعم .. ناجي من أقربائنا من الجبل أهل المنطقة هناك هذه لهجتهم

عندما غادر قال لي أبو جورج

: يا ولدي انت الآن مثل أولاد الخواجات بأناقتك وهندامك .. حاول تحكي مثلنا .. السوريون بعد كم يوم من وجودهم لا تستطيع تمييزهم ويحكون أفضل منا.. بالمناسبة يابني بيني وبينك ثيابك جميلة كثيراً وشكلها غالية الثمن

: أقول لك سر ؟

: (سرك في بير)

: أعطتني هذه الثياب سيّدة اشتغلت عندها عصريتين ورفضت الاجرة لأن العمل كان بسيطاً وكانت رائعة فلم تقبل وأعطتني اجرة أكثر من يومين واعطتني حقيبة مليئة بالثياب وقالت لي هذه الثياب لابني .. سافر ولم نعد بحاجة لها.. خذهم .. وادع له بالتوفيق , بعض الشباب سألوني قلت لهم اشتريتهم .. لم يصدقوني .. خفت قول الحقيقة .. أصير بنظرهم شحاداً , وأنا أكره الشحادة , وممكن أن يحكوا في الضيعة .. فيزعل أبي وأمي .. لأنهم علموني ألا أخذ شيئاً إلا بتعبي .. لذلك قلت للشباب أنني اشتريتهم .. هذا عيبٌ عم أبو جورج ؟ قصدي أكون كذاباً ؟

: لا .. يا بني أنت لست مجبراً إخبار الناس بكل شيء عن حياتك .. وأنت ما سرقت ولا شحدت , أنت اشتغلت وهي أحبت أن تكرمك وأعطتك عن طيب خاطر ,وليس لأحد أي شيء عندك .. ولو كان كل ما حكيته ليس صحيحاً لا يعد كذباً , مادام يخصك وحدك , لا علاقة لأحد فيه , وأنت لم تسرق ولم تأخذ شيئاً من أحد غصباً , ولست مجبراً لقول الحقيقة بشيء يخصك وحدك , لا لي , ولا لغيري . وأنا أروي له حكاية الثياب , كان العرق يتصبب مني , وكانت عيناي باتجاه آخر كي لا تلتقي بعينيه , قرأ ذلك ولكن بشكل آخر حين تابع

: لا داعي يا ولدي للخجل , أنت لم تفعل شيئاً مخجلاً وأنا صرت أعرفك جيداً , فأنت عفيف النفس وأمين

وتذكرت كلمات خليل .. الخبير العظيم ! بعد أن رويت لهم أنني رأيت رجلاً في أول جل الديب يبيعها , ومنه اشتريتها كانت في صرة , فيها أحذية وقمصاناً وبناطليناً واشتريتها كلها دفعة واحدة لأنني رأيت ثمنها زهيداً , واخبرتهم أن الرجل يبيعها لأن الثياب صغيرة عليه وهو أخذها من أحد الستات قال خليل

: هذه الثياب (بعمرهن ما ملبوسين أبداً وغاليين كتير) رده كان معناه (روايتك لا تصدق)

رديت يومها بمنتهى الهدوء

: سيد خليل بعد مجيئي تعلمت فنون السرقة وهذا برهان .. سأدعوك في المرة القادمة لتذهب معي ما رأيك؟

: يا أخي ناجي .. أنا لم أقل ذلك .. أنت شاب آدمي ونعرفك جيداً .. حاشاك من كل عيب , أنا قصدت أن حظك طيب

: الله يبارك فيك .. صحيح حظي طيب .. وجداً
: يا أخي ناجي والله لا أعرف ماذا أقول لك (جيت لكحلها عميتها) أخي سامحنا

: لا .. لا .. ليس بهذا المقدار الله يسامح الجميع

أنا أثق أنهم كلهم لم يصدقوني وبقوا محتارين , ويبحثون عن تعليل , وأنا واثق لن يهتدوا إليه , لأنني أنا نفسي أحسّ أنه حلم وأخاف أن ينتهي , جوزيف (يوسف) رفيق الروح استغرب ووشوشني
: أنا أثق أن وراء هذه الثياب سر ولا أريدُ أن أعرفه , ولستَ مضطراً للبوح به .. هذه الثياب لا يلبسها إلا أولاد الخواجات (الله يجعلن ملبوس الهنا , أنت باين فيهن ابن أمير .. والله وأنت كذلك) ولذلك أنا اعذرهم لأنهم لم يصدقوا , تركتهم لينسجوا قصصاً على هواهم . ولكنني بقيت على ما قلته لم أغير حرفا وليفكروا على كيف كيفهم فالأمر لا يخص أحداً غيري كما قال أبو جورج وجوزيف

(15)

يا امرأة تزرع / فيَّ / الورد

متورط أنا بالحياة لأجلك

لا داعي للنصائح

لا لزوم لي دونك

والدتي الحبيبة

وهذا يوم آخر يبصم فوق جبيني مكان وتاريخ ميلاده , وها أنا أبصم له , أنني رأيت وسمعت ولمست , كل يوم أذهب إلى بستان الخواجا فريد أنكش وأعشب شجرتين , أدللهما كأنهما ملكي الشخصي .. يا أمي العمل بمتعة وبدون رقيب , يكون غاية في الجمال والدقة .. الخواجا فريد لا يأتي إلا ليسلم عليّ , وكلما أتى أرى في عينيه ووجهه الرضى ويعبر (أنت ذواق وأدمي) ويغادر , الرجل قال لي اعتبر نفسك تعمل في بستانك وهذا البيت القديم خذ منه أي شيء تحتاجه , في هذا البيت العتيق غرف ما زالت سليمة وأغراضها كما هي , في أحد الغرف خزانة درفتين أعتقد عمرها مئة عام وتختين وفي غرفة ثانية كنبايات بمنتهى الجمال يأكلهم الهجر رويداً رويداً فكرت أن أسأله عن الأشياء التي لا تلزمه . في الفرن .. الأمور جيدة جداً , الشباب كلهم طيبون , جوزيف قال لي هم ليسوا كذلك ولكن أنت من أجبرهم على أن يكونوا معك هكذا , أعتقد أن جوزيف لشدة حبه

لي لا يرى بي إلا كل جميل وطيب , أظهر الحب للجميع , أفعل أي شيء يطلب مني دون تردد ودون أسئلة , ولا أتدخل في أي حديث يخصهم , وكنت أذكر نفسي دائماً , بألا أتحدث وأن أقلل من الحديث ما أمكن , عملا بوصية والدي (يا ولدي اللي بيحكي كتير بيغلط كتير .. خليك مستمع , ولا تجيب عن سؤال لم يسألك عنه أحداً)
جوزيف رفيق الروح والقلب , الوحيد الذي أسأله وأطلب منه النصح أمس قال لي
: أنت لا تحتاج لأحد .. لا أنا ولا غيري .. أنت أعقل منا جميعاً

كل يوم ونحن نخرج لتغيير ملابسنا استشيره وفي الطريق التي كنت أرافقه فيها حتى الجسر .. كنا نتحدث وأقص له حكايتي مع الغرفة ومتعتي بالعمل بها وكان يرد
: شوقتني لأزورك وأرى ما تفعل .. أنا الآن مشغولٌ .. أنام كم ساعة وأذهب إلى بستان أخذته (مقطوع) عندما أنهيه سأزورك

يوم الخميس لم يأت كما المرات السابقة , أحسست أنه طوّل كثيراً , اشتقت لجمانة كثيراً , كنت وأنا أرّكب الخشب في الغرفة , كنت أجلس على حافة الحيط وأشرد .. أذهب إليها .. استحضرها .. شفتيها .. نهديها .. أنينها ..كنت أستغرق وأصحو فجأة وأنا أكاد أهوي من فوق ..

جمانة جعلتني أحلم , وكلما التقينا تجعله حقيقة .. جمانة خلقتني من جديد .. كنت شبه كائن فخلقت منه إنساناً كاملاً .. غسلت وجهه من بقايا الليل , وهرّت عنه غبار الموت , وأطلقته طائراً بضعاً من الوقت يغرد

(16)

جثتي ...

فوق كل هذي الدروب مرت

شحطتها حيناً وشحطتني أحياناً

ارتاح فوقها حين يستبد بي التعب

وكانت لي .. دائماً حمالة الحطب

أنا .. ما شاء الله !!!

أحد شحاذي

أو متسكعي

أو سكيري

هذي العناوين

هذي الأماكن

قُتلتُ فيها

صُلبتُ فيها

من جرحٍ إلى جرح أمضي

ما تخثر دمي في محطة

ولا في زقاق

وما زلت حياً !!!

أمارس هواياتي في الزفير والشهيق

والأنين

وأحياناً على نفسي

أنافق

أحياناً أمارس الشجاعة !؟

أجثو على ركبتيَّ

وأنهال على الأرض صفعاً

وأحياناً بيني وبين نفسي

أشكو وأبكي !

وأضعُ خطاً أحمرَ على الورق !

وأحياناً ...

اقتحم حظر التجوال

وفي حالك الظلام أمشي !!

أصادف دمي المسفوك أحياناً

وأغلب الأحيان

أجد البعوض أو القراد أو الكلاب

تلعقه

وأحياناً يتلوث حذائي به !

فأدعو له بطول المشيمة

وطول العنق وطول الخنّاق

ما زلت أحياناً !!!

أعتقد ...!!!؟

سيأتي يوم

آخذ وردةً حمراءَ

وأضعها على ضريح الحب

وأذهب بكامل حريتي !!!

إلى عاشقين صلبا متعانقين

في شارع العدالة !!

أنزلهما

أبلغهما ...

أن الله عاشق لخلقه

ويعلن براءته من هذا الوثاق

من هنا مرَّ الجميع

وها هي جثتي , جثة أمي وأبي

وجثث حبيباتي

شركاء الدروب

المنتظرون عودتنا مظفرين !!

القاتل والقتيل !!

الكريم والآفاق

والدتي الحبيبة
الغرفة صارت جاهزة ثبّت الخشب على سقفها جيداً وبشكل مائل قليلاً وفرشتها كما اقترح عليّ جوزيف بشبكة شريط شائك ووضعت فوقه البيتون وأعدت التوتياء وثبّتها جيداً فوق البيتون , فصارت معزولة بشكل جيد , كانت صاحبة البيت من بداية العمل تراقبني وأحيانا أرى

زوجها بجانبها , لم يتدخلا أبداً ولم يسألاني أبداً ماذا أفعل , اليوم وأنا عائد من عند أبو كامل , على ناصية ساحة جل الديب محل لبيع الزهور والورد , في واجهته رأيت تحفة رائعة , استوقفتني طويلاً , هي عبارة عن بحرة صغيرة جداً بحجم ربع متر على شكل نجمة يتصبب الماء من عمودها , سحرتني حاولت أن أفهم من أين تأتي بالماء وهي معزولة عما حولها في أحدى زواياها تمثالا صغيرا للسيدة العذراء , قررت أن أدخل وأسأل صاحب المحل , وكان شاباً أنيقاً , الابتسامة لا تفارق وجهه .. رحب بي جداً , ظاناً أنني أريد أن أشتري ورداً , تفاجأ عندما سألته عن البحرة

: هذه البحرة للبيع ؟

: لا .. هي للمحل

: أين أجد مثلها ؟

: في الحقيقة لا علم لي أنا هنا عامل ولست صاحب المحل , بالإمكان أن أسأل لك صاحب المحل مر في وقت آخر

: كيف تعمل .. ما مبدأ عملها ؟

: نملأ الحوض ماء .. في داخلها محرك صغير يسحب الماء من الحوض ويضخه في العمود .. عمود البحرة وهكذا

: انها جميلة جداً .. شكراً لتكرمك

: أهلاً وسهلاً

طوال الطريق وأنا أفكر كيف أصنع مثلها أمام غرفتي , وعدلت أمام دكان أبو جورج تحت شجرة التوت , هنا المنظر أبدع وأجمل وسيراها الناس وستبان للطريق العام , إنها ممتعة , عندما وصلت وجدت أبو جورج وأم جورج أمام الدكان , يضع كأساً من العرق وبعض المازا

: أهلاً وسهلاً .. أين كنت ؟ تأخرت اليوم علينا .. ما رأيك أن تتعلم شرب الكاس كي لا أبقى وحيداً ؟ أنت معنا دائماً , فكن مع الكأس , هي كريمة ونبيلة وتريحك من عقلك ومصائبه ؟

: كنت عند أبي كامل من فترة لم أمر عليه هو يسلم عليكم

: ألن يأتي اشتقنا إليه ؟

: بصراحة قال لي نفس الكلام وقريباً سيمرّ .. قال ممكن غداً .. ما رأيك بمناسبة الكاس الآن أتيت من ساحة جل الديب هناك محل لبيع الزهور في واجهته نافورة ماء

صغيرة بحجم هذا الصندوق يتدفق الماء في داخلها بمنتهى الروعة والجمال .. ما رأيك أن نصنع واحدة هنا مثلها أقصد بحجم كبير وتجلس طوال النهار حولها والماء يتدفق ويصير طعم آخر للكأس

نظر إلي باندهاش وتحديق وبابتسامته الساحرة وسأل

: وهل تستطيع ؟

: طوال الطريق وأنا أفكر بها واهتديت لمجموعة كبيرة من الحلول , وسألت الشاب عن مبدأ دخول الماء وخروجها ودلني .. تملأ البحرة ماء ومحرك صغير يسحب الماء ويعيده إلى العمود الذي يعيده إلى البحرة .. المشكلة المحرك من أين نأتي بالمحرك الذي يسحب الماء

: هذا ابسط شيء .. اشتري لك مضخة ماء صغيرة كالتي توضع على الآبار

قمت ورسمت دائرة بيني وبينه وقلت له

: على هذا الشكل يكون الحجم وسآتي بعدة تنكات فارغة تكون كقالب ونملأها بالبيتون فهي أمتن من البلوك كي تتحمل ضغط الماء وفي الداخل ندهنها بالأزرق والعمود في الداخل نستخدم بوري المدفأة كقالب وأخذت أشرح له وأسهب

: أنت شيطان فائق الذكاء

: أهذا مديح عمي أبو جورج ؟

: نعم مديح .. الشيطان أذكى ما خلق الله , فهو يعتمد عليه بسوق الناس إلى جهنم

: شكراً ..ياعمي أبو جورج

: أنت الوحيد في هذا الكون يناديني أبو جورج .. كلهم ينادوني مخايل .. أنا أحب أسمي كثيراً , ولكنني أحب اللقب أكثر .. أنت من جعلني أحبه على الأقل يجعل جورج دائماً موجود

: يجب أن يغير الناس هذه العادة .. يجب أن يتعودوا أن يكنوك .. سأعلمهم ذلك

: أنا لاحظت ذلك .. عندما يسألك .. أين مخايل .. ترد عليه .. تقصد أبو جورج وتناديني أمامه .. أنت ولدنا الذي لم ننجبه .. والله دائماً .. أنا وخالتك حني عندما نكون وحيدين نتحدث عنك .. أنت ملأت فراغاً كبيراً في حياتنا

: الله يديم عليكم الصحة والعافية

عندما كنت أعمل في البحرة يسألون أبو جورج .. (وك مخايل شو عم يساوي ها لصبي ؟) ويجيب .. (متلي متلكم عم بسألوا بيقلي بس خلص بتعرف)

(17)

لأنت ...

سرير الجمر

والزاد صرة علقمٍ

والعين فضاحةْ

لِمَسيرٍ سَحَرَنا

فهرولنا إليه

عندما لاحت الهاوية

أحسسنا بغدرنا للروح

والحبوُ مفتاحهْ .

لِأميرة ...

أسكرت الكروم ..

بليلى العتابا

فملأت سلالها ..

بالسلافات

لأنثى ...

سيَّحَتْ جرار صداحها

في صدى الوديان

فهَرَّت ثيابها العتيقة

لَمْلَمْتُّها لمواقد المساءات

والريح سفاحة)

والدتي الحبيبة ...

وأخيراً أتى .. كان بطيئا كسلحفاة , اشتقت إليها حدّ الوجع ..

جاء الخميس بأعذب خمرة عتقها الله في كرمة الدوالي .. جاء بجمانة .. الغيمة التي هطلت في صحراء روحي .. الشمس التي انبثقت في ليل عمري المظلم الظالم .. جمانة التي صنعت مني رجلاً .. يحلم ويحقق حلمه .. رجلاً أنيقاً يرتدي ثياباً لا يرتديها إلا أبناء الخواجات .. رجلاً تضوع

منه رائحة الياسمين , ويمارس الجنس في سرير كأسرة الملوك مع امرأة لا يشبهها في الكون إلا هي

تحت نفس الشجرة انتظرت , جئت قبل الموعد بساعة , متعشماً أن يقلها الشوق كما أقلني وتأتي أبكر .. الفراغ الذي يتركه غيابها ربما ما أتى بي , وربما جمرها وحطبي , وربما الأمل الجميل , وصدق الحدس .. أتت قبل الموعد بنصف ساعة وربما أكثر , عندما وقفت وفتحت الباب وجلست نظرت إليّ بشوق جارف ولهفة عارمة

: أنت ابن حلال .. والعدرا توقعت أنك هنا , النار التي تتقد بي قالت لي أنك هنا .. (اشتقتلي ؟؟؟)

: لم أشتق .. بل يقتلني الشوق .. أنا آتي كل يوم إلى هنا , أقف بضع دقائق تحت هذه الشجرة , أودع المكان وانصرف , أنتِ لي بحراً , وأنا سمكة فيه , إن خرجتُ منه أموت .. أنت الهواء والماء والشمس .. أنت كل شيء في هذه الدنيا .. أنت هذا الكون كله .. أنت من صنع مني رجلاً يرى بعينيك ويفكر بعقلك ويتنفس بهواك , نظرت إليّ بلهفة وانطلقت , بعد ساعتين من الشوق والجمر , وهي تضع رأسها على صدري

: لم تسألني عن أي شيء يخصني لماذا ؟

: ماذا أسأل وعن ماذا ؟ وأنتِ شطحات الحلم .. أنتِ ما بعد الحلم .. أنتِ أبعد مما طارت إليه عصافير أفقي .. أنت تنامين وتستيقظين في عقلي وفي روحي .. أنتِ منحتني كما قلت لك ما لم يمنحني إياه الكون , كأن الخالق ساقني أو ساقك لتكوني أمي وأبي وأخوتي وحبيبتي ودنياي .. ماذا أسأل ؟

: أنا أعرف أن ما أقوم به معك خطأ .. أنا أعرف أنني كبيرة عليك جداً - هممت بالكلام - تابعت .. دعني أتكلم وأبوح لك بكل شيء .. أنا ممكن بعمر أمك .. أنا وحيدة , زوجي سافر منذ خمس سنوات , كل سنة يأتي شهر ويغادر وأبقى وحيدة أنا والبنت , تأكلني الوحدة يقتاتني البرد , كل ما تراه من عز وفخامة .. امرأة تعيش مع زوجها في كوخ يأكلان الخبز اليابس وما تنبته البراري , هي أسعد مني ومن أمثالي , أنا أعرف أنني أفعل الخطأ وخاصة معك .. أنت بالنسبة لسني طفلاً .. ولا أعرف كيف القدر قادني إليك .. ربما أنني أحسست أنك فقير مثلي .. ضعيف مثلي .. بردان مثلي .. وحيد مثلي وممكن أن تحافظ على سري .. أنت فقير مما تراه , فقير المال والثروة وغريب وطفل .. وأنا اشد فقراً منك .. احتاج من يمنحني الدفء والحب والجنس .. ربما أنا استغليت غربتك وفقرك وعوزك .. ولكن .. وحياة العدرا .. الآن أنا أحبك حدّ العبادة .. وأثق بك أكثر من نفسي .. أنا وأنت ,

كأننا نكمل بعض .. أنا أكثر من في هذا الكون يحسّ بصدقك وبحبك وأمانتك وعفة نفسك .. إياك أن تعتقد يوماً أنني لا أحسّ بك و لا أقرؤك .. المرأة يا ناجي لديها حاسة سادسة وسابعة وثامنة في حبها ومن تحب .. زوجي الذي خلف البحار يعيش حياته كما يحلو له وأنا هنا يأكلني الجوع والبرد والوحدة , يقتلني الناس وأهلي وأهله , الناس لا تستطيع أن ترى الأشياء غير المرئية , والحق أحياناً معهم , النار لا تحرق إلا مكانها , أغلبهم يقول (نيالك) مالاً وسيارات .. بيتاً في الساحل وبيتاً في الجبل .. سهرات وزيارات .. يا ناجي .. هؤلاء .. عندما نذهب كل إلى بيته .. كل يحتضن .. زوجته أو صاحبته أو صاحبها أو زوجها .. أعود أنا إلى ابنتي , والتي تقتاتها أيضا الغربة .. يا ناجي في هذا السن البنت تحتاج أباها مثل أمها ويمكن أكثر .. تحتاج لرجل يمسك يدها .. لقلب رجل يحنو عليها .. لحضن رجل يشعرها بالأمان والطمأنينة .. البنت عندما يغيب الأب يغيب معه الأمان الذي تنشده .. الأب للبنت كما للمرأة البيت الدافئ .. من سنتين كان لي علاقة مع رجل , خرجت معه مرتين .. فضحني أو حاول , ولكنني كنت أذكى منه وحسبت خط الرجعة , لذلك لم يستطع , بل أنا من اتهمه بمضايقتي ومطاردتي , أنا كذبت .. ألفت عليه .. واستطعت اقناع الناس فصدقوني وكذبوه , هو خنزير وخسيس , أنا كنت

أريد صديقاً , رفيقاً , عشيقاً , يعوضني قليلاً عن غياب الزوج ويؤنس عليّ وحدتي , من يومها وأهلي وأهل زوجي يضعوني تحت مراقبة غير معلنة , أنا أعرف ذلك وأنا كذلك أراقبهم .. وقعت أنت في دربي .. صدقني لم أخطط لذلك .. هي الصدفة التي خير من مليون ميعاد .. صدفة أو أي شيء آخر لا أعرف سرها ولا ماهيتها بصراحة ولا أريد أن أعرف .. المهم أنا أثق بك - هممت بالكلام - لا تقل شيئا أنت بالنسبة لي كتاب مفتوح ومقروء .. أنا أحبك رغم فارق السن الكبير بيننا .. , وأنت تحبني .. أنا أثق بحبك أكثر من ثقتي بنفسي .. بروحي , أنا كنت أثق قبل وصولي أنني سأجدك .. أنت لا تفارقني لحظة .. أنت طفلي الأغلى والأحب .. أنت طفلي المدلل .. لو أستطيع ألا تغيب عن عيني لحظة واحدة لفعلت .. صدقني ما أقضيه معك لم أره من رجل في الكون .. زوجي في رحلة السياحة إليّ , لا أتجرأ أن أقول له شيئاً .. إن .. افعل كذا .. تمهل .. داعبني .. قبلني .. لا أتجرأ لأنني أعرف وأثق ,أنه سيخمن ويظن بل سيوقن أن ما أدله عليه أمارسه في غيابه كل يوم , وكل يوم مع رجل جديد , لذلك يعتليني بسرعة يفرغ بي شهوته ويغادر دون أن يقول أي شيء , لذلك غيابه وحضوره سيان .. ناجي أنت رجلي الصغير الجميل الصادق الذي لا أبدله بالكون .. أنام وأنا متيقنة أنك لن تفضح أمري ولو أدى بك ذلك للموت , أنت

الوحيد في هذا العالم الذي أحسّ أنني عندما أحدثه .. أتعرى أمامه .. كأنني أحدث نفسي .. أتعرى أمام نفسي , في البداية كنت أقول .. هو غريب ولا يعرف أحداً ومن يعرفهم هم كذلك غرباء , ولا يعرفون عني ولن يستطيعوا أن يصلوا إلى شيء .. وقلت هو سيخاف وأنا معه سهل عليّ الانتقام , كل هذا فكرت به .. واتخذت قراري .. في اليوم الأول لفتّ نظري وصرت أقول ماذا سأفعل بهذا الطفل , هو أكبر من ابنتي بقليل .. ولشدة وقعك في روحي , صرت أقول .. معقول أنه وصل مرحلة الحلم ..الرجولة .. إن كان .. يكون الأرض الخصبة لأحلامي .. هو غريب .. وأنا غريبة وكل منا في غربة مختلفة .. معقول .. إذاً .. أزرع فيه ما أحب .. أعطيه عصارة الروح فتنبت فيه كل أحلامي وأقتل به كل حرماني وحرمانه .. وقلت .. وإن كان لم يصل أكون قد جربت , ويكون صديقي الصغير .. ربما صغر سنك ساعدني كثيراً , هو من منحني الجرأة عليك .. لأستدرجك وأفصح .. اليوم اختلف كل شيء .. أنت اليوم رجلي الصغير الأنيق الصادق الرائع .. الذي أحافظ عليه بهدب العين .. وسأقول لك شيئا .. مازلت كلما انتهينا , أنظر إليك بمنتهى الحب , أحسّ بشيء من الندم .. أحسّ بتأنيب الضمير .. أحسّ أنني لوثتك .. لوثت طفولتك أو شبابك المبكر .. ولكنني عندما أنظر في عينيك وأرى ما فيهما من حب وشوق

وحنان .. يذهب كل شيء وأتمنى أن أتدثر فيك .. أملأك .. ألبسك وأتلبسك , ما يتقد بي تجاهك , لا أستطيع التعبير عنه , صرت عندي أهم وأغلى من كل هذا الكون .. بل وأغلى من روحي .. أتعرف .. ابنتي لاحظت عليّ .. قالت لي أمس – ماما تبدين أصغر مني هذه الأيام .. وجهك كالوردة .. فيك كل شيء يتغير ويتألق ما الأمر ؟ - قلت لها .. قررت أن أكبّ كل شيء مزعج خلفي وأنسى وأعيش الأيام .. يوم بيوم .. , وبصراحة أحسّ أنها سعيدة هي بي هكذا وسعيدة لسعادتي , ولكن نظرة التساؤل ما زلت أراها في عينيها

غادرنا وكما كل مرة – الزاد – قلت لها .. ما تضعينه يكفي عائلة كاملة مازال عندي مكّدس

: اريدك أن تأكل وتشرب وتلبس .. هذا فقط ما أريدك أن تحافظ عليه إن كنت تحبني

: صدقيني .. أحب ما تريدينه بل أعشقه .. أحب تعليماتك , فقبلك لم أكن أعرف شيئاً وللآن كثيرة الأشياء التي لا أعرف عنها شيئاً .. صحيح أنا لا أسأل أحداً .. استنتج وأحلل وأعلل .. الوحيد في هذا الكون الذي يعلمني كل شيء ويقول لي كل شيء من دون أن أسأل هو أنت .. في البداية كنت أحسّ بالخجل .. ولكن الآن .. لا .. أحسّ أنك كل شيء وأغلى شيء .. أنت أغلى من الروح .. ثقي بذلك

(18)

إليكِ أرحلُ من تعبي

إلى أشرعتك البيضاء

إلى مرافئ تسكنها الأطلال

دائماً يأخذني الحنين

كل يوم تنأى المسافات

كما الحلم ....

الوقت رمضاء

والتعب نهر مترع

والرياح تسرج لوهج القناديل

وتكتب على المفارق اسمك ..

وأنا أضرم حزني

كنشوة نار

في سكابا القصب

كنداء جرح ..

أشتعل في ليل الغضب

كان صوتك يومئ لي ..

كعرس الوريد

كونين الأرض

كأنين الجهات

كنزيف الصباح

حين لاحت المناديل ..

المخضبة بمقامات الوجع

ودفق الروح

جئت أشهد ...

ملتاعاً بحمّى البرد ..

والصمت يملأ الأماكن

يا منجيرة الويل ..

عندما تذوب ثلوج القلب

تجف ينابيع العين

ويصير البحر برّ موسى

ويعرف من أنكروك

أنك أضأت بالحب وجه الوطن

وأنت هناك ...

أجيئك خفية

أتوه بين ضمك والزمن الهارب

وبرقٍ يودع غيماته

أهو النزع الأخير ؟

أهو صليب الخاتمة ؟

ولا من يبكي ...

كم هو مُدْمٍ انحناء النخيل

كم الإنسان نخيل الأرض

وكم اللغة أوسع من الأفق

وضاقت بخيمة على ظهري

بولولة أمهات

يرتدين الحالك

أرحل إليك من تعبي

ونحن العرايا في سوق النخاسة

كثيرون ...

ملء .." ألهاكم التكاثر"

بلى ....

نحن عبيد الله...

عبيد الدنيا

أوراقاً , نتطاير فوق المقاصل

من جزار إلى جزار..

نتبادل , بل تتبادلنا الأنخاب !!

إليك أرحل من تعبي ...

استراحة محارب – مهزوم

لا كر ولا فر

إليك أرحل ...

كلما فاجأني الوقت وأبكتني الأسئلة

واصفرّت صفحاتي

والفصول التي تدور

والدم المسافر في احتمالات الورد والأشرعة

والعهد يشق دروب الوحشة

ليكتب لعنة القصيدة .

يا سيدة الخلق ...

ما زلتُ مترعاً برمضاء النهر والتعب

مترعاً بلعنة ...

الشعر

القص

وبقهرك محتار

والدتي الحبيبة

تكدست الأيام ..خلّت أن الزمن ابتسم لي .. عاد هاني , أمس رأيت شابا لم أره من قبل من تصرفاته كأنه يعرف الجميع ويتحرك بمنتهى الحرية والمعرفة , قالوا لي إنه هاني .. عاد وينتظر ليرى الخواجا , يريد أن يعود إلى عمله , غابت عن ذاكرتي للوهلة الأولى .. أنه كان هنا .. نسيت أنه كان عامل السهلة , وغاب عن بالي نهائيا أنني سأطرد .. لمح لي جوزيف (يوسف)
: أعتقد أن هاني سيعود إلى مكانه , إن فعلوها سأترك أنا أيضا , طلسم دماغي لم أفهم .. أو حاولت ألا أفهم

: لماذا تترك عملك , ما دخل هاني بعملك

: ليس بعملي بل بعملك .. سيستغنون عنك أعتقد ذلك , أرجو أن يكون حدسي خاطئاً

وقفت .. انهمرت عليّ الأفكار كعاصفة ثلجية .. لم أعد أستطيع التركيز .. الباطون .. تكسير الحجارة .. الساحة .. ابو سليمان .. السقيفة .. الأم سحاب .. جمانة .. أحسست بحاجة ماسة للبكاء

قلت لجوزيف : أتذكر .. يومها سأل أبو خليل سمير .. وإن عاد هاني , أجاب أنزل على الفرنجي

قال لي : انتظرني لحظة – أوقف الرقاقة والقطاعة وذهب إلى أبو خليل –

: ابو خليل هاني عاد وينتظر الخواجا ما رأيك

: رايي بماذا ؟

: ماذا سيشغلونه ؟

: سيشغلونه في المكان الذي كان فيه

: وهذا – وأشار - إليّ

: يا يوسف .. :كأنك تعتقد أنني الخواجا بذاته .. يا يوسف .. أنا صحيح أدخل وأخرج من عند الخواجا .. ولكن برأيك أنا أحل وأربط .. يوسف ما بك !!!؟

: أنت تمون عليه .. وأنا أذكر أنك في ذلك اليوم حكيت أنت وسمير وقلت له إن عاد هاني .. أجابك سمير أنا أنزل على الفرنجي .. نزّل على الفرنجي سمير أو ناجي

: شوف يا أبو الزوز والله العظيم عندما أصير خواجا أعاهدك سأفعل كل ما تريده

: يا أبا خليل أنت تستطيع أن تبدي رأيك

: يا يوسف .. الخواجا سمع .. وسيدخل عليه هذا الأبن ستين ألف كلب , وتعرف من هو بالنسبة له .. إذا سألني أكيد سأقول كل ما قلته ومن دون طلب , إما سمير ينزل إلى الفرنجي أو ناجي , وأنا أحب ناجي وأكثر من يعرف

قيمة هذا الشاب .. يا يوسف إن سألني لن أتأخر وإن لم يسألني لا أستطيع أفتح جبهة خاسرة

: إن طردتم ناجي أنا سأترك العمل كذلك

: والله هذا قرار يعود لك وحدك أنا لا أستطيع إجبارك على شيء

قال سمير : الله يلعن ابو الحاجة .. بنت ستين ألف كلب

: وأنت ستترك أيضا ؟

: لا يا أبو خليل لن أترك لأنني لا أستطيع , ولكن الشغل إذا راح يوسف كيف سيمشي

: يمشي لن يتوقف شيء .. الشباب سيبدلون حتى يأتوا بعامل للرقاقة والقطاعة .. أنتم... (بعد بدكم فت خبز كتير .. خليها جوى تجرح أحسن...) انتظروا قليلاً , ممكن كل الذي تتحدثون عنه لا يصير .. على كل حال إذا سألني محلولة .. المشكلة أنه يحب هاني كثيراً وعندما يكون , نحن كلنا ليس لنا وجود .. هاني الولد المدلل عند الخواجا

: أعرف .. أعرف هو الفساد المدلل .. أخي أبو خليل ..أنا أطلب المساعدة كرمى لناجي

: (وك يازلمي) ما بك .. والله إن سمع بما تقول ستقوم قيامتك

: إن شاء الله تقوم الساعة

: (على فكرا).. هذا يضرك ويضره

: ليست مشكلة .. إن لم تقل له سأغادر ولن أعود

اقتربت من يوسف والغصة تخنقني

: أرجوك .. أرجوك لا تقل شيئا .. لا تغادر - قلت ذلك والدمعة تكاد تخرج وصوتي يكاد يختفي .. تمالكت نفسي وتابعت - أرجوك .. الله هو من يتدبر خلقه .. غداً أبحث عن مكان آخر

: أنت لا دخل لك في الأمر.. والله العظيم أنا كاره رب الشغل هنا

لم ينتبه أحد منا , أن هاني كان يقف على مدخل الصالة ,ويسمع كل شيء إلا في وقت متأخر ,عندما انتبه سمير ونبهنا بصوت واطئ – هاني يسمعكم

قال أبو خليل : لم يعد هناك أي حاجة لمقابلة الخواجا .. هاني سمع كل شيء والخواجا سيسمع أضعاف ما قلنا .. الخواجا سيطردكما أنتما الاثنين

حوالي الخامسة صباحا تلبك الجميع انتبهت حولي .. وإذا به الخواجا مثل الغول , متعالي متعجرف

: (وينك)– وأشار إليّ- أنت لم نعد بحاجة لعملك .. غدا لا تأتي

كان يوسف رجل .. يوسف النحيف الهادئ لدرجة البرودة .. كان أكثر قوة وصلابة من الجميع حيث قال

: خواجا .. تكرم وحاسبنا وأنا سأسافر غداً إلى سوريا .. لو سمحت

: مع السلامة .. عندما تعود نتحاسب

: هناك أمر هام يمكن لن أرجع

: إن لم تعد تسامحنا , من يترك عمله بدون سابق إنذار نحاسب متى نشاء

: وهذا الشاب .. أنتم الذي طرده وبدون أي انذار وعمله ممتاز وبشهادة المعلم أبو خليل وشهادتنا جميعا

: وأنت .. من أنت حتى تقيم من يشتغل ومن لا يشتغل ومن الذي حشرك في موضوع الشاب نحن جربناه ولم يعجنا (منيح هيك ؟)

غادر لا يلوي على شيء , ساد صمت تام قطعه هاني عندما دخل بعده

:(مسا الخير على الغوالي)

أبو خليل : الله لا يسعد مساك ولا صباحك .. اسمعني يا ابن الستين ألف كلب .. أنت لا تشتغل في واردیتي أبداً .. تمام .. شوفوا كيف ستدبرون أموركم .. المهم أنت لا تكون معي .. تمام .. يلا انقلع

: عمي أبو خليل لماذا تسبني .. أنا ماذا فعلت .. بماذا أذيتك

: (هيك وإذا موعاجبك قلي) – قال ذلك وهو يغادر جورة بيت النار

: لا .. أعجبني ونص .. أنت بمقام ابي

: الله يلعنك ويلعن أبوك وأبو أبوك .. روح من وجهي يا ابن الحرام .. إياك أن تدعني أرى وجهك .. في أي مكان أراك سأضع حذائي في فمك ها أنا حذرتك , وقد أعذر من أنذر , يلعن أبوك ابن ستين ألف (شرموطى)

أسرع هاني بالخروج وأعتقد أنه لم يسمع الشتيمة الأخيرة , ترك جوزيف (يوسف) الرقاقة وهمّ بالخروج .. انتبه أبو خليل

: لا .. يا أبو الزوز .. هكذا أنت تكبرها جداً هذا جحش ولا تعرف ماذا يفعل .. هذا كل الكتائب على حسابه , هذي ليست مرجلة , هذا تصرف لا يليق بعاقل مثلك .. يا يوسف من يدخل معركة خاسرة بمحض إرادته , ليس عاقلاً ولا ذكياً .. خليك .. عشر دقائق ونخلص وبكرا يتدبرها رب بكرا

صمت يوسف برهة وعاد إلى عمله بعد لحظات عاد الخواجا

: يا أبو خليل نقي شغيل السهلي الذي تريده وهاني يشتغل بأي وردية ثانية ..(نحنا ما منزعلك)

لم يعر أبو خليل أي انتباه للخواجا وتابع عمله وكأن لا أحد يتكلم على الاطلاق , وغادر الخواجا ولم ينتظر أي جواب ,

في الصباح الباكر غادرنا جميعا , أنا وجوزيف أخذنا معنا أغراضنا , بالرغم من كل محاولاتي لأثنيه عن ذلك , ذهبنا سوية بين البساتين , صار يحدثني ويقويني
: لا تخف .. في القريب العاجل سنجد عملاً ومريحاً لن أدعك تعمل في البيتون .. وستكون معي لن أتركك لا تخف , أنا أثق بذلك

ذهب معي بدون أن يقول .. مشى معي بالرغم أنني كنت أتمنى أن يذهب ويتركني .. كنت بحاجة لأكون وحيداً .. كنت بحاجة للبكاء .. الذل الذي واجهني ومعي وضع نفسه جوزيف كان صعباً .. الخواجا لم يعطنا ما بذمته .. كأن جوزيف أحسّ بي وتقصّد ألا يتركني لحزني وكآبتي , وأخذ يحدثني عن أشياء لا تمت لموضوعنا بصلة , عندما وصلنا فوجئ بغرفتي .. وبتنك الزريعة وخاصة الحبق والممرات والخشب

: لم تصف لي ما تفعله لماذا ؟

: لأنني لم أنته بعد

: والله العظيم أصحاب البيت محظوظين

: أنا أعتني بكل هذا البستان ولم يطلب مني أحداً ذلك , أعتقد أنهم مسرورون , هذا ما ألمحه في عيونهم وهم يسلمون عليّ بمودة وعدتها أن أصنع هنا بحرة , عندما رأت البحرة التي صنعتها أمام بيت أبو جورج طلبت مني أن أصنع مثلها هنا والأولاد طالبوني .. العم مخايل أبو جورج قال لي الناس تقف وهي مارة في الشارع أمام البحرة وتسأله من فعل ذلك .. العم أبو جورج وأم جورج يحبونني وأنا أحبهم جداً سنذهب واعرّفك عليهم وترى البحرة

: من لا يحبك ابن حرام .. أنا أعرف دكان مخايل , أنا سكنت هنا فترة طويلة

: والله العظيم أنت ظلمت نفسك ولم تستفد ولم تفدني .. تركت عملك .. هكذا .. بلا ثمن

: لا .. ليس بلا ثمن .. مكاني يلزمه عاملين واحد على القطاعة وواحد على الرقاقة وأنا كنت أقوم به لوحدي وعامل الرقاقة يجب أن يكون ماهراً كي يخرج الخبز مستديراً وأنيقاً , سيتعبون قبل أن يجدوا من يحل مكاني هذا أولا وثانياً أنا كرهت هذا الفرن وقرفت العمل فيه لأن صاحبه ابن ستين ألف خنزير , وهاني زاد في كرهي أضعافاً مضاعفة , عندما ذهب قلت خلصنا منه , هاني فسّاد ونمام وكذاب وأبن عاهرة , إن لم يجد من ينم عليه ينم على أمه وأبيه , هل سمعت في حياتك رجلاً يستغيب أهله , والخواجا الكلب يحبه لأجل ذلك , ويسيد ويميد ولا أحد يتجرأ عليه .. أبو خليل رجل قبضاي , خمسة رجال لا يقفون في وجه , هو يتحاشى الصدام مع أحد , ولكن إن نفذ صبره , لا يرى ..لا خواجا ولا الكون بأسره , كل انطلياس تعرفه , أنا حضرته مرة في ساحة انطلياس , ولم أكن أعرفه قبلها , كنت أسمع به , تهجّم عليه شلة زعران و كان بينهم سوريون , قصدوا إهانته وكسر شوكته , اثنان منهم كانوا أضخم منه .. رأيت كم هو ضخم .. كانوا

سبعة , لم يضرب أحداً منهم كفين على الإطلاق , كان لكل واحد كف ورفسة , أسقطهم جميعاً في الأرض وراح يرفسهم , أول واحد فيهم وهو من اقترب أولا , كان بحجم الثور , وضع كفه على وجهه وسحبها لا أدري كيف , صرخ صرخة كمن يُذبح , جففت الدم في عروق البقية أعتقد أن أبا خليل أراد أن يسحب عينيه من وجهه , لأنه غطى وجهه بكفيه وأخذ يجعر وركع فركله في صدره فسقط , وتابعهم واحداً واحداً .. بعدها تدخل صاحب المطعم وهو من بيت بشارى ويقال إنه كان صاحبه جداً.. تدخل وأبعده عنهم .. أبو خليل يعرف هذا الكلب جيداً.. ألم تر لم يعره أي التفاتة , أعتقد لو يستطيع مساعدتنا لما تركنا ولكنه لا يريد أن يفتح جبهة مع أحد وخاصة صاحب الفرن فهو كتائبي حتى العظم .. من فترة مسح الفرن بهاني , عجنه عجناً , لم نستطع تخليصه من يديه حتى أتى الخواجا وخلصه وبعد القتلة بعثه ليعتذر وباس الصرماية حتى سامحه .. ابو خليل يكرهه .. لا تخف أنا أعرف كل لبنان جيداً.. سأجد قريباً عملاً لي ولك

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة عندما استيقظنا .. أكلنا سوية

: ماذا ستفعل اليوم ؟ سألني

: لا أدري .. لا شيء , غداً سأذهب إلى الساحة

: أنا سأذهب للبحث عن فرن جديد , أنا لا أجيد إلا هذا العمل ولا قدرة لي إلا عليه , فأنا لا أستطيع العمل في الحفر والبيتون والعتالة .. عملي يلزمه مهارة وليس جهداً .. وسأجده , لي ولك لا تشغل بالك ولا تشيل هم وغداً ترى .. أنا أحسّ بك .. أنت تعتبر نفسك السبب بتركي لعملي .. أقسم لك , أنك أحد الأسباب وبالتحديد الحجة التي كنت أبحث عنها , وأتت مشكلتك فوجدتها فرصة على طبق من ذهب , صاحب الفرن حيوان مفترس , لئيم وحقود , يعتبرنا مجرد حيوانات أمامه لا قيمة لنا يدعس على أي واحد فينا متى شاء ولا حسيب ولا رقيب , وليس وحده أغلب الناس هنا يعتبرون السوري عبداً يحتقرونه ولا يرونه إنساناً أبداً هو يشبه الإنسان فقط خلقه الله لخدمتهم , يعتدون عليه في أي وقت ويذلونه ويتلذذون بذلك ويتسلون , ولا تستطيع أن تشتكي فالدرك مع اللبناني ولا يقبلون الشكوى عليه .. بل يصير من يذهب إليهم شاكياً .. كالدمية يسخرون منه ويتداولونه من يد ليد ومن لسان للسان , وذاك الأبن العاهرة هاني .. هو السبب الرئيسي بكرهي للعمل , فكرهي له ليس له حدود , هذا الحيوان ,مجرد رؤيته يسبب لي صداعاً .. صداعاً مزمناً , من سنة وأجري هو نفسه بسببه .. بسبب فساده ودسائسه وصاحب الفرن إن استطاع يفلح علينا ليلاً نهاراً ومجاناً .. أكل حقنا , ولن يعطينا شيئاً , إلا إذا وجدنا لبنانياً لم يغادره

ضميره ويحب السوريين , ويستطيع الدعس على رقبته , وكل ذلك صعب فمن أين ستجد ذلك الرجل ولكننا سنحاول .. بدها صبر ..

: تعود مساء ونبقى سوية ؟

: يا صديقي وابني ورفيقي .. يا ناجي .. سأقول لك شيئاً أرجو أن تقبله مني وتفهمني جيداً .. أنا هنا منذ عشر سنوات .. لا أنتظر أحداً .. ولا ينتظرني في كل هذا الكون أحد .. لا تنتظرني .. ربما آتي وربما لا .. جوزيف وحيد في هذا العالم .. وأنا أريد ذلك .. وهنا سأقول لك وحدك شيئاً وهو بمنتهى الصدق ..من أول يوم رأيتك فيه أحسست أنك أبني أو أخي الصغير .. ربما كنت ذلك في جيل آخر .. أحببتك وأنا عادة لا أحب أحداً , أقصد أنني أحسّ تجاه الناس كلهم بنفس الطريقة , لا شيء فيهم يحرك بي أي شعور .. إلا أنت .. أحسّ أنك قطعة مني .. ولذلك أقول لك دعني كما أنا , ممكن تراني كل يوم في خلقتك , وممكن أغيب وأطيل الغياب , لا تسأل عني .. السؤال عني يغيظني .. أقصد يجعلني أحسّ أن في هذا الكون من يجب أن أهتم به كما يهتم بي , وأنا لا أريد ذلك .. هذا قيد لا أحبه بالرغم من أنك صنعت لي بعض القيد .. أترك الأمور تسير على هواها

: تكرم معلم جوزيف .. سأكون كما تحب وتهوى ..
وستبقى كل شيء لي في هذا الكون .. وسيأتي اليوم الذي تعرف فيه معنى وماهية ما أقول , ولكن ليس الآن .. في وقته وحينه

: سلام إلى اللقاء

: سلام إلى اللقاء

(19)

فضاء جروحي،

تلامس حجارة بيتيّ المهجور،

وتصغي لصوت الوردة

تجس نبض التراب ،

تقول : ها .. رائحة الأيام ,

معجونة بالذكرى ,

وصليل ناقوسْ

ها .. عرّج الطفولة

وسقف الأمنيات

ولا شيء ,

سوى رماد الحرائق ,

شحيح ابتهالات الشموع ,

وتوجعِ المخاضات ,

لمساءٍ ينوس

وأنادي ....

يا سيدة الحلم ...

كيف أبني لصحاريك خيمةً

من خزامى الهباءْ ؟

كيف أوسد لعريك بساطاً

من منيمنات السراب ؟

والريح جففها العنوس

يا سيدة الأمل ...

جفّ الرضاب

ومشت قبورنا فوق الجراح

تظللنا طلاسم الذبح

من القمح إلى أعالي النخيل

من سكرة الماء إلى بح اليباس

يا سيدة العشق ...

ها .. وجه أمي

يصلبه الحنين

ورياح الهوى تدحرج بقايا عزمٍ

وتمزمز حثالة كأس

ومواضع إحساس

ها أمي ...

تهطل فوق صبرها النجوم

وعينها لا تقرّ

وأنا ما زلت أدحرج خيبتي

وأغطيها ـ كالعادة ـ

بعويل اليراع واحتراق القرطاس

كل الأماكن ترحل منك إليك

هناك , هنا , هناك ,

لا امرأة سواك

كل الأبواب أنت

وأنت كل الشبابيك

وأنا ما زلت ...

أبتهل لجنياتي

أن تفتح وسواسها الخناس

كما الشام أمي

كل الأمهات شام

كل يوم ألملم بردي ,

واصرُّ جروحي ,

وأكظم جوعي ,

وأسكت صراخ لهفتي واشتياقي ,

وأعني الدروب ,

أنوّخها أعتابك

يا سيدة الأماكن

لأبوابك وحدك ,

يؤذن الفجر وتقرع الأجراس

والدتي الحبيبة ...

ساحة انطلياس كالعادة تكتظ بالعمال السوريين , تمشيت بين أغلب المجموعات , لم أجد من أعر فه , على طرف أحد المجموعات كان يقف شاب يكبرني قليلاً , من قراءتي له أحسست أنه وحيدٌ مثلي , اقتربت منه

: صباح الخير

: أهلاً صباح النور

: هل تنتظر معلم تعمل معه أم تنتظر من يريد

: أنتظر من يريد .. وأنت

: وأنا أنتظر من يريد

: ماذا تعمل .. أقصد هل تتقن عملاً معيناً

: لا .. لا أتقن عملا محدداً , ولكن سأحاول ألا يكون بالبيتون

: أمس عملت مع رجل يرش الليمون

: ألن يأتي اليوم ؟

: لا .. انتهى من الأمس

خلت الساحة وأنا وهذا الشاب ننتظر .. كلما أتى خواجا نركض مع الراكضين , يفتح باب سيارته ويقف – أنت وأنت وأنت ... – كان ينتقي بخبرته أو على القياس .. أصحاب الجسوم الضخمة والزنود المفتولة والقامات الطويلة .. لم ينتقنا أحدٌ

: كأن نصيبنا اليوم صفراً قال

: ننتظر حتى الثامنة

ونحن نتحدث وقفت سيارة فخمة .. نادانا .. ركضنا باتجاهه

: أهلاً خواجا

: تشتغلون مع ورّاق ؟

نظرنا ببعض .. سألته أنا بصوت خافض

: ماذا يعني ورّاق ؟

: ملييس

: ما رأيك ؟

: دعنا نجرب أفضل من أن نبقى هنا بلا شغل

أجبته أنا

: نعم .. خواجا نشتغل

: يلا .. اركبا

سأل الشاب

: كم الأجرة خواجا ؟

: نجربكم اليوم إذا كنتما جيدين نعطي الواحد ليرتين ونصف .. أنتم وشطارتكم , المعلمين هم من يحدد اجركم .. عندما نصل نرى

قال لي الشاب الورّاق هو المليس .. الحقيقة حاولت ترجمة كلمة وراق بعد أن شرحها الشاب لم أصل إلى نتيجة .. الشيء الوحيد الذي توصلت إليه إن الورقة والتلييس لها علاقة بالبيتون من كلمة الخواجا – عندي معلمين ورقة يريدان من يجبل لهم – وهذا ما صرت أهابه , سأل الشاب

: أين الشغل خواجا ؟

: نهر ابراهيم , فوق الأوتوستراد بمئة متر

في الطابق الخامس , كان ينتظرنا شابان في الثلاثين , طويلان , نحيلان , قاتمي البشرة لدرجة السواد , وجههما

قاسي لدرجة الغضب أو الحقد لهما تكشيرة , خليط من بغض وقرف , يتشابهان بكل شيء حتى بنظرتهما

: عوافي

: أهلاً خواجا

: شوفوا الشباب .. قال الخواجا موجها كلامه لهما

سأل أحدهما

: تعرفان خلط الورقة ؟

أجبت أنا بسرعة
: معلم .. لا .. لا نعرف .. قل لنا أول مرة والباقي يصير تمام

التفت إلى الخواجا وقال

: خواجا .. هكذا الشغل لا يمشي لا وقت لدينا للتعليم

: يا أخي تدبروا أمركم اليوم وبكرا فرج

نظرا ببعضهما وقال أحدهما

:نجربهما .. تعالا معي

ذهبنا خلفه .. في أحد الغرف تلة من الرمل وفي الزاوية تتكدس أكياس الاسمنت وبرميل ماء وغربالين ورفشين

: اسمعا .. كل ثلاث تنكات رمل كيس اسمنت .. تغربلا الرمل أولا إياكم أن يكون فيه وسخ .. أنت هنا وأنت هنا .. أنت عندي وأنت عند خالد .. تخلطان الرمل والاسمنت بشكل جيد , ثم تخلطا مع الماء حتى تصير الطينة مثل المعجون , لا رخوة ولا جامدة .. وبسرعة لا تحيجوننا للنداء لكم .. خلال عشر دقائق نريد الطينة جاهزة فهمتم

(شو كلتكن " قلتلكن ") ؟

: انت ما اسمك ؟

: مازن

: وأنت ؟

: ناجي

: طيب .. تمام ؟

وتركنا وراح إلى زميله

قال مازن : (هيئتا آكلي خرا)

: بدها صبر ..

: لهجتهما غريبة لم أسمع بعمري مثلها .. اللؤم والحقد ينقط من أنوفهما

: ولا أنا .. يلا .. المهم أن نعمل وأن يعجبهم شغلنا والباقي لا علاقة لنا به

أخذنا نكيل ونسرد

: ليسا لبنانيين أليس كذلك ؟

: لا أعتقد .. اللهجة اللبنانية ليست هكذا

: لسنا موفقين اليوم

: بدها صبر يا صديقي .. بدها صبر

: يا رجل .. كان يتكلم وكأنه يريد أن يضربنا

: بسيطة أخي مازن .. بدنا نتحمل

: انشاء الله خير

كان مازن ذو صحة جيدة , مليئاً .. أطول مني قليلاً وأصح .. علائم (الزكرتاوية) والحديّة تبدو واضحة علية .. كنا أنهينا السرد وبدأنا بخلط الاسمنت عندما أتى أحدهما

: من أين أنتم ؟

أجاب مازن : من الساحل

: أي ساحل

: من الساحل السوري

: أي .. اي طز .. ومن أي منطقة .. من بلد حافظ الأسد ؟

أجبته أنا بسرعة - لأن مازن وقف عن الخلط وصار متأهبا كالذئب وعيناه تقدحان شرراً - وأحسست من سؤاله وطزه .. بكره وحقد

: لا نحن من طرطوس

: اي منيح .. أحسن ولو كان كله (أخرا من بعضه)

: كيف هو ... هو يسمي نفسه أسداً لكن هو .... و...

: منيح .. الله يبارك فيك .. من أين حضرتك

: أنا .. نحن الذين كسرنا راس .... أنا من فلسطين .. وتابع الشتم والسب بأبشع الألفاظ والنعوت

: لا داعي للشتائم .. فهي لا تقدم ولا تؤخر ولا تفيدكم بشيء .. وإن كان بينكم وبين حافظ الأسد مشكلة فنحن لن نحلها ولا علاقة لنا بذلك

: أليس رئيسكم ؟

: بلى رئيسنا .. ولكن ما علاقتنا نحن بما بينكم وبينه .. أليس ياسر عرفات معلمكم ؟

: مابه ؟

: لا شيء .. صحته منيحة البركة .. اسألك فقط .. إذا كنت أنا لا أحبه مثلا أنت ما علاقتك بذلك ؟

: لا شيء .. لا شيء .. ولكن أنا لا أتكلم عليك أنا عم أحكي على .... وتابع الشتائم

: كلك ذوق وأدب وأخلاق

: شو قصدك ؟

: سلامتك .. أقول كلك ذوق وأخلاق وأدب

: (آ .. آ .. يلا كملو)

مسح بنا الأرض وغادر .. وكان دائم النظر بمازن الذي وقف عن العمل وهو ينظر إليه كالأسد المتأهب , وأنا أمسك قلبي بيدي , بالرغم من أنني لم أتوقف عن التقليب ولم أنظر إليه إلا من طرف عيني , كانت عيني دائما على مازن , وأدعو الله أن يصبر كما أنا صابر

: أنا لن أكمل .. إن كررها سأقتله .. الله يلعن أبو الذل .. وأبو الذي أجبرنا أن نأتي إلى هنا حتى نُذل

: مازن تعقل .. هما أصلب وأكبر وأكثر خبرة منا وممكن أن يكون معهما سلاح .. الفلسطينيون هنا دولة ولا يتجرأ أحدا على الاقتراب منهم .. (هونها .. اللي بيحمل كلمي ما بيحمل جبل)

: ألا ترى ؟ يريد الانتقام من حافظ الأسد بنا فليذهب إليه إن كان رجلاً .. والعلي الأعلى إن كررها سأجعله عبرة لمن يعتبر .. سأجعل منه حكاية تحكى حتى يأتي غيرها

: مازن .. بلاها الآن هذي المراجل .. بلاها .. دعنا نكمل اليوم وغداً لناظره قريب
: اسمعني .. أنا عندي احساس أنهم يبيتون لنا شيئاً , إن علقنا .. أنت فقط احمي لي ظهري .. اسمعني جيداً .. إياك أن تُجبّن .. أضرب للموت .. إن ظفروا بنا سيذبحوننا .. أنت معك رفش وأنا معي رفش (الكريك) هذا أحسن من الروسية

كأنهما سمعا همسنا أو بعض الكلام عادا معا

: (اش عم تكولوا ولاه ؟)

: لا شيء نحكي عن الشغل

:(أنت كذاب وابن كلب .. وهاضا البطل بدو يكتلنا)

اخذا يقتربان مني ونواياهم بائنة يريدان أن يبدآن بي , ظنا أنني الأضعف فليبدأا بي فيستفردا بالأقوى , أمسكت بالرفش جيدا وصرت أتراجع قليلاً .. قليلاً .. صارا أكثر حذراً ولكنهما تابعا باتجاهي , عند ذلك أيقنت أن المواجهة حتمية قلت أجرب حل الموضوع سلميا بمغادرتنا

: اسمعا .. الظاهر أننا لا نستطيع العمل سوياً اتركانا نغادر ويا دار ما دخلك شر

: (عامل حالك آدمي لإش ما سكتت هالكلب)

: يا أخي أنت ما تركت ولا بقيت .. عندك مشكلة مع حافظ الأسد روح حلها معه نحن لا ناقة لنا ولا جمل

: (اي .. بدي العن أباك على أبيه)

ووثب باتجاهي

كنت أسرع منه بكثير .. أغراه صغر عمرنا وهي الحقيقة , كنا مجرد طفلين يهمان في طريق البلوغ .. تذكرت مازن – إياك الجبن .. أضرب ضرب الموت .. إن ظفرا بنا سيذبحوننا – كنت أسرع منه وضربته كانت الضربة قاصمة أصبته حيث أردت في رأسه .. سقط على الأرض .. لم يتحرك زميله لأن مازن انهال عليه فسقط قربه هو الآخر وتابع كأنه كان يريد تقطيعهما , كان الدم يخرج من

رأس الأول كالنافورة وصار يتخبط بدمه وبسرعة غادرنا المكان , سرنا باتجاه الطريق صامتين , لم ننطق بكلمة واحدة عندما وصلنا إلى الطريق أشرت له أن يتبعني واتجهت صعوداً وكلما مرت سيارة نمد يدنا .. لم تطل وقفتنا .. وقفت سيارة تكسي عامة وسأل

: إلى إين ؟

: أنت إلى أين طريقك ؟

: بيروت

: نحن إلى انطلياس

: تنزلون على مفرق البطركية

: تمام

عند مفرق البطركية نزلنا وتابعنا مسرعين باتجاه الساحة , على الدرج الذي خلف مطعم اللحم بعجين وقفنا

:الحمد لله على السلامة .. أنت شاب (قبضاي) ولكن يجب ألا تأتي إلى الساحة .. المجيء إليها خطر جداً

: الذي لا يعرفك يجهلك .. أنت (القبضاي).. برأيك ماتا؟

: إن شاء الله لا .. الأفضل نرجع إلى سوريا

نظر إليّ بعينين يملؤهما الحزن

: الله يلعن أبو هذه الأيام التي جعلتنا نحتاج هؤلاء الكلاب .. ممكن ابتلينا بقتيلين من أجل الرئيس .. والرئيس لا يعرف إذا الله خلقنا

: المهم ألا تأتي إلى الساحة .. مع السلامة

: مع السلامة

تعانقنا وهو يقول لي - ياريت لو التقينا في ظروف أحسن .. أنت رجل (قبضاي) وعاقل

: انت شهم و(قبضاي وزكرت).. ولكن خفف من نارك قليلاً .. النار ليست دائما مفيدة وضعنا يلزمه ثلجاً وليس ناراً .. برّد أعصابك .. مع السلامة

تركته وعدت إلى الساحة وغادرت باتجاه الجسر الذي أرافق فيه النهر, طريقي المحبب إلى البيت , لم يسألني ولم أسأله وكأننا اتفقنا سلفاً وبدون أي كلام ألا يعرف أحدنا عن الآخر أي شيء , عندما وصلت عند العم أبو جورج

: أهلاً .. أهلاً .. طمئني .. كأنك لم تجد شغل

: نزلت على الساحة لم يأخذني أحد

: تأخرت أين كنت ؟

: مشيت كثيراً وسألت لعلّي أجد عملاً في محل أو أي شيء

بعد أن جلست , نظر ألي وقال

: بك شيء ؟ .. أنت لست تمام .. أحكي لي

: اعتقدت أن عملي في الفرن دائم , لكن اعتقادي ذهب مهب الريح , أفكر بشيء يشبه عملي في الفرن .. لا قدرة لي على شغل البيتون .. وأفكر بجوزيف الذي ترك شغله من أجلي وخرج مثلي بلا أجرة

قال بغضب : يا بني والمسيح أنا بنفسي سأذهب إليه وأكلمه

: لا .. أنت لا تذهب أبداً إذا حكى معك كلمة واحداة غير لائقة تساوي كل مال الكون , الله هو من يتكفل بظلامه عمي أبو جورج لدي ما أفعله قبل أن أذهب ؟

: لا يا ابني لا يوجد شيء

: أنت تعبان يا ولدي ؟

: أنا منيح يا أم جورج .. أيتها الأم الرائعة .. عندما أراكم كل شيء يصبح ممتازاً والدنيا تصير بألف خير

غادرت إلى البيت رشرشت الممرات وسقيت الحبق والورد , وبعض أشجار الليمون , وصلت عند مدخل البناية , كان صاحب البيت وزوجته يطلان أحياناً , حاولت أقتل الوقت كي لا ينفرد بي ويجعلني أفكر بما حدث , بحدود الخامسة أتى جوزيف

: صديقي الصغير كيف أحواله

: والله اشتقتلك

: ولوه .. بهذه السرعة

: ايه .. ايه .. حلفت لك بالله

: أنت لست على ما يرام .. ما بك .. ما هو سبب هذا الحزن الذي يملأ عينيك ؟

: لا شيء يا صديقي .. نزلت إلى الساحة نقّوا ما يريدون وفرغت الساحة ولم يطلبني أحدٌ

: لا .. لا .. ليس هذا هناك شيء آخر ,عيونك شاردة وفيها خوف .. ودبلان .. ما الأمر قل لي ؟

كنت قد قررت وأنا في الطريق أن أكتم سري .. أن آخذه معي إلى القبر .. الشاب لن ألتقيه مرة أخرى , وربما يغادر , سأحاول ألا ألتقيه .. لن أذهب إلى الساحة بعد الآن مهما كلف الأمر

: لا شيء يا صديقي إلا ما قلته لك , وبصراحة ما زلت أحسّ بعقدة الذنب تجاهك , من لحظة كنت أنا وأبو جورج بسيرتك .. فقط أحسّ بأننا مظلومين جداً , الحياة قاسية لئيمة علينا جداً .. وأنت ما ذنبك لتبتلي معي وتترك عملك ؟

: هل سنعود للحكي نفسه .. إذاً هات البشرى .. أنا وجدت العمل .. وجدته وبسرعة

أحسست أن حزني وخوفي طار وقمت إليه وعانقته

: ايه .. ايه .. بكرا نازل , صاحب الفرن رحب بي وجداً ووعدني أن يؤمن لك عملاً خلال فترة قصيرة عنده , أنا من تكلم معه , أعتقد أنه رجل طيب

امتلأت عيناي بالدموع فدرت عنه لأغلي الشاي كي لا يراني , ولكنه أحس بي فصمت قليلاً , ثم قام وعانقني

: لا تزعل لا شيء في هذا الكون يستأهل , هذي هي الدنيا .. بنت ستين ألف كلب .. ولكن نحن مجبرون أن نعيشها , وليس لنا منها مفر

أحسّ جوزيف أن شيء ما لم أخبره إياه عندما سألته

: ألا يوجد مكان آخر يقف فيه العمال غير الساحات ؟

لا .. لماذا تسأل ؟ هل تشاكلت مع أحد في الساحة ؟

: لا لم أتشاكل مع أحد ولكن الساحة لم تعجبني .. يأتون ينتقون الكبار في العمر والأقوياء ويتركوننا لا أحد يلتفت إلينا

:هناك طريقة ثانية وهي أن يبحث الإنسان بنفسه ويسأل .. هوّن عليك يا رفيقي الصغير .. هانت كم يوم وستجدني عندك أمسك بيدك ومعا إلى الشغل .. يلا .. أنا رايح .. جئت أطمئنك كم يوم وراجع

: خليك .. نتسلّى و نتآنس

: أنا لا أستطيع ولا أنت .. أنا غتيت , وأنت لا تستطيع تحملي سلام .. جاييك .. جاييك يا صديقي يا ولدي المدلل الأنيق .. لن أتأخر .. (دير بالك على حالك حتى كون رجعت)

: مع السلامة .. أنت أب وصديق و ..

: وا .. وماذا أكمل
: وأم .. أنت أحنّ من الأم

صمت برهة وعيناه في الأرض وأدار وجهه عني وغادر دون أن ينطق بحرف , ودون أن يشرب كأسه

(20)

بعد قليل نمزق ...

أو نقتسم ...

ما يُذهبنا إلى المقصلة

أو إلى سدة الشمس

فدفاترنا موبوءة بصدى الكلمات

وزنى الأحلام

واقتراف الحنين

بعد قليل أو كثير ...

نتفق على الارتكابات

وطناً وطناً .. قهراً قهراً ...

ضفة ضفة .. مرفأً .. مرفأً ...

كفراً .. كفراً

واشتهاء .. اشتهاء

يقتاتنا الصبر

كجيفٍ تفسخها أشعة الشمس

ويبتلعها العراء

بعد قليل توزعنا الأسئلة

على مراكز الاجابات

الشفهية والكتابية

بعد قليل تكتب شفاهنا

الإجابات الأخيرة

لتيه البراري

لحميمات الكروم

لراعفات الدوالي

ومساءات الياسمين

فأنت يراع حميمات المطر

وأنا قرطاس المدن المسكونة بالضجيج

وابتهالات الندى

هل بقي من يسأل عن الحنين ؟

أما زال ينبت عشب الشوق

فوق خفقة الدروب المهجورة

أو بين أطلال الضلوع ؟

هل في هذا الرماد الهائل

فينيق , يتهيأ للخروج

إلى فضاءات صوت الأمكنة ؟

هل , من يسأل ...

إن امتطانا الغياب ,

على وجوهنا

مسرعين .. مسرعين

نذهب

وهوناً .. هوناً

نجيء

بلا أسماء ولا وجوه

نلملم الأحلام عن قارعات الوجع

وذاك المدى

نهرٌ أوردتنا ...

ويحملنا السراب

إلى رفيف المنام

والدتي الحبيبة ...

يا أمي .. رائحة الدم تملأ كل حواسي , منظر الرجلين وهما يتخبطا بدمهما شريط حي يمر أمام عيني في صحوي وفي نومي , يا أمي .. وللخوف رائحة كذلك .. رائحة تشبه رائحة البرد أو الصقيع , إن هبّت على الإنسان جمدت عروقه وأوصاله وشلت عقله وحواسه . كلما هبّت .. أحسّ أنني سأموت من البرد , هو ما يصيبني الآن .. هل ماتا ؟ أم أنقذهما أحد ما ؟ من الممكن كشف

أمرنا ؟ كيف ؟ إن كشف أمرنا هل سنعدم ؟ أم سيكتفون بالسجن ؟ هل سنتعرض للتعذيب ؟ .. في لحظة هروب من هذه الرائحة التي تهب علي من صوبهم , من صوب رائحة الدم .. قررت أن أسيطر على نفسي قليلاً وأتفادى هذه الروائح مجتمعة , قررت ألا أغادر بعيداً , أن أبقى في المنطقة , عند أبو جورج وأم جورج .. سأبقى أطول فترة في بستان الخواجا فريد , فهو يحقق لي الوحدة والعمل والنسيان . في الصباح الباكر صرت أذهب إلى البستان أعمل هناك حتى الثانية عشرة , ثم أعود إلى دكان أبو جورج أنظف أمام الدكان وأرتب الأغراض وأجلس قرب البحرة أو النافورة كما تسميها أم جورج , والتي صارت صديقتنا الحميمة نحن الثلاثة .. أبو جورج كل يوم يقول لي .. أغلب الناس تقف في الشارع وتتأمل البحرة يسلمون ويذهبون ومللت من كثرة الأسئلة , ثم أذهب إلى البيت أعتني بالبستان الصغير والشجرات والورود التي صارت كثيرة ويأتي الأولاد يلعبون قربي و يسامرونني وأنا أستجيب لسمرهم وصرت أحبهم وألعب معهم .. حتى الخواجا صاحب البيت صار يأتي ويسلم ويسألني إن كنت أريد شيئاً , إن كنت أدخن فأشكره .. أمس وقف عندي وسألني
: كأنك بلا عمل هذه الأيام

: نعم .. أذهب قريب من هنا بستان للخواجا فريد بستان صغير أعتني بأشجاره وأعود .. أتسلّى به حتى أجد عملاً

: سأحاول إيجاد عملاً لك .. الأولاد يحبونك جداً ونحن كذلك أنت لطيف ومن حظهم أنك تتواجد كثيراً فهم ينتظرون عودتك , وعندما تأتي يتصايحون لقد جاء ناجي .. وهم يحافظون مثلك على الزهور والبنت تعتني بها وتسقيها .. تقلدك

: وأنا أحبهم جداً وأسعد بوجودهم

: هذا البستان الصغير بدونك لا يساوي شيئاً .. أراك تملأ بعض التنك بالإسمنت لماذا

: أريد أن اصنع هنا بحرة كالتي صنعتها أمام دكان أبو جورج كرمى للأولاد ستسرهم جداً .. سيلعبون بها وحولها الأطفال يحبون اللعب بالماء وستكون جميلة في وقت استراحتك أنت والست تجلسان قربها .. هل رأيتها أمام دكان العم أبو جورج .. وأريد مساعدتك

: بلى رأيتها وكنت سأطلب منك أن تصنع مثلها هنا وها أنت سبقتني بارك الله فيك .. وأنا جاهز لأدفع لك ما تريد سارا سحرتها وكانت ستطلب منك مثلها وسأخبرها أنك أنت من يريد أن يفعل ذلك .. ستسعد جداً

: لم يعد لدي اسمنت أريد كيس اسمنت وبحص ورمل

: من أتى لك بالبحص والرمل في المرة السابقة قل له أن يأتي لك بما تريد – ومدّ يده إلى جيبه وأخرج نقوداً –

: دعها معك الآن غدا أقول له أن يأتي لنا بكيسين اسمنت والبحص والرمل لهما كي لا نحتاج مرة أخرى وأنت تحاسبه وأريد مضخة ماء صغيرة ؛ لشفط الماء من البحرة وإعادته إليها ومواسير للتمديد

: غداً تركب معي .. ونذهب ونأتي بكل ما تريد

: أنا حاضر

كان الأولاد يستمعون لما يدور بيننا , طاروا كالعصافير ليخبروا أمهم , بعد مغادرته جاءت السيدة سارا وشكرتني على اهتمامي بالبيت والأولاد وحدثتني عن حبهم لي

: يا سيدتي هؤلاء ملائكة الجنة .. أولادك كل من يعاشرهم سيحبهم , هم أطفال رائعون

الأطفال صاروا كلما هممت بالمغادرة يسألونني هل ستتأخر ؟ لا تتأخر .. نحن ننتظرك

كم أنا بحاجة الآن لجمانة يا أمي .. أكثر من أي يوم مضى .. لا أعرف لماذا .. هذه المرة لا أحسّ أنني بحاجة

لجسدها .. لم تخطر ببالي تلك المتعة التي تساوي الكون بأسره .. اليوم أحسّ أنني بحاجة لشيء آخر عندها , ذهبت إلى الصنوبرة , جلست عند جذعها ساعة .. تمنيت أن تأتي .. ولكنها لم تأت .. يا أمي أنت أو جمانة تخففان عني هذا الرعب وهذا القلق الذي أعيشه .. لم أستطع الغفو أو السهو أو السلو , حلم الدرك يداهمني وأنا صاح .. أتخيلهم وهم قادمون للقبض علي وسوقي إلى المشنقة .. مرهق أنا يا أمي ومتعب وجائع .. ياليت جوزيف بقي كان خطف مني وحدتي , لا أذهب إلى بيت أبو جورج إلا قليلا , لأنه وأم جورج يقرأانني جيداً ولا يكفان عن الاسئلة .. وأنا لا أستطيع الإجابة وسيزعلان لذلك خففت من الذهاب , الوحدة تقتلني يا أمي .. سري يقتلني .. أريد أن أبوح .. أريد أن ألقي عن ظهري هذا الجبل .. ولكن لمن ؟ لا يوجد أحد .. برأيكِ هل ماتا ؟ .. هل سيتعرف الدرك على القاتل .. هذان الحاقدان أرادا أن يفرغا حقدهما على حافظ الأسد وطائفته بي وبمازن الذي جمعتني به وبهما الحاجة والفقر والتعتير والتشرد ولكن دائما حطب النار هم الفقراء , وهم سيوف يقاتل بها السادة حتى تنكسر فيرمونها , هم رقاب جاهزة دائما للجذ فيلقونها على مذبح وطن لا يملكون فيه حتى المدفن .. يدفنون لا لأنهم يملكون على قدّهم , بل .. كي لا تزكم رائحتهم أنوف السادة , هذان المعتوهان اللذان نشاركهم كل شيء إلا

الحقد والبغض , اعتقدا أنهما سينتقمان من حافظ الأسد شر انتقام .. لأننا شبه أطفال , لم يتوقعا أبداً ردنا وبمنتهى الصدق يا أمي , ولا أنا , وأجزم ولا مازن , توقعنا أننا سنصل إلى ما وصلنا إليه , ولم أعتقد أنني أستطيع أن أرفع الرفش وأضرب به بهذه القوة .. ربما الخوف يا أمي .. أن يضعك أحد ما في وضع إما قاتل أو مقتول .. اليوم أتذكر المثل القائل (حصارك لهر تصيره أسداً ضروساً) .. هذان الرجلان ورطانا بمعركة لا ناقة لنا فيها ولا جمل وأجزم ولا هما .. وربما يا أمي .. ربما .. مازن ورطني فلو كنت وحيداً لتحملت كل شتائمهم , وربما الضرب كنت سأتحمله , لأنه لا أحد سيشهد على ذلك سأخبئها في صندوقتي مع كل مزلاتي .. كنت سأتحمل حتى يتثنى لي الهرب ..همست لمازن .. في وقت استراحة الطعام ننزل ونذهب إلى الطريق ونغادر ولا نعود .. ووافق مازن ولكن شباب فلسطين - الذين سيحررون فلسطين بشتم حافظ الأسد وقتل كل من يشارك حافظ الأسد الأكسجين – لم يمهلاننا حتى استراحة الطعام .. في تلك اللحظات تذكرت أبي كثيراً حين كان يكرر علينا (يا ولدي إن سمعت الناس يشتمونك وأنت تدير لهم ظهرك , تجاهلهم واعتبر نفسك لم تسمع شيئاً , أما إذا كانت وجها لوجه .. لا تكن جباناً وقاتل ولو كلفك ذلك حياتك) في لحظة كنت كما أحب .. وعملت بوصيته

.. أتمنى وجداً أن يكونا ما زالا على قيد الحياة .. ليس لأنني أحبهما ولا أتمنى لهما الموت .. بل لأنني لا أتمنى ذلك على يدي .. كأن البشر يا أمي .. أغلب البشر ميالون للقتل وللدم .. كأن رائحة الدم تسعد البشر , هذان الرجلان اللذان يشبهاننا بالفقر والذل والتشرد .. اخترعا أو احتجا بحقدهما وكرههما لحافظ الأسد ؛ ليمارسا حبهما للتسلط والقتل والدم علينا .. وجدانا فريستين سهلتين أمامهما ربما لن تتكرر , فقررا ألا يفوتاها , وهذان الرجلان عندما يأتي الخواجا ممكن أن يشتمهما ويمسح بهما وبعرفات وفلسطين الأرض والأكيد لن يتجرأا ويفتحا فميهما على الأقل هنا في هذه المنطقة وبشكل خاص , فإعجاب ! اللبنانيين بالفلسطينيين الذين يستبيحون كل شيء في المناطق التي يتواجدون فيها بكثرة وبسلاحهم يصل إلى درجة الكره والحقد .. فحكايا الشباب في ليالي الفرن تدل على ذلك , أبو خليل قال مرة لجوزيف وهم يتحدثون عن الفدائيين , قل ثلاث مرات فلسطيني أمام أي لبناني هنا يصاب بالجلطة , هذان الفلسطينيان التعيسان فتحا معركة - مع سوريين فقيرين يشتركان معهما بكل شيء - في ساحة حقد لا ناقة لهما فيها ولا جمل

سحاب الأم الحنونة .. ماذا سأقول لها ؟ وهي من تقرأ الناس ؟ وأنا أولهم كيف سأكذب عليها وقد عاهدتها ؟ ولما لا ؟ الولد لا يقول لأمه أي شيء وكل شيء .. الإنسان

يبقي أشياء له وحده , حتى ولو خمّنت لن أقول شيئاً .. أنا بحاجة لحضنها .. لأشكو لها .. لأبث لها وجعي وألمي ولو بطريق غير مباشر .. المهم أن أجد البئر العميق الذي أرمي فيه ماء وجهي وقيح جروحي .. سحاب أيتها الأم الغجرية ألم تشتاقي لي ؟ انتظريني .. أنا في أمس الحاجة إليك

(21)

لحزننا

إلهٌ ..

وتراتيلٌ

ومعبدْ

وله ..

مواويلٌ

وقوافي

ومرقدْ

وله ..

مناديلٌ..

تلوّح لمن راحوا

ودروبٌ ..

تسجل همس من باحوا

وله ..

شمسٌ ..

توقظ مقلتي جرحه

حتى الموت

وله فرقدْ

وله ..

أمٌ ..

طارت من نور عينيها

عصافيرُ الأحلام

ويبس فوق شفتيها

سنديانُ الكلام

وسوسن الإجابةْ

وله ..

أبٌ ..

كُسرت جوانحه

ونخيله

صار قوسا للربابةْ

وله ..

حبيبةٌ ..

تزرع فساتين الريح

حبيبات عينيها

والأيام ..

خطوَ العمر الوئيد

وحروف الصبابةْ

وله ..

اختٌ ..

هُدَّ كوخُ ملاذها

وصارت ..

طريدة ..

في غابةْ

وله ..

الأسماء كلها

عناوينٌ

للقصائد

لقوس قزح ...

يعدُّ .. ولا يتعبْ

وله ..

جدائل يُخضبها الأسى

بالدمع والحناءْ

وله ..

قلوبٌ مكسورةٌ

حتى العظم

ولا تفكر

مجرد تفكير

بالشفاءْ

وله ..

وطنٌ .. على امتداد الوجع

قتلوه ..

ويمشون في نعشه

صباحا .. ومساءْ

والدتي الحبيبة ...

قلت أذهب بمنتهى الحذر , لن يعرفني أحد .. هندامي سيحميني .. إن سألني أي أحد عن البطاقة سأقول أنني نسيتها في البيت .. لن يسألني أحد , قبل أن أعبر باتجاه الساحة , أحسست بخوف شديد وقررت العودة .. الأم سحاب لن تكون في البيت يا ليتني أخذت المفتاح , كنت ذهبت وانتظرتها هناك , أعود في المساء .. ربما في

المساء تكون ما زالت في الساحة كذلك .. بعد عدة خطوات قررت أن أذهب إليها .. يا أمي .. الأم سحاب أم حقيقية هكذا أحسّ الآن وأكثر من أي يوم مضى , ورغبتي برؤيتها لا تقاوم .. ويمكن أن ترى ماذا سيحدث لي , وممكن تنبهني تخبئني .. أريدها سأذهب وليحدث ما يحدث .. عبرت على مهل .. هناك هي .. يقرفص بجانبها رجل وامرأة .. وقفت بعيداً قرب أحد شجيرات الرصيف , أنتظر أن تنتهي فأذهب إليها لا يجوز أن أعطل عليها عملها .. بعد لحظة أتتني امرأة بعمر الأم سحاب وقفت أمامي وقالت

: أنت تعب .. دعني اكشف لك فالك

: الله يخليك لا أريد

: اسمع مني أنا أريحك .. سأقول لك عن وجعك وعن دوائه

: أيتها الأم الطيبة .. أنا لا أريد

كأن كلمتي لها أيقظت فيها شيء فنظرت إلي ملياً وغادرتني , بعد لحظة جاءت صبية

: أنت .. أنت تريد أم ناجي ؟ .. أقول لها أنك أتيت ؟ عرفتك .. تذكرتني ؟

: أهلا .. نعم أنا ولدها .. أنا ناجي .. أنا أراها .. لا .. لا تخبريها .. دعيها تنتهي من زبائنها وأنا أذهب إليها

حدقت بي وتأملتني

: يا إلهي كم تشبه أمك

: شكراً أنا سعيد جداً لأنني أشبهها .. أليست جميلة ؟

: بلى .. هي ست الستات

: تحبينها ؟

: جداً .. كم أتمنى أن يكون لي أماً مثلها

: وأنا متأكد أنها تحبك .. أمي محبة .. أمي ليس في قلبها إلا الحب

: صحيح .. أم ناجي أقصد سحاب هي من يوم أتيت لا تقبل أن يناديها أحد باسمها ..والناس استجابوا وكلهم ينادونها أم ناجي .. هي تحبك جداً .. ملأت الحي بالحديث عنك .. صار كل الحي يتمنى رؤية ابن سحاب الذي عاد إليها .. ابن سحاب الذي يشبه الأمراء .. أنا أخبرت الجميع أنني رأيتك وأنك تشبهها .. وأخبرتهم أنها عرفتك من أول لحظة رأتك فيها

كنت أسمعها وعيني على الأم سحاب كلام هذه الصبية عن الأم سحاب وحكايتها عن ابنها ناجي الذي عاد إليها أنساني تعبي وخوفي وللحظة أحسست أنني يجب أن أذهب وأقطع عليها حديثها وأضمها وأقبل يديها

: وأنت طيبة جداً وجميلة .. وأنا واثق أنها تحبكِ كما تحبينها

: أم ناجي تقرأ الغيب .. في المساء قالت لي .. ناجي في ضيق وغداً سيأتي وهيأت لك طعاما .. دعني أبشرها فأنا سعيدة مثلها لمجيئك .. أنا أشتهي حبها لك .. صرت أتمنى أن يصير لي ولداً لأحبه كما تحبك

: عندما تنتهي من زبائنها , سأبقى حتى تخبريها .. أمتزوجة ؟

: نعم متزوجة ولكن ليس لدي أولاد

: سيصير لك أولاداً .. الله سينظر في عينيك ويرزقك

سكتت لحظة وقالت

: زوجي لا ينجب

: الله يرزق متى شاء ومن يشاء

في هذه الأثناء غادر الرجل والمرأة فهبتْ إليها وقرفصتْ بقربها وأنا مشيتُ وئيداً إليها

: يا اااا ولدي

طوقتني بكلتا يديها وضمتني إلى صدرها , مسكت يديها وصرت أقبلهما وهي تقسم علي ألا أفعل .. ولكنني لم أتركهما , كانت المرأة تقف بجانبنا وصعقت عندما نظرت إليها وأمي سحاب تقول لها ألم أقل لك غداً سيأتي .. كانت تبكي .. كانت تبكي بغزارة وبصمت , اقتربتُ منها وبطرف اصبعي مسحت سيل الدمع

: لا .. هكذا تزعل أم ناجي .. أليس كذلك يا أمي ؟

: نعم .. هكذا أزعل .. ما بالك يا شيركا .. افرحي معي بقدوم ناجي

طوقت خصري وهمت بالمغادرة

: أمي ما رأيك ان أذهب أتمشى وأعود بعد حين ريثما تكوني أنهيت عملك .. أقصد بعد بكير

: يا ولدي - وهي تضغط على خصري - لا يوجد في هذا الكون ما يساوي عندي فردة حذائك – وتوجهتْ نحو المرأة – تعالي معنا يا شيركا

: الآن لا .. سأذهب إليكما فيما بعد

: أنا أنتظرك .. سلام

: سلام

غادرنا الساحة وانتبهت أن أغلب الغجر يراقبون مبتسمين إلا شيركا لم أستطع تفسير سر نظرتها ودمعها الذي سقط كالسيل , في الزواريب الضيقة كانت سحاب أم ناجي تسلم على المنتبه وعلى غير المنتبه وكأنها تعلن ها أنا عدت ومعي ولدي ناجي .. ها هو انظروا إليه , فتحت البيت ودخلنا

: طولت يا ولدي .. وعدتني ألا تتأخر

: ألا يقولون (الغايب عذره معه)

: بلى .. لن أسألك عن الحزن الذي يملأ عينيك هذا صرت أعرفه .. أنت متعب .. بل مرهق .. أنت في مشكلة .. فضفض لي يا ولدي .. لا تقل لا يوجد شيء

: بلى يوجد صاحب الفرن طردني .. أقصد استغنى عن عملي بعد أن عاد العامل الذي كنت أعمل مكانه وصرت بلا عمل .. والعمل في البيتون وتكسير الحجارة لا قدرة لي عليه .. لا أريد أن تسلخ يدي وكتفاي مرة ثانية

: هل هذا ما يزعجك ؟

: نعم .. لا .. يا ولدي .. ربما هو جزء صغير منه ولكن ما يزعجك أكبر من ذلك بكثير

: يا أمي الحنونة .. يا أم ناجي الجميلة كوردة , أنا وأنت غريبان .. غريبان عن كل هذا الكون .. ياااا أمي هذا الكون مرتعٌ للظلم والقهر والبؤس , ولا تدرين من أين ولا أين ستتوقيّن ما يسقط فوق رأسك من حجارة ورجوم .. فلا تسألي .. يا سحاب يا أم ناجي هذا الكون ليس كوننا ولا علاقة لنا به إلا العلاقة المفروضة فرضاً علينا , وعلينا أن نتدبر أمرنا فيها .. دعينا مني .. راح حزني عندما رأيتك .. عندما رأيتك .. عندما رأيت فرحك وبهجتك .. زاد دينك في عنقي يا أمي .. ما تفعلينه يجعلني أميراً متوجاً .. ما قالته لي شيركا .. أليس أسمها شيركا

: نعم

ما قالته لي جعل مني طيراً حراً .. صقراً .. أطير في فضاء سحاب .. الأم الرائعة الحنونة التي أضاعتني جنينا في رحم امرأة أخرى واليوم وجدتني .. تطير بي وتحلق .. أنت تسحبين من روحي الحزن والألم

: يا ولدي .. أين رأيت شيركا ؟

: عندما وصلت رأيت عندك زبونة وزبون فوقفت ريثما تنتهي منهما جاءت وسألتني ..- تريد أم ناجي .. أخبرها ؟
- يا أمي عندما قالت لي - تريد أم ناجي - أنت لا تستطيعين تخيل ماذا فعلت بي هذه الكلمة وتابعت – كم تشبهها .. أنا أخبرت الناس أنك تشبهها – هل حقاً أشبهك؟

طوقتني وصارت تقبلني وهي تتمتم

: لماذا يا ولدي .. احكي لي .. لماذا .. لا أريد أن أرى دمعك .. دمعك يقتلني .. يا ولدي حياتك كلها أسراراً تربض على صدرك .. فضفض يا ولدي فضفض ترتاح .. فضفض لأمك .. ألم توقن بعد أنني أمك

: لا يا أمي .. أنت أمي وأبي وأختي وصديقتي .. إياك أن تعتقدي أو تفكري غير ذلك .. أنت الحضن الدافئ الذي ألجأ إليه كلما هاجمني القر .. شيركا قالت .. صرت أشتهي الولد لأحبه كما تحبك أمك

: شيركا يا ولدي كما كل نساء هذه الدنيا .. مظلومات .. شيركا هي زوجة لرجل تعيس خنزير .. مظلومة يكبرها بثلاثين عاما تزوج قبلها عدة نساء وتركنه , أغراها وأغرى أباها بالمال فعلقت , يقولون أنه لا ينجب .. عندما أتيت في المرة الأولى وتركتنا وغادرت في نفس اللحظة بعد مغادرتك , جاءت وسألتني من هذا الشاب يا سحاب ,

هل يقربك .. قلت لها وما أدراك يا شيركا .. نحن ننجم للناس وليس لبعضنا .. أردت أن استدرجها لتقص ما ترى .. قالت لا ليس تنجيماً يا سحاب .. ليس تنجيماً هو يشبهك جداً ولهفته عليك لهفة قريب جداً ولهفتك أنت عليه ليست لهفة عادية .. قلت لها .. إنه ولدي يا شيريكا .. عاد إلي من سوريا .. كان يعيش هناك وبحث عني ووصل .. يا ولدي دعني أضع ما أحضرته لك نأكل ونتحدث

القيت رأسي للخلف .. أحسست أنني ألقي كل ما فيه خلفي .. أحسست أنني على بر الأمان أغمضت عيني عندما فتحتهما كان الطعام على الطاولة الصغيرة وأمي سحاب وشيركا تنظراني حتى أستيقظ

: غفوت كثيراً ؟ .. مرحباً شيركا الجميلة الطيبة

: كنتَ متعباً أليس كذلك ؟

: أهلاً بناجي الرائع بيننا

: يا أمي كلما أصل عندك أغفو ألم تلاحظي ذلك ؟ ليس من التعب يا أمي فقط .. الطفل يا أمي , عندما يصل إلى حضن أمه يحسّ بالأمان والدفء فينام

: غلبتني يا ولدي .. هذا يملؤني سعادة , وأعود سنيناً إلى الوراء - يلا - تفضل يا ولدي , شيركا ستشاركنا

: لا .. أنا سبقتكما

: لا .. سنتشارك تفضلي

زيارتي لأمي سحاب أراحتني جداً ولبعض اللحظات نسيت الموضوع , أخذ الليل ينشر قمصانه فوق حبل الأفق , وأنا ما زلت هنا صامتا أستمع افهم القليل القليل مما يدور ,بين الناس الذين امتلأ بهم البيت , لأنهم كانوا يتحدثون بلغتهم , أمي سحاب كانت دائما تتحدث بالعربية وترد عليهم باللغة العربية لكي أفهم , أغلبهم كان يتحدث وكأنني واحدا منهم وأنني أفهم كل ما يقولون يتحدثون ويوجهون الحديث إلي فأنا بالنسبة لهم تحصيل حاصل وكانت تتولى أمي سحاب الرد عني .. ومن خلال الرد يتضح فحوى الكلام , كنت كالأخرس أوزع الابتسامات على الجميع محاولا بكل ما أستطيع أن أوهمهم أنني أفهم عليهم قليلا , أمي سحاب قالت لهم – ناجي نسي لغة الغجر لأنه عاش في كنف امرأة كانت وحيدة تركه أبوه بعد أن سرقه مني ليحرق قلبي بغيابه , أبوه ترك الغجر وعاش بين النازحين اللوائيين , ثم تركه لتلك المرأة وغادر لا تعرف إلى أين , العجوز أخبرته كل شيء قبل أن تموت , وقالت له أبوك قال لي إن أمك وأهلها يعيشون في بيروت إن مت اذهب وابحث عنهم , لن تضيع هم غجرا , اسأل عن امرأة اسمها سحاب , كنت محط انظار

الجميع وخاصة البنات , أحد النسوة تكلمت مع امي سحاب , من ردها عليها فهمت منه أنها كانت تقول أن من كنت في كنفها كانت غنية , أجابتها – نعم كانت غنية من أغنياء السويدية ولم يكن لها أولاد مات زوجها وأقرباؤه يعرفون أن ناجي ليس ولدها فأخبرته وتركت له كل ما تملك من نقود .. ناجي هنا من سنة وبقي حتى وصل سنة – في العاشرة بدؤوا يغادرون واحداً بعد الآخر , الذين غص المكان بهم ولم يعد مكانا لجلوس أحد حتى بعض النسوة والبنات والشباب جلسوا على حافة الطريق لبعض الوقت وغادروا , بقيت شيركا وامرأة وبنت في الخامسة عشرة من عمرها , لطيفة جميلة لولا قلة النظافة , عرفت من أمي سحاب أنها أخت شيركا وابنتها , صرن يتحدثن دائما بالعربية , وصرت أتحدث معهن .. شيركا الطيبة تتمنى أن تبقى ملاصقة لأمي .. شيركا التي لم تُزح عينيها عني لحظة واحدة وهي تودعنا عانقت سحاب .. وهي تبكي كم أنت محظوظة .. (الله يهنيك)

: شيركا الطيبة الغالية أنا أثق إن الله سينظر في عينيك وسترين

بقيت أنا وأمي سحاب وحيدين قلت لها

: هل أنت سعيدة يا أمي

: أحس أنني عدت صبية .. أنت فتحت لي أبواب الدنيا يا ولدي .. أنا سعيدة ولكنك أنت .. لست سعيداً .. كأنك لست سعيداً بأمك الجديدة .. عندما تسلو لبعض الوقت .. أرى السعادة تخرج من عينيك , وبعد لحظات يعود هذا الحزن اللعين إليهما .. أنا أعرف أنك بحر من الأسرار , وأعرف بأنني يجب ألا أسألك أي شيء , فعندما يحين الوقت ستتحدث وسأكون بئرك وسترك وغطاءك

: لأنك أمي .. والولد لا يجوز أن يكذب على أمه .. مهما كان وكيفما كان .. لذلك دعيني أتحدث لك بكل ما عندي وبمنتهى الصدق , ولكن في الوقت المناسب .. أنا يا أمي أتعس مما تتصورين .. أنا تعبان وجداً .. صاحب الفرن استغنى عن عملي بعد أن عاد أحد عماله , حتى لم يدفع لي أجري عن الاسبوع الأخير .. يا أمي .. هذا اللباس الذي خلق مني أميراً أتاني بدون أي مقابل .. يا أمي أنا لا أريد من هذه الدنيا شيئاً وأعتقد وأجزم ولا أنت ولا شيركا ولا أي غجري ولا أي إنسان , إلا أن يعيش .. بلا ظلم .. بكرامة

: أي كرامة يا ولدي .. وأي ظلم .. يا ولدي هذا الكون غابة وحوش الأقوى يأكل القوي الأضعف والأضعف يأكل الأضعف منه وهكذا .. يا ولدي الكرامة أن تستغني عن الناس كل الناس .. الكرامة في دواخلنا وليست عند

الآخرين .. والظلم يا ولدي أحد مكونات الإنسان , فعندما لا نجد من يظلمنا , نظلم أنفسنا إلا ما ندر والنادر لا يعمم يا ولدي وهؤلاء .. الذين لا يظلمون , هم أناس تخلصوا من موبقات الإنسان فيغادرون هذا الكون

: قُلتِ كل ما في داخلي يا أمي .. كنت أعتقد أنني سأبقى في الفرن لفترة طويلة وأفتح صفحة جديدة مع هذه الحياة وخاصة بعد أن قادني القدر إلى حضنك , يوم التقيتك أول مرة كنت أبحث عن حرج أتكور فيه وأبكي أفرغ فيه قهري ووجعي وألمي .. كنت أبحث عنك .. أنت بالذات .. قال لي القدر هذي هي أركع عند قدميها فركعت .. وها أنا كما رأيتني أول مرة في قمة تعاستي ووجعي .. هذه المرة يا أمي ليست يداي وكتفاي من تنزّ جروحهما وقروحهما .. هذا المرة الظلم يا أمي من تنزّ قروحه - قلت ذلك وهممت بالوقوف –

: إلى أين ؟

: سأذهب

: لن تذهب الساعة تجاوزت الحادية عشرة .. لن تذهب .. هذا بيتك المتواضع .. يشبهنا أليس كذلك ؟

: الأفضل أن أذهب .. غداً لدي بعض الشغل في بستان الخواجا فريد

: في الصباح تذهب .. اليوم لن تذهب أبدا .. وغدا عندما تنتهي تعود أكون بانتظارك وإن سبقتني هذا المفتاح إياك أن ترفض هذه المرة أبقه معك يا ولدي ليس ثقيلا .. وهذا بيت أمك التي تحبك وتخاف عليك أكثر من عينيها .. يا ولدي ليس بيني وبينك مصلحة في هذا الكون إلا الحب الذي جمعنا الحب الحقيقي الحب الذي لا يضاهيه ولا يشبهه حب في هذا الكون .. حب الأم لابنها والولد لأمه .. لا تتركني يا ولدي أنا أحتاج لوجودك , وأنت تعبان .. تأتي تؤانسني وأوانسك

: سآتي وسآخذ المفتاح ولكن اتركيني على راحتي .. أنت الحضن الذي ألجأ إليه في تعبي وفي وجعي , فيه أتمدد وأرتاح وألقي همومي وغدر الزمان وبؤسه .. كوني على ثقة .. لن أغادره إلا إلى القبر هذا وعد وعهد .. وسأبقى عندك اليوم وغداً ليخلق الله ما يشاء .

(22)

ها أنا ..

بِلا حزني .. بلا فرحي

يحملنِي ظِلي إلى شبَحي

وها هي المرافئُ ترحل

فأينَ ندلقُ تعبنا كل مساءْ ؟

والدتي الحبيبة ...

لم أعد أستطيع النوم إلا في بيت الأم سحاب , جربت لم أفلح , الكوابيس قتلتني .. صورة الرجلين لا تغادر ناظري أبداً وصورة الدرك وهم يكبلونني .. والمشنقة

اليوم غادرت البيت في السادسة .. قلت أذهب إلى بستان الخواجا فريد أعمل أي شيء المهم أن أشغل نفسي عن هذه الكوابيس التي تأتيني في الحلم واليقظة , رأيت الخواجا وزوجته من بعيد كانا يشربان القهوة على شرفة المنزل , حاولت العمل لم أستطع .. كنت مرهقاً .. منهكاً .. جلست عند جذع شجرة ليمون وأسندت رأسي ونمت .. أيقظني صوت الخواجا فريد وهو يناديني ويحدق بي .. أنت تعبان وجهك أصفر .. كأنك مريض .. اذهب وارتح في البيت

: صباح الخير خواجا .. أردت أن أرتاح قليلاً فسهوت

: لا .. لا أنت تعبان .. هل تشكو من شيء ؟

: لا .. لا الحمد لله أنا منيح

: يا عمي وجهك أصفر وعيناك غائرتان اذهب وكُلْ ونم , وبعدها إن شاء الله تصير بألف خير المهم أن تنام جيداً

لم أجد ما أرد به على الخواجا , غادرت إلى الصنوبرة وجلست وصرت أبتهل أن تأتي جمانة .. انتظرت

كالعطشان الذي يبتهل لقطرة ماء .. لبحر يطفئ هذه النار المتقدة ويغرق هذا الخوف .. ليأتي بالنعاس .. أيتها الأنثى .. الأم والأخت والحبيبة .. أريد أن أغفو .. قليلا من النوم .. قليلا من السكينة . لم تأت جمانة .. لماذا لم تحس بي هذه المرة .. هذه المرة أنا بحاجة إليك أكثر من أي يوم آخر .. أكثر .. أكثر . غادرت إلى أبو جورج وأم جورج .. كأنه وأم جورج كانا ينتظرانني

: يا ولدي أنا وأنت تعاهدنا على الصدق والوفاء والأمانة .. وفيت باثنتين وخلفت بواحدة

: كيف أيها الرجل الطيب النبيل .. كيف أيها الأب الذي لم يتسبب بمجيئي إلى هذه الدنيا البائسة

: عهدتك وفيا حتى أذهلتني وجعلتني أحب الناس وغيرت نظرتي للكون وآمنت بأن النساء ما زالت تلد أناساً أوفياء .. وكنت أمينا لدرجة أثق بك كنفسي .. أما الصدق فهذه الأيام .. لست صادقاً معي .. يا بني هناك أمر ما يحدث معك لم تخبرني عنه , قلت يمكن أن يكون أمراً شخصياً جداً , وأنا مع أن يكون للإنسان أشياء تخصه وحده , ولكن كأن الأمر ليس شخصيا , يا بني أنت لا تشبه نفسك .. أنت كالذين يخرجونهم من القبور .. تعبان مرهق .. مصفر الوجه .. شارد الذهن .. تغط .. وتغيب .. ما الأمر يا ولدي

.. اشركنا ربما نساعدك .. على الأقل ترتاح عندما تجد من يستمع لك

: أيها الأب الحنون .. كل ما في الأمر الظلم صعب .. الإحساس به وأنت لا حول لك ولا قوة صعب أيها الأب الحنون , سأتغلب على الأمر .. أمهلني قيلاً .. هناك أمر يزيد عليّ ويرهقني هو القلق وعدم النوم .. هل لديك دواء لهذا ؟

: نعم لدي .. قم واذهب الآن إلى الصيدلية هي عند كوع قبيزي .. قل للصيدلي أنك تعاني من القلق وعدم النوم وعد تكون خالتك حني قد أحضرت لك لبن وتوم وستنام

: حاضر .. سأفعل الآن

ذهبت إلى البيت تحممت بماء بارد وغيرت ملابسي وذهبت إلى الصيدلية .. أعطاني علبة فيها ست حبات : حبة عند اللزوم .. وانتبه يجب ألا تكرره كثيراً فالإدمان عليه يجعلك لا تنام بدونه

: ها قد فعلت ما أمرت .. أعطاني هذه وقال لي إياك أن تتناولها دائما فالإدمان عليها يجعلك لا تنام بدونها

: أرني

ناولني حبة ووضع العلبة في جيبه

: اشرب كأس العيران وادخل ونمْ , وعندما تحتاج لحبة أخرى قلْ لي

: حاضر

شكرته بحرارة وهممت بالمغادرة

: يا بني ادخل ونمْ هنا

: سأذهب إلى البيت

(23)

نعم : أنت الحسابات الخاسرة ؛

المسجاة على أسنة الوقت

أنت الياسمين الطالع ؛

من غير توقع ..

من الأمكنة المنسيّة ..

على أطراف القلب ..

من لهاث القشعريرةْ

أنت منحتني

عندما حرمني الكون ...

جسداً .. تتعتق فيه خمرة الروح

وثغراً .. يختزن دوالي الكرم

أنت غجرية أرصفتي

وشعاب تشردي

وأبواب مساجدي

وفواتح صلواتي

وسواد حشمتي

وبياض السريرةْ

وجه أنثاي .. أنت ؛

ناصع في الليالي الماطرة

وأنت الجبال العذراء

و الرمال ؛

حين تبكيها السماء

أنت – القيامةْ

أنت البنفسج المبلل بالرضاب

أفق مجون عينيَّ

شفة من ورد

وأسراب لقالقٍ

وتفاصيل ...

يليق بها فقط – البوح

ووجع الندامةْ

نعم : أنت – أنا

واحد لا يقبل القسمة ـ إلا عليك

أيتها المحشوة بالطيور الجارحة ؛

وأنا قربانها

كلما التهمتني ؛

أولد من جديد ؛

لسانا لاهثا ,

صبوة ماجنة ,

مجنوناً ؛

طاعنا باللذاذة ,

غريقاً ؛

والبحر أنت

وأنا لا أريد السلامةْ

والدتي الحبيبة ...

لا أدري هي القناعة الجوانية , أن .. يجب أن أعيش .. أن أتعايش مع الحادث .. أن أعيش مع مقولة والدي من ركبها لا أحد يستطيع قطعها إلا بإرادته .. ويجب أن أقبر خوفي وجزعي ورعبي .. أو أن اللبن والثوم وحبة الصيدلية فعلت فعلها , نمت كما الموتى .. استيقظت على دق الباب

: أهلاً .. أهلاً .. تفضل

: يا رجل أرعبتني .. دقيت في التاسعة لم تفتح .. رحت وعدت في العاشرة .. دقيت كثيراً لم تفتح , ذهبت إلى دكان مخايل سألته قال لي لم يرك منذ الأمس .. أيقنت أنك هنا وراودني الخوف .. حتى الجيران انتبهوا .. الست قالت لي من الأمس لم نره .. إن لم يفتح اخلع الباب أخاف أن يكون به شيئاً .. هي من شجعني , لو لم تفتح كنت سأخلع الباب

: من يومين لم أنم .. قال لي أبو جورج اذهب إلى الصيدلية وقل له فهو يتدبر الأمر وشربوني لبناً مع الثوم .. كم الساعة ؟

: إنها الثانية عشرة والنصف

: لولاك كنت نمت ليوم غد .. ماذا حصل معك ؟

: أعتقد أن الخواجا يوسف أفضل .. هيئته أكابر هكذا قرأت .. حكيت معه من أجلك , قال لي في بحر اسبوعين وممكن أقل سيغادر شاب إلى سوريا وعندما يغادر المكان لك .. لن نشغل غيره مادام من طرفك .. ماذا فعلت أنت ؟

: لا شيء .. أذهب إلى بستان الخواجا فريد أمس وقبله لم أستطع العمل بسبب الارهاق من قلة النوم وكما ترى

: يلا .. هانت .. أحياناً يبقى العامل شهراً كاملاً بلا عمل ولا يمل .. أنت لست كما عهدتك .. أين صبرك - يا أخي اذهب (كسد) اعمل سياحة – اعتبر حالك في الضيعة .. يا رجل وجهك كمن يخرجوهم من القبور .. لم أقل لك , لأنني أعرف ما يجول في خاطرك .. كأنك ستخيب أملي فيك (بدها صبر) أليست هذي مقولتك وهذا شعارك ؟!

- يا أمي .. لو يعرف يوسف ما حدث لي ومعي لما حاضر بي .. معذور أبو الزوز .. هذا الرجل الذي ملأ الكون بالنسبة لي رجولة وشهامة وكرم وحنان وأبوّة وأخوّة وكل شيء-

: أيها الكريم النبيل الرائع .. خلص .. أعدك .. أنني لن أخيب أملك وسأكون أقوى مما تتصور .. القلق أفقدني القدرة على النوم الآن أنا أفضل .. هي محنة وتعدي

غليت الشاي وأكلنا ونحن نأكل لاحظ شرودي

: والله العظيم أنت بك شيء .. ولم تقله لي .. إياك أن تكون (عشقان ؟!) هنا العشق مصيبة .. (كلهم خواجات .. ما فيك عليهم)

قال ذلك وهو يبتسم بحب

: عشق .. العشق يجعل الانسان طائراً مغرداً .. يحلق ولا يسقط .. وإذا سقط يسقط على غيمة على بيدر على رياض من الجمال والعذوبة .. هي غمة أيها الصديق الصدوق والأب الحنون والأم الرؤوم .. هي غمة وأعدك أن أزيلها وأمحوها

: أيها البطل الشاعر العاشق (ها أنا أكلت أكلاتك يلا بخاطرك)

: إلى أين بكير ؟ معك وقت كثير

: عندي شغل .. لا تسألني لن أقول لك

: لن أسألك .. مع السلامة

غادر وكنت سعيد بمغادرته فموعدي مع جمانة اقترب

: العوافي أيها الطيب النبيل

: المسيح يعافيك .. أنت من أين تأتي بهذا الكلام ؟ طمئني عنك كيف صرت ؟ أتى جوزيف وسألني عنك .. ألم تكن بالبيت ؟

: بلى كنت بالبيت .. كاد يكسر الباب , الست سارة قالت له إن لم يفتح الباب اكسره لأنه منذ أمس لم يخرج .. دواؤك كان فعالا .. نمت كالموتى

: الحمد لله .. (المهم صرت منيح .. اعتنِ بنفسك منيح كله رايح)

دخلت نظفت في الدكان ورتبت وكنست أمام الدكان وأضفت للبحرة ماءً

: أنا ذاهب هل لديك أي شيء أفعله قبل أن أذهب

: لا .. لا تتعوق

: حاضر .. سلام

ذهبت وناجي الجواني أقنع ناجي البراني , أن أنسى ما حدث .. جوزيف معه حق .. يجب ألا نَعرْ أي أمر مهما كان كل وقتنا .. لندع الأمور تمشي كما تشاء .. فقط قليلاً من الحذر .. وإلا تحول خوفنا إلى مرض حقيقي وقاتل .. نقتل أنفسنا بأنفسنا .. هي مشيئة .. فلتكن .. ولنعش حتى تأتي كيفما كانت .. ولكل حادثٍ حديث , عندما وصلت صعقت .. كانت سيارتها تنتظر .. لقد سبقتني

: لماذا تأخرت ؟ أقصد لماذا لم تأت اليوم أبكر – قالت ذلك وهي تبتسم – أقصد أنت أتيت قبل الموعد بنصف ساعة وأنا سبقتك .. أنا اليوم أكثر شوقا منك – نظرت إليّ مليا – هل أنت مريض ؟

: لا .. لا .. تخافي .. سأروي لك كل شيء ولكن ليس الآن

: متى

: بعد ساعة على الأقل

: ابتسمت وأسرعت قليلاً

بعد ساعتين أفرغت كل وجدي وشوقي في كل مسام من جسد جمانة وهدأت كل أسراب يمامي على أغصانها وصارت تقص عليها الحكاية

: هذه الحكاية ناقصة يا ناجي .. هذا الارهاق وغياب النوم عنك ليس هذا سببه , هذا السبب بسيط إذا قيس بما أنت فيه , هناك شيء آخر تخفيه

: عندما يقتاتنا الظلم .. لا نتذكر فقط آخر ظالم .. يمر الظُلّام أمام عينك كشريط مصور , تتشابك صورهم ببعضها مع الأيام , فتصير مجتمعة سبباً واحداً يؤرقنا ويسلبنا أي معنى أو قيمة للحياة وتصير الحياة بحد ذاتها وسيلة للانتقام منك .. المهم أنني كنت بحاجة إليك .. جداً .. عندما تكوني أكون رجلاً يستطيع أن يفعل أي شيء وعندما تغيبي أصير ورقة في مهب الريح .. عندما تغادريني يقتلني البرد والجوع والخوف

: بالنسبة لذلك الحقير التافه دواؤه عندي سأرسلك لمن يكسر رأسه ويدعس عليه أما بالنسبة للعمل سيأتي ولكن

كن صبوراً (كسدر) .. أنا أريدك أن تمشور .. أنت كل شيء بالنسبة لي في هذا الكون .. انتبه لنفسك إكراما لي .. كُلْ ونم وكسدر .. والمال ولا يهمك أبداً .. أنا أعرف أن هذا يزعجك , ولكن تخلى معي .. معي فقط .. عن قضية أنك تأخذ مالاً من امرأة .. أنت حبيبي .. أنا حبيبتك .. أنت أعطيتني ما لو اجتمع الكون كله لما استطاع أن يعطيني مثقالاً منه .. لذلك تصرف على أنك لا تأخذ مني شيئاً .. وعندما يأتي الشغل أنا أول من يشجعك عليه .. أنا أعشق فيك عفة نفسك وإباءك .. وأنا أريدك أن تبقى تعمل .. الرجل بدون عمل لا قيمة له .. الرجل الذي يترك عمله عامداً , ويعيش عالة .. صائعاً ضائعاً .. هذا ليس رجلاً .. ولكن أنت لست هذا .. الذين في سنك في كل العالم لا يعملون .. لم يحن وقت عملهم .. أنت رجل سبق كل شيء , ويسابق الحياة .. وأنا أعشقك لأنك هكذا .. أريدك أن تجرب الناس والحياة .. فالتجارب مصنع الرجال والنساء .. والصعاب هي التي تصقلنا وتصنع منا أناساً رائعين عاهدني أن تكون كذلك – وطوقتني وملأت فمي بشفتيها ورحنا – عندما صحونا كانت الشمس تلوح مغادرة نحو عالم آخر

: غداً سأمر عليك في العاشرة , سأوصلك إلى نابية هي بلدة جميلة ليست بعيدة ستنزل بالقرب من بيت شخص اسمه سمعان ناصيف , هو سوري قومي اجتماعي , هو

صديق ورفيق لأحد أصدقاء العائلة أنا لا أعرفه شخصيا ولكنني أعرف أن بيته في نابية ومن خلال حديث الناس عنه يقولون أنه رجل ولا كل الرجال , يحب الشاميين أقصد السوريين .. احك له قصتك مع صاحب الفرن وهو سيتكفل به , وإذا سألك من دلك عليه .. قل له أنك كنت تتحدث عن صاحب الفرن أمام بعض الشغيلة وهم دلوك عليه .. قل له كل السوريين هنا يعرفونك بالاسم ومنهم من يعرفك شخصياً , هو سيدافع عنك وسيأخذ لك حقك وحق جوزيف كمان , أنا لا آخذك إليه من أجل المال أبداً , بل ليأخذ هذا الخنزير درسا للمرات القادمة مع غيرك .. سمعان قدّها وقدود , القوميون رجالٌ لا يهابون الموت , وكل الناس تحسب لهم ألف حساب وسترى ماذا سيفعل به

مسكت يدها وقبلتها

: انتظرك غداً

: كم أنا ودائماً بحاجة إليكِ .. لا تتأخري عليّ

: وأنا أكثر منكَ .. في اليومين الماضيين أحسست بشيء يدفعني للمجيء .. كنت سآتي .. قلت هو مجرد اشتياق .. ووبخت نفسي .. ألا تستطيعين أن تغيبي عنه بضع أيام , واحساسي كان يقول لي هناك أمر ما .. عقلي وخجلي

منعاني من المجيء .. لن أكررها وسألحق احساسي معكَ إلى آخر العمر .. فهو الأصدق

: لو تعلمين من أنت .. ما مكانك .. بالنسبة لي ؟

: بلى أعلم .. وأعلم أنك كل شيء في هذا الكون لي جميلاً .. نلتقي غداً أوصلك وتعود بالسرفيس إلى ساحة البرج ومنها تعود بالسرفيس إلى انطلياس

(24)

هذا الحلم يراودني

منذ راودتني عينيك أول مرة

كلما أطبقت جفنيَّ

تأتين من الغيم البعيد

مكللةً بالندى والنبيذ

وناهدات الكروم

أتأبطك .. نحطُّ رحالنا

في شفيف الروح

حيث يهطل القمر ندفه

بعيداً عن طحنِّ الحياة

و مداحل الطاعنين بالظلام

دائماً أناديكِ

ودائماً تأتين

وإلى حلمي

لا تُضيّعين الدرب

تملئين قلمي

بحبر العشق المجنون

لأكتب لك .. عنك

فوق ياسمينك .. أطفال لوزك

مهجتي .. نبراس الكلام

دائماً يناديك حلمي

ودائماً تأتين

موشومة بليلى الكروم

تتوغلين في نهدتي

إلى شراييني .. إلى عناويني

تضيئين عتمة روحي

بفجر شمسك الباسمة

فينمو قمحك

فوق شغاف القلب

فيفرخ حبك قصائدَ .. كالحلم

كأسراب الحمام

والدتي الحبيبة ...

جميلة نابية .. جميلة حدّ السحر تستريح فوق هضبة تطل على البحر كالصقر المتأهب , في الطريق إليها جنائن

كأن الخالق رسمها بمنتهى التأني والعشق .. بصاليم .. بيت مري .. نابية قرية تشبه المدينة ومدينة تشبه القرية , ناسها مدنيون جداً يسكنون قرية , وقرويون جداً يسكنون مدينة , يخترقها طريق معبد يتلوى كالأفعى يتفرع عنه دروبٌ كأرزة تفرش أغصانها في كل الاتجاهات , تترادف الأبنية ذات الطابق والطابقين أحياناً وتتباعد أحياناً , سكانها يعرفون بعضهم أبا عن جد , ويعرفون كذلك كيف يفكر كل منهم لذلك بإمكان صاحب الدكان أن يعدد لك كل شخص بشخصه ويخبرك متى ولدته أمه وفي أي صف يقف ومن يكره ومن يحب من هو البخيل ومن هو الكريم من هو الشجاع ومن هو الجبان من لا يهاب ومن هو الذي يُحسب له ألف حساب من الجميع , ليس في نابية بل في المناطق المجاورة وأغلب الأحيان يكون معروفاً على مستوى كل بيروت وأحياناً في كل لبنان وليس ضرورياً أن يكون جثة أي ضخماً , طويلاً وعريضاً ذا عضلات , بل أن يمتلك قلباً كالحديد , شرساً كالأسد وحوله عائلة كبيرة و مناصرون حاضرون دائماً , عندما يطلبهم . هذا محور حديث جمانة عنه ونحن في الطريق , وقالت .. سمعان رجل عادي عندما تراه ولكن كل بيروت تعرفه .. سوري قومي اجتماعي , منذ طفولته كان شرساً كالليث .. كان يغلق شارعاً بمفرده .. يقولون أنه يمتلك قبضتين كالفولاذ وقلباً لا يعرف الوجل .. حكاياه

يعرفها كل أهل المنطقة , وكل أهل المنطقة تعرف عائلته فهم سوريون قوميون منذ أيام الزعيم هذا ما أعرفه عنه .. أنزلتني بعد ساحة صغيرة وقالت لي

: عندما تنتهي تعود إلى هنا وتعود بالسرفيس إلى بيروت وهناك ستجد الكراج إلى المنطقة التي تريد فتعود إلى انطلياس وبعد غد نلتقي كما تحب .. مع السلامة

: مع السلامة

نزلت من السيارة ورجعت إلى الخلف كما أرشدتني (اسأل أي دكان تجده) اتجهت نحو الدكان الذي ظهر أمامي

: مرحبا

: أهلاً

: بيت سمعان ناصيف لو تكرمت

: انظر هو على البلكون – وأشار بيده –

: شكراً تفضلت

: أهلاً وسهلاً

لم يكن بعيداً , فقط عبرت الشارع , وكأنه لاحظ صاحب الدكان وهو يدلني عليه فانتظرني

: مرحبا

: أهلاً وسهلاً تفضل

دخلت وصعدت الدرج , كان ينتظرني في الطابق الثاني على الباب , استقبلني بمنتهى التهذيب والترحاب

: أهلاً وسهلاً تفضل

دخلت خلفه وهو يقول

: أنا أشرب القهوة .. أتشرب معي أم تشرب شيئا آخر ؟

: غمرتني بكرمك وفضلك لا أريد شيئاً

:(ما بيصير)

: أشاركك القهوة

مررنا بالصالون الأنيق الجميل المليء بالتحف , والمزدان باللوحات الجميلة والتي يغلب عليها الطابع السياسي منها لوحة كبيرة لوجه رجل جانبي محفورة بالنحاس عرفت فيما بعد أنها للزعيم , مررنا إلى الشرفة وجلسنا

: أهلاً وسهلاً

: أهلاً بك سيدي .. أنا قاصد حماك .. أنا من سوريا .. أقصد من الشام

: أهلاً وسهلاً .. وصلت ..

قصصت له حكايتي بدقة وبإيجاز

: أهلاً وسهلاً .. بالرغم من أن مظهرك لا يدل على أنك عامل .. للوهلة الأولى وقبل أن تتكلم ظننتك من بيروت آتياً إلي بمهمة (برابو عليك .. أحببتك) رائع أن يكون الشاب مثلك .. ولكن يا ولدي أنت صغير على العمل , من أتى بك إلى هنا ؟

: غمرتني يا سيدي بلطفك .. شكرا لك لأنك تحبنا وتدافع عنا .. الظروف يا سيدي أتت بي

: من دلك عليّ .. ومن قال أنني أدافع عنكم
: كل السوريين يعرفونك , من لا يعرفك شخصياً يعرفك بالاسم , وكلهم يقولون أنك لا تقبل أن يذل السوري , وكلهم يحبونك , واسمك معروف عندنا في قرانا , العمال هنا عندما عرفوا بقصتي , تحدثوا عنك .. سألتهم عن عنوانك فدلوني الحقيقة وبمنتهى الصدق , القضية ليست بمستوى أن تتعب نفسك بها وليست على قدر أن تشغل

نفسك بها , ولكنني أتيت رغم أن يوسف .. جوزيف .. قال لي (مو مستاهلي لنترك الرفيق سمعان للقضايا الكبيرة) ولكنني تجاوزته لأنني أحس أنه ظلمني وأهانني وطردني بدون أي ذنب اقترفته .. طردني ولم يعطني أجري ومن وجع جوزيف وألمه ترك العمل لأجلي ورفض كذلك أن يعطيه أجره

: هذا الكلب لن يتوب , سأمسح به الأرض وسيدفع ورجلي فوق رقبته , اشرب قهوتك .. أنا كنت نازل الآن إلى بيروت ستذهب معي وسنمر على هذا الحيوان وسيدفع دبل

تركني وعاد بعد قليل , كان كما وصفته جمانة تقريبا متوسط القد .. له عينان كعيني الصقر هيئته تشي لمن يراه بأنه متحفزٌ دائماً ومتأهبٌ لشيء ما , قليلاً ما ينظر إليك وهو يتحدث , ليس عبوساً ولا مبتسماً , يتحدث بدون تكلف , ودائماً صيغة الكلام عنده كمن يصف أمراً محسوماً ومنتهياً , أمام فرن الأرز أوقف سيارته المرسيدس ودخل , ودخلت خلفه .. ميشيل محاسب الصندوق غادر مكانه ومشى باتجاهه وهو يرحب به

: أين معلمك ؟

: أهلاً وسهلاً خواجا سمعان أهلاً وسهلاً

: أين معلمك ؟

: لم يأت بعد

: ألن يترك زعرناته وقلة ذوقه قل له ناجي وجوزيف يخصوني .. غداً سيمر ناجي وليترك أجرهما عندك لناجي خمسين ولجوزيف مئتين - خمسين ومئتين - سمعتني ؟ غداً ؟ وإلا لكل حادث حديث وقل له .. بلاها هذه التعديات وهذه المراجل على الفقراء (هيك ما بيميشي الحال .. ايه)

وغادر بدون سلام وغادرت خلفه , عند باب السيارة شكرته بحب ومودة

: تعال بكرا أنت وجوزيف وسيترك أجركما حتماً وإلا عُدْ إلي

: سأزورك دائماً إن كنت تسمح

: أنت تأتي متى شئت وأحب ذلك جداً أهلاً وسهلاً .. سلام

: مع السلامة .. مع السلامة

غادرته وقلبي ممتلئ بالامتنان والحب لهذا الرجل .. وصرت أفكر هل هناك رجالٌ معجونون بمبادئهم لهذه الدرجة ؟ استعداده الدائم للقتال في سبيلها , وكم إيمانه

شديد بالناس ؟ الناس الذين يملؤون هذه الأرض , التي يعتبرها هي الأصل ومن فيها هم أبناؤها , ورغم وجود معادين لفكرته بل ويؤمنون بالنقيض , وهنا مكمن الخطر عليه , فهو في بيئة لا يشكل أنصاره فيها أكثرية , ولكنه لشدة بأسه وقوة قلبه وأخلاقه العالية واستقامته يحبه الجميع حتى المخالفون لفكره ولعقيدته السورية عندما قصصت على أبو جورج ما حدث قال لي .

: أنا أسمع به وأسمع بغيره كذلك .. يا ولدي لولا الانغلاق الديني والمذهبي كان أغلب الناس يتمنون أن تكون هذه البلاد واحدة كما خلقها الله .. يا ولدي على زماني أنا , كانت العملة واحدة , كان أبي يذهب إلى الشام كل سنة مرة على الأقل ويأتي بمؤنة سنة كاملة , في الشام كان كل شيء موجود وبأسعار زهيدة .. كان أحياناً يستجيب لإلحاحي ويأخذني معه , كانت بيروت حارة صغيرة إذا قيست بالشام , كان في ساحة البرج كراجٌ للبوسطات تذهب إلى الشام وتعود محملة بكل شيء كانت البضائع في داخلها وعلى سطحها , كنا نذهب إلى سوقنا إلى بلادنا لنتمون لم يكن هناك حدود كانت فقط الاستراحات , الآن يا ولدي كل ينغلق على نفسه هذا يشرّق وهذا يغرّب ..

سألته .. هذه الحالة لم تكن حسب معلوماتك في الماضي ؟

: كانت ولكن على نطاق ضيق في بعض الحارات والأحياء , والكثير من سكان هذه الحارات كانوا يغادرونها إلى الأحياء المختلطة والمنفتحة .. كان لوالدي صديق في تلك الأيام يعتبر عالماً .. عالماً في التاريخ والجغرافيا والأديان كافة .. كان خورياً .. سمعته يقول ويسرد .. هذه البلاد أقدم بقاع الأرض كانت مزدهرة جداً قامت فيها حضارات تفوق الحضارة الحالية .. عندما غزاها العرب , كانت الشام جنة من جنان الله هذه البلاد في حدودها الخضراء من البحر السوري إلى حدود فارس .. كانت واحة فيها كل ما خلق الله من جمال وطيب وطيّب , كان سكان المنطقة مستقرين .. ستون بالمئة منهم مسيحيون وعشرة بالمئة يهود والباقي ديانات مختلفة قديمة , ولكنهم كانوا كلهم سوريين لا يذكرون أمام سوريتهم أي شيء آخر .. بعد الغزو قُتل من قُتل وهرب من هرب وبقي من له عمر , حولت المعابد إلى بيوت للدين الجديد , فالجامع الأموي كان من أفخم كنائس الكون استولوا عليه وحولوه إلى جامع , هذه الجحافل البدوية تأثرت قليلا بطباع البلاد الجديدة , والحكام كانوا أكثر اندماجاً مع الوسط الجديد واعتمدوا على السكان الأصليين المتعلمين المثقفين في تسيير أمور دولتهم الجديدة أحد المرات سمعت رجلاً يسأل الخوري .. يا أبونا تقول .. قُتل من قُتل وهرب من هرب .. أين ذهبوا ؟ قال الذين

قتلوا أكثر بكثير من الذين استطاعوا الهرب , الذين هربوا كانت وجهتهم بيزنطة تركيا الحالية واليونان ومنهم من هرب في البحر وبعضهم انضم للدين الجديد

صعقني حديث أبو جورج المنقول عن الخوري فسألته

: عم أبو جورج هل الخوري مازال حيا

: لا يا ولدي مات منذ زمان .. كان أكبر من والدي .. لماذا تسأل ؟

: لو كان حيا لذهبت إليه وزرته

: الخوري أسعد موجود وهو أحد تلامذته وأنا أعرفه وهو موسوعة كذلك ومحب ولطيف , متى أردت أذهب أنا وأنت إليه ونزوره

: يا ريت .. أكون ممنوناً جداً

: سأفعل قريباً

(25)

أمي ...

كانت كل يوم

تخبز ديوان شعرٍ

كل رغيفٍ , كان قصيدة

والدتي الحبيبة ...

: مساء الخير عمي أبو كامل

: الله يسعد مساك يا ناجي .. أهلاً وسهلاً طمئني عنك .. هل من جديد ؟

: الله كريم .. عندما يأذن سأجد عملاً .. أذهب كل يوم إلى بستان الخواجا فريد .. أتسلى .. لم يعد فيه ما أفعله .. الخواجا أمس أتى وسلم عليّ قلت له .. خواجا أنا آتي لأنني أحب البستان – هو شبه حديقة .. أقصد صغير – وليس من أجل العمل بل لأنتبه إن كان بحاجة لشيء , أخرج مالاً وأعطاني , رفضت أن آخذها , وعندما عرف أنني بدون عمل أصر وأعطاني .. أساعد أبو جورج قليلاً وأذهب أبحث عند أصحاب المحلات والأفران .. الخواجا فريد قال لي سيحاول أن يجد لي عملا عند أحد معارفه وصاحب البيت وعدني أن يساعدني .. وبصراحة يا عمي أبو كامل لست مضطراً الآن للعمل في البيتون

: بصراحة أنا سعدت جداً لأنك أهنت هذا الكلب وأخذت حقك منه – قال ذلك وهو يخرج من جعبته نقودا – بارك الله بالخواجا سمعان هذا الرجل شهم

: يا عمي أبو كامل أنا معي مالاً ؛ لذلك قلت لك لست مضطراً - وأخرجت له بعض النقود - ولديّ في البيت كذلك

: يا عمي ناجي خذها ولا تخجل مني , وعندما تعمل تعيدها

: عندما أحتاج لن أذهب لأحد غيرك .. هذا وعد .. أنا أمرّ عليك لأسلّم , أنت متفضل دائماً , أنا فقط أريد أن أراك بخير وصحة

: أنا اسأل لك عن عمل كذلك وعندما أجده سأذهب إليك إلى البيت بنفسي , منذ يومين مررت لم أجدك في البيت , ومررت عند أبو جورج هو من طمأنني عليك .. قال لي ناجي كان مريضاً اليوم هو أحسن , أبو جورج وأم جورج يحبونك كثيراً , ولذلك بصراحة أنا مطمئن عليك كثيراً .. أنت مهذب وأمين وصادق وإن شاء الله قريباً جداً ستجد عملاً مريحاً

: صاحب البيت أمس مرّ كنتُ مع الأولاد قال لي إنه يأمل خيراً , هو لم يعدني ولم يقل شيئاً سوى (عين خير

.) كأن لديه شيئاً ما (ادعيلي عم أبو كامل – بركي بتظبط)

: الله يوفقك ويحميك

: بخاطرك

: الله معك .. مرّ دائما ايه ؟

: (على راسي الله يخليلي ياك)

مررت على الساحة درت فيها مرتين لم أر الام سحاب ولا حتى شيركا تابعت طريقي إلى أمي سحاب فأنا مشتاق إليها جداً , وصلت كان الباب مغلقاً ومقفلاً , لم أكد أفتح الباب وأجلس حتى سمعت خطى .. اعتقدت أنها أمي قد أتت نظرت نحو الباب فإذا شيركا

: أين أنتماً .. بحثت في الساحة لم أجد أمي ولم أجدك

تركت يدها بيدي وملأت عينيّ بابتسامتها الحزينة الساحرة وعينيها السوداوين

: أنا لم أذهب اليوم زوجي مريض .. وأمك كانت هنا منذ قليل ولن تتأخر هي تعلم أنك آت .. صدقني .. هي تعلم متى تأتي وأنا رأيتك من بعيد قلت آتي وأسلم

: تفضلي .. تفضلي

: لدي ما أفعله سأعود وأنا كأمك مشتاقة لرؤيتك

: وأنا أشتاق لك دائماً , وتعرفين كم أنتِ غالية

: أعرف .. سأعود

شيركا أنثى لطيفة جميلة جداً وجهها خمري وعيناها سوداوان حالكتان فيهما حزن عميق, طويلة ممشوقة كحورة , لها ابتسامة يختلط فيها الحزن والبهجة , لا يستطيع القلب ألا يرتجف لها , هذه الابتسامة تشدّك بشدة .. ربما يشدك الحزن فتحس أنك وجدتّ رفيق درب , وربما تشدّك البهجة المتدفقة برؤيتك , شيركا .. إحدى نساء هذا الكون المظلومات كما تقول أم ناجي , أعتقد أنها في الثلاثين من عمرها تزوجها عجوز كأنه يودع الحياة .. شيركا يلزمها أن تكون نظيفة مرتبة وأنيقة كأمي سحاب . لم يطل انتظاري

: أهلاً يا روح أمك

عانقتني بشوق كأنني لم أكن عندها منذ يومين

: يا أمي كلما عانقتني أحسّ كأنك ترينني لأول مرة , أو كأنك تودعينني لآخر مرة

: يا ولدي .. نعم الأولى صحيح .. لو رأيتك في اليوم مئة مرة أحسّ أنني أراك لأول مرة وأحسّ أنني أستطيع أن

أعيدك إلى أحشائي .. ماذا أفعل ؟ أنت ملأت عمري وروحي بأجمل ما تحلم به المرأة , أما الأخيرة - دخيلك يا ولدي لا تقلها أبداً .. إن غبت لن أبقى على قيد الحياة

: كأنك لم تذهبي اليوم إلى الساحة ؟

: بلى ذهبت ..ولكنني عدت باكراً لأطبخ لك شيئاً

: يا أمي أرجوك تصرفي كأنك مازلت وحيدة .. كأنني غير موجود .. يا أمي أي شيء من يديك أجده أطيب وأنظف شيء في الكون , لا تتعبي نفسك بشيء

: يا ولدي النواشف ليست طعاماً .. إنها تقدد الإنسان , وأنا قبل أن تأتي كنت أطبخ كذلك , أنا لا أحب النواشف .. أنا أفعل ما تفعله أي أم في الكون , أنت لا تشغل نفسك بشيء .. كن سعيداً فقط .. والق هموم هذا الكون خلف ظهرك , فلا أحدٌ فيه يستطيع أن يغير فيه شيئاً , هي الأقدار يا ولدي تصنع ما تريد

: أمي .. لم أكد أفتح الباب حتى كانت شيركا خلفي , سلّمت عليّ وأكدّتْ لي أنكِ لن تتأخري , قالت إنها لم تذهب اليوم إلى الساحة .. زوجها مريض .. أمي هذه المظلومة كما تقولين .. تحبكِ جداً وأنا أحبها لأنني أحسّ بصدق حبها لك .. أمي .. شيركا .. لماذا لا تكون مثلك ..

أمي .. من يحب شخص كل ما يقوله له يسمعه وينفذ .. لماذا لا تجعلينها تشبهكِ ؟

: - ابتسمتْ - كيف يا ولدي لم أفهم ؟!

: أن تهتم بنظافة ثيابها ونفسها

: هكذا تراني ؟ _ سألت وهي تنظر إليّ وعيناها الخضراوان تموج فيهما دمعة حيرى – قمت وطوقت رأسها وهي جالسة – .. أنت لا تشبهيهم أبداً .. أنت أمي سحاب النظيفة الأنيقة التي تفوح منها رائحة الياسمين .. أنا لا أراكِ .. أنتِ هكذا

وقفت وضمتني وراحت تقبلني بشكل جنوني وأينما يقع ثغرها

: نعم يا ولدي .. أنا لا أشبههم أبداً .. كم أحبك .. سأفعل يا ولدي سأفعل .. سأنبهها وستستجيب لي أنا واثقة

: بدون أن تجرحي مشاعرها

: لا تخف يا أرق وأغلى من في هذا الكون على قلبي وعقلي وروحي .. لا تقلق هي تقبل أي شيء مني وأنا أحبها وأحسّ بمظلوميتها – قالت ذلك وهي تغادر لتضع الطعام وتابعت – أراك اليوم مرتاحاً هل من جديد ؟

: نعم يا أمي هناك جديد عندي , أنا قررت أفعل كما قلت من لحظة .. أن ألقي خلفي كل هذا الكون .. قررت أن أعيش يومي كما هو .. أن أنسى .. أن أترك الأيام تجري على أعنتها .. البيت الذي أسكن فيه صاحبه وزوجته وأولاده يحبونني , عندما أغادر ينادي الأولاد .. لا تتأخر نحن ننتظرك .. غرفتي في طرف البستان , هو بستان صغير أنا أعتني به ملأته ورداً وحبقاً وياسميناً وصنعت فيه بحرة جميلة للأولاد صارت شغلهم الشاغل وأنا أهتم بهم وأحبهم .. ذهبت لأدفع لهم الأجرة قالت لي الست .. نحن يجب أن ندفع لك وسألني الزوج .. كأنك هذه الأيام بلا عمل .. وعدني أنه سيحاول إيجاد عمل لي سهل أحسست أنه جاداً وأن لديه شيئاً لم يفصح عنه .. وأنا لا أنتظر .. أذهب كل يوم أدور على المحلات والأفران .. يا أمي عمل البيتون صعب سأحاول ألا أعود للعمل فيه .. سأحاول .. وأنا وأنت وحيدان وغريبان أي شيء يكفينا والنصيب عندما يأتي .. أقصد الرزق .. لا أحد يستطيع أن يمنعه .. لذلك ناجي الجواني أقنع ناجي البراني .. لا شيء يستحق هذا التعب .. وها أنا كل يوم آتي إليك أطمئن عليك وأرتاح تحت جوانحك .. بالمناسبة ما رأيك أن تذهبي معي إلى غرفتي وتتركي معك كذلك نسخة من المفتاح وترين ذوقي في الترتيب والزراعة

: نذهب غداً

: لماذا غداً نذهب الآن

الآن نحن هنا وخيم الليل .. بالمناسبة لماذا لا تترك غرفتك وتأتي إلي وتسكن معي

: ليس الآن .. ستتركين أنت هذا البيت وأنا أترك غرفتي ونجد مسكنا لنا نحن الأثنين .. عندما يحين الوقت

قطعت شيركا حديثنا

: ألم تشتاقوا لي .. أنا اشتقت

: أهلاً شيركا .. أنت ابنتي الغالية وتعرفين ذلك .. من لحظة كنا في ذكرك أنا وناجي

: أنت غالية يا شيركا .. من يحب أم ناجي أنا أحبه وأنا أثق بحبك لها

: أم ناجي لم يبق لي في هذا الكون سواها بعد أن مات أبي وأمي .. لم تخبراني بماذا كنتما تتحدثان عني

: ناجي كان يقول لي شيركا تحبك

: وأنا أحبكما – وتوجهت نحوي – صرت أنتظر اطلالتك كأمك .. أنا وأم ناجي لا سيرة لدينا إلا أنت كل هؤلاء الغجر صاروا يعرفونك ويغارون منك

: يغارون مني ! لماذا ؟

: يغارون من حبنا لك من كثرة ما نتحدث عنك

: شيركا الجميلة الأنيقة الطيبة .. شكراً
: أنت تحبني لا نختلف عليها , ولكن الجميلة الأنيقة هههه هذه كثيرة عليّ !!!

: يا ابنتي ناجي يقول الصدق .. أنت جميلة وطيبة وستصيرين أنيقة إن سمعتِ مني .. وبسهولة .. فقط اهتمي بنفسك قليلاً .. يا شيركا كل حياتنا فراغ , لا شيء لدينا نفعله فلنعتنِ بأنفسنا في هذا الفراغ الهائل

: أنا قلت ما أراه فيك وأمي قالت الحقيقة .. فقط اهتمي بنفسك كأمي مثلا .. ألا تحبينها .. كوني مثلها .. الآن كنا نقول أنا وأمي هذه الحياة ليس فيها ما يجعلنا نأسف عليه فلنعش يومنا برقي وجمال قدر المستطاع وما قالته أمي مستطاع

: تقولان الحقيقة .. سأفعل .. هذا وعد ..

في هذه الأثناء دق الباب بعصا , قامت أمي

: أهلاً وسهلاً خاشو .. كيف صار ؟! تفضل

أجابها بلغته .. فهمت منه أنه يناديها سحاب

: أهلاً وسهلاً خاشو .. أنا أم ناجي .. وأحب من يناديني أن يناديني بذلك وبما أنك أول مرة ولم أنبهك .. سأقبلها منك ولكن في المرات القادمة .. أم ناجي .. تمام ؟ تفضل

دخل وسلم وتمتم بلغته وكأنه مصر ألا يتكلم باللغة العربية

: يا خاشو .. ناجي لايعرف لغتنا ولذلك تحدث باللغة العربية

: الغجري لا ينسى لغته ..

: الغجر بشرٌ وليسوا آلهة .. ناجي فقدته وعمره سنتين وربته عائلة لوائية , لو كنت مكانه كنت نسيت كل شيء , ولما بحثت مثله عن عائلتك وأهلك .. ناجي عبر كل الكون ليجد أمه وأهله

: من يوم أتيت إلى هنا لم تقولي أن لك ولداً وأضعته لم تتحدثي عنه أبداً

: أنا لم أضيّعه .. أبوه أخذه واختفى لينتقم مني .. تركه عند تلك العائلة التي ربته واعتنت به وعندما مات المربي وقربت منية أمه التي ربته قالت له الحقيقة

: اااا .. أنا من الناس الذين لم يقتنعوا بهذه الحكاية

: وأنت ما دخلك في الموضوع .. ولماذا تحشر أنفك فيما لا يخصك , أنا من يقتنع أو لا يقتنع .. الأم هي من تعرف إن كان هذا ولدها أو لا .. ولماذا اعتراضك .. هل سيقاسمك ناجي أملاكاً سترثها عني أو سيقاسمك غجريتك أقصد رفعة ومكانة وكرسي الغجر .. ما يزعجك في الموضوع .. يا خاشو .. متى ستحترم شيخوختك كي نستطيع نحن إجبار أنفسنا على احترام الشيخوخة فقط فأرجو أن تشغل نفسك بما يعنيك وفقط .. ناجي ابني أعجبك ذلك أم لم يعجبك , وهذا يخصني وحدي فقط

: لا طبعا لا أحد له أي علاقة بهذا إلا أنت ولكن يا سحاب تقاطعه

: قلت لك ونبهتك لا تقل سحاب وإلا ستسمع ما يليق بك

: طيب .. طيب .. نحن هنا عائلة واحدة , وبعضهم يتناولك بالسوء وأكمل بلغته

: من يتكلم – وصمتتْ قليلاً – ماذا أقول بلا أخلاق ؟! أكون قد مدحته .. من يجلس في البيت ويرسل نساءه إلى الشوارع والبيوت لتأتي بما يأكله , من يُعبد لنسائه دروب الرزيلة ولا يسألها أين كنت , بل يسألها بماذا أتيت , من يطلق أولاده الصغار وبناته للشوارع وللتشرد لا يحق له

فتح فمه عن أي شيء
: أنت تهينيني في بيتك

: وأنت متى وفي أي وقت كنت تفهم أو تهتم لذلك , أنت لم تحترم نفسك وأنا لن أكون أكرم منك عليك .. أنت قرعت الباب وهذا الجواب .. أنت أيها العجوز الخرف بدل أن تهنئني بعودة ولدي إلي وأن تُسكت أي أحد يتكلم , أنا أجزم أنك وراء أي كلمة تقال أنت لم تنس ولن تنسى هل أذكرك , هل أفتح دفاترك القديمة .. أيها العجوز الخرف .. ناجي لم يصل بعد لسن السادسة عشرة عام .. أنا وصلت إلى هنا من عشرة أعوام يعني ناجي مازال دون السادسة عشرة عاماً , يعني أيها الخرف ناجي طفلٌ .. في الحقيقة .. ولكنه بنظري رجلا وبمليون رجل من يغادر البلد الذي تربى فيه ليبحث عن أمه وأهله هذا رجل وليس متشرداً مثلكم , كان بإمكانه أن يبقى حيث تربى , على كل الأحوال لا تعد للكلام عن هذا الموضوع مرة أخرى والأفضل ألا تأتي إلى هنا مرة أخرى والأفضل من كل الذي قلناه ألا تكلمني بعد الآن , وإن مت قبلي أعاهدك لن أحضر جنازتك , وأن مت قبلك إياك أن تمشي خطوة واحدة بجنازتي وها أنا – ووجهت كلامها لي – يا ولدي هذا العجوز لا تقبل عزاء منه وامنعه أن يحضر جنازتي هذه وصيتي لك

: عاد وتكلم بلغته

: ماذا كنت تتوقع اذا أن أرحب بما تقوله وما تؤفكه عني أمام ولدي ؟ ونبهتك أنه يفهم لغتنا ولا يستطيع الكلام بها , ولن أدعه يتعلمها أبداً , ولكن أنت لا تريد أن تنتهي ولا تتعظ .. لم تكن تتوقع أن أرد !! اسمع أيها العجوز الخرف النتن .. كل هذا الكون في كفة وولدي في كفة وكفته لا تتحرك هل فهمت ؟ أم أعيد ؟

رد بالعربي : نعم فهمت

وقام وغادر بدون ان يقول شيئاً

كانت أم ناجي كاللبوة وخاشو كان أمامها كالنعجة كان كلما علا صوتها يزداد انخفاض رأسه المتلحف بغطاء رأس أسود ويزداد وجهه الأسود الفاحم كمداً وشاربه الثخين جداً تهدلاً , وعندما يتكلم كان يرفع رأسه قليلاً ولكن نظره كان يبقى مصوباً إلى الأرض .. وشيركا .. شيركا كانت متأهبة للذهاب عندما أتى خاشو بقيت , كانت تراقب الموقف كالنسر المتأهب صامتة , ولكن تعابير وجهها وعينيها وفمها وحركة بؤبؤ عينيها , كانت كأنها هي من يتكلم والانفعال كان بادياً عليها أكثر من الأم سحاب , وكنت أرى أسنانها تكزّ على شفتيها كلما تكلم .. كنت صامتا كل الوقت , كان يراقبني كلما تسنى له النظر

إليّ ,وأنا أظهرت له عدم الاكتراث بما يقول ولم أشارك ولا بكلمة واحدة , من أول دخوله , أمي نظرت بعيني وهي تجلس بقربي تماماً , خمنّت أنها لا تريدني أن أتكلم أبداً هكذا قرأت من نظرتها , فسكتّ ,ولم أتكلم أبداً

: يا ولدي ما أحلاك ما أذكاك .. من نظرتي إليك فهمت مني ألا تتكلم

: نعم

غمرت رأسي بقوة وهي تقول .. يا روح أمك

: أنا كنت ذاهبة لولا دخول هذا الخنزير - قالت ذلك شيركا وهي تقف وتطوق رأس الأم سحاب (غسلتيه منيح) هذا الخنزير كل بلايا الغجر منه .. أرجو أن يكون قد أخذ درساً .. لا أحداً غيره يتكلم هو وزبانيته , متى يموت ونرتاح منه

: يأتي غيره يا ابنتي .. هؤلاء قوم من سيء إلى أسوأ , ولا يأخذون دروساً

: أنا تأخرت كثيراً سيقيم الدنيا ولا يقعدها ذلك العجوز الآخر .. تصبحون على خير

: مع السلامة

: مع السلامة

: كأن هنا من يزعجهم وجودي يا أمي ؟

: انس يا ولدي أنس .. هذا الخنزير الذي قلت لك عنه هو من تزوجني لفترة قصيرة جداً .. هذا هو الخنزير الذي حاول أن يدفعني للرزيلة وطرده والدي ومن يومها لم يكلمني ولم أكلمه ولم يدخل هذا البيت تزوج أكثر من امرأة وله أولاد هو لا يعرفهم , يتاجر بالنساء والأولاد ويدفع من هم من صنفه ليتزوجوا كثيراً ليشغلوا نساءهم وبناتهم في البيوت وفي أي شيء حتى في البغاء ويدفعون أولادهم إلى الشوارع , لذلك شيركا تكرهه هو من شجع أباها لتزويجها هذا العجوز الذي يشبهه

: وهل استجابت ؟

: لا أعتقد

: لماذا لم تفعل مثلك

: لأن أباها لم يكن مثل أبي وأخوتها سفلة , وليزيد الطين بلة مات أبوها ولحقت به أمها لذلك هي تتعايش مع هذا الخنزير كي لا تبتلي برجل أكثر قبحاً منه .. عجوزها معه ذهب ومال كثير , ولا ولد ولا تلد .. تزوج أكثر من مرة

لينجب أولاداً ليزداد عدد الأولاد المشردين ولكن الله لم يستجب

: أمي هل أشكل عليك خطراً منهم .. أقصد وجودي سيؤذيك ؟

: يا ولدي .. هؤلاء كالفئران أنا أعرفهم .. يخافون من خيالهم .. أنا أخاف غدرهم فقط .. سأنتبه جيداً

: الناس هنا يحبونك كشيركا ؟

: أغلبهم .. نعم .. ألمس ذلك .. من يكرهني هم فقط هؤلاء الذين ذكرتهم لك .. الخنازير , لأنني دائما أمسح بهم الأرض و لا أهابهم

: هل زوج شيركا كبير كهذا العجوز ؟

: لا .. هو أكبر منه ولكن ليس كثيراً .. شيركا أصغر من أي ولد عند خاشو يعني لوكان لزوج شيركا أولاداً كانت أصغر من أصغرهم , مثل الخنزير , كان في صحة جيدة .. لكنه الآن مريض .. وأعتقد أنه سيشفى , الخنازير لا تموت

: أمي .. تتحدثين عنهم وتشملينهم كلهم هل كل الغجر ناس غير طيبين ؟

: لآ .. لآ .. يا ولدي .. أنا هنا أخطئ .. وأعترف أنني أخطئ , فكثيرون هم الناس الطيبون فيهم .. ربما لكثرة ما عانيت منهم .. وربما لأنني تربيت في السويدية ككل الناس لم أشعر هناك أنني مختلفة عن الناس ولم أشعر من أحد هناك أنني مختلفة .. بعد أن تشردنا من بيتنا وحارتنا وجيراننا , صرت أحس بذلك , حياتنا هناك مختلفة كلياً عن حياتنا هنا .. يا ولدي الغجر شعب مظلوم , كل الناس تتأفف منهم .. يا ولدي الغجري هنا شتيمة .. وهم بتصرفاتهم يعززون ذلك , وهذا ما يجعلني لا أطيق حياتهم ولا طريقة عيشهم , في السويدية كان الناس المسلم والمسيحي واليهودي , الأرمني والعربي والأشوري والكردي والغجري في نفس الحي , لا أحد يسأل مجرد سؤال .. هناك كان يعيش الجميع كأسرة .. يا ولدي الخوري كان يمر على كل البيوت ويرش الماء في الأعياد ويبارك , و كل الناس كانت تخرج لاستقباله , حتى كنت أحسبه أنه كبيرنا نحن أيضاً .. وفي أعياد العلويين وكانت كثيرة كانوا يذبحون الأضاحي ويطبخون البرغل ويوزعونه على الجميع ولا يستثنون أحد , لم يشعرني احداً أنني غجرية وأعتقد لم يكونوا يدرون وحتى أنا نسيت .. ما مررت به بعد هذا ربما جعلني أعمم وهذا خطأ , وحشرية هذا الخنزير ربما أثارت غضبي , على كل حال انس الأمر وكأنه لم يكن

(26)

الدنيا سجنٌ

لا سقفٌ له

ولا جدران

والدتي الحبيبة

عند الصنوبرة وقفت أنا والأم سحاب قلت لها : انظري لتلك الدغلة هناك كنت أنام – من نظرتها عرفت أنها لم تفهم ما قصدت – يا أمي عندنا نسمي مجموعة الأشجار الكثيفة المتشابكة دغلة

: تقصد كنت تنام في البرية ؟

: نعم هل تحبين أن ترين أين .. أنا كل فترة أزور المكان وأحياناً أمضي القيلولة هنا

: أرني

قالت ذلك وكل شيء في محياها يدل على أنها غير مصدقة , مسكت يدها وقطعنا الطريق وصعدنا الدرب الصغيرة بهدوء ودخلنا الغابة الصغيرة حتى وصلنا

: هنا .. كنت أنام وأكل وأشرب وأحلم

: هل أنت من أشبك هذه الجذوع حتى صارت تشبه الكوخ

: نعم أنتِ ثاني شخص يرى أين كنت أنام بعد جوزيف أقصد يوسف

: من يوسف .. أو جوزيف ؟

: رجل التقيته في الفرن , هو كالأم الحنون وكالأب العطوف , عندما طردني الخواجا ترك العمل من أجلي , والآن يعمل في فرن آخر وهو يحاول أن يجد لي عملاً عنده

: هو من بلدك ؟

: هو من المنطقة ولكن ليس من نفس البلد .. ولكن من ضيعة بعيدة , أقصد لا نعرف بعضنا من قبل

: ولا يعرف أهلك ؟

: لا .. ولا يعرف عني شيئاً .. لماذا تسألين .. يا أمي ؟ هنا الكثير ممن يعرفونني ويعرفون أهلي .. ولذلك قلت لك عندما نغادر يجب أن نغادر إلى مكان أكون متيقناً من خلوه من أناس يعرفونني ويعرفونك .. أليس ذلك ما كنت تسألين عنه ؟

: بلى يا ولدي بلى .. إذا رآنا أحد ما الآن ماذا ستقول له

: الآن لن يراك أحد سوى صاحب أو صاحبة البيت وإن سألوا سأقول لهم أمي تعمل في أحد البيوت .. كثيرات النساء اللواتي يعملن في البيوت هنا من بلدي

: أعرف .. أقصد إن رآني جوزيف أو أحد أبناء بلدك

: جوزيف بسيطة أقول له أنك أمي وأطلب منه أن يكون سراً بيني وبينه وهو سيبقيه سراً .. وأبناء بلدي لا أحد يزورني أبداً ولا يعرفون المكان الذي أسكن فيه

غادرنا باتجاه البيت وهو قريب على طرف الغابة الصغيرة , عندما دخلنا ذهلت ..

: عندما أعطوني الغرفة كانت مسقوفة بالتوتياء .. أنا من صب البيتون وركب كل هذا الخشب .. وهذه البحرة التي هناك - وكان الأولاد يلعبون حولها – أنا صنعتها وصنعت أخرى أمام دكان العم أبو جورج - عندما رآني الأولاد ركضوا باتجاهي قرفصت وضممتهم –

: ألن تلعب معنا ؟ سألوا وهم ينظرون إلى الأم سحاب

: اليوم أنا تعبان غداً

ونحن نتكلم رأيت الخواجا قادم

: مرحبا

: أهلا خواجا تفضل .. هذه أمي تعمل في جل الديب

: أهلاً وسهلاً .. عرفت قبل أن تقول تشبهها كثيراً .. وجدت لك عملاً في الدير هو عمل أعتقد أنه مريح ويليق بك .. أن تعتني بحديقته هي كبيرة قليلا ولكن أنا أعرف أنك ذواق وتحب الزهور والورود , كل يوم ساعتين ثلاثة .. عندما تنتهي تغادر وعلى راحتك

: شكرا لك .. شكراً أنا ممنونك

: أرجو أن تبقى دائماً .. هم قالوا لي مؤقتا وأنا أثق عندما يرون عملك ستبقى , غداً ستذهب معي أعرفك بهم وبعدها تدبر أمرك

: شكراً مرة أخرى أنت تفضلت

مجرد أن غادر وقفت وطوقتني كالمجنونة وهي تبكي وتقول ..
: أسمعت .. أنك تشبهني .. انك تشبهني .. انك تشبهني أنت خلقتني من جديد أنا فرحانة .. أنت فرحتي .. أنك تشبهني ..

طوقت رأسها وقبلتها على عينيها

: وأنا كذلك فرحان .. فرحان وجداً أنت فرحتي أيضا يا أمي

ولكي أخرجها وأخرج من قهرنا سألتها

: أمي هل تستطيعين أن تأتي بمفردك ؟

: يا ولدي أنا أحفظ هذه المنطقة جيداً .. أحياناً يا ولدي ندور هنا في الحارات ونقرأ الفنجان والكف لذلك نعرفها جيداً

: أمي .. كيف تستطيعين قراءة الفنجان والكف والحصى ؟

: يا ولدي سأقول لك سراً .. نحن لا نرى شيئاً لا في الحصى ولا في الرمل ولا في الفنجان نحن نرى في الوجوه .. نحن لا نستطيع قراءة الغيب وحده الله يستطيع .. نحن نقرأ الوجوه العرافة الذكية تتمرس بقراءة الوجوه .. الوجه يا ولدي كتاب مفتوح أمام العرافة الخبيرة الذكية تقرؤه كأنها تقرأ في كتاب أما العرافة أو العراف الغبي .. يتعلم بضع جمل يرددها لكل الناس وهي عموميات تحدث مع كل البشر كل يوم .. أنا أنظر في وجه الشخص أكثر مما أنظر في الفنجان أو الرمل أو الحصى وتوضعها وتوزعها .. أقول له ما قرأته في وجهه .. إن كانت تعابير وجهه تشي بأنني أقرأ صح أتابع وأن كانت تعابير الوجه غير ذلك أحاول القراءة من زاوية أخرى وإن أحسست أنني فشلت بقراءة وجهه أتكلم بالعموميات التي تحدث لأي شخص .. يا ولدي خبرتي بالقراءة صارت تقنع ..

حتى العرافات والعرافين يقولون سحاب ممسوسة و بها جن يلقنونها عالم الغيب .. شيركا .. تقول أنا أعرف أننا نكذب على الناس , وأعرف أن الناس لكثرة همومها تريد أن يأتي أحد ما ليحدثها عن هذه المتاعب فترتاح .. إلا سحاب .. سحاب يخاويها الجن ويلقنونها ما في الغيب , طبعا أنا لا أعطي سري لا لشيركا ولا لغيرها , وأنا مثلهم لا أعلم شيئا ولكن صار لي خبرة بذلك .. أرأيت ذلك الخنزير خاشو .. يخاف من حدسي .. يا ولدي عندما تقول لشخص شيئا ما ويكون عنده استعداد للتصديق إن كان ما تتنبأ له به شراً من خوفه وجزعه يقع فيه .. وإن تنبأت له بالخير , يقبل على الحياة بسعادة وينجح بكل ما يفعله لأنه صار مقتنعاً ومتفائلاً ولذلك ينجح , فيؤلون ذلك لتنبؤك .. أحد المرات قلت .. خاشو سيقع بمرض وسينجو منه .. وصل ما تنبأت به عامدة إليه , بعد أقل من اسبوع من شدة خوفه مرض وأخذوه إلى الطبيب وانتشر الخبر .. يا ولدي هكذا أخبار تنشر كالنار في الهشيم وهذه صارت برهاناً لك والناس بطبيعتهم ميالون للخوف من المجهول ويبحثون ليل نهار لمعرفته , لذلك ترى أغلب الناس يلجؤون للعرافين للإتكاء على ما يقولونه .. بعض الناس يرفضون في العلن ويلجؤون إليهم سراً لذلك ترى أكبر الخواجات المتعلمين يلجؤون لغجري أو غير غجري .. بسيط لا يجيد حتى كتابة اسمه ولا يعرف من هذا الكون

إلا قشوره وحتى قشوره البسيطة .. يلجؤون إليه ليقرأ لهم المستقبل أو ليفتش لهم عن شيء ضائع أو ليكتب لهم حجاباً أو رقية ليعود لهم عزيزاً غادر , ولا يعلمون عنه شيئاً وهو أصلاً لا يعرف لا القراءة ولا الكتابة .. افتح كل الأرقية ستجدها رسوماً وأشكالاً هي عبارة عن شخبرة .. يا ولدي كأن هذه الدنيا لعبة .. المنتصر فيها المتفرج , وأعظم حلولها الموت , فهو يحل العقد المستعصية

: صدقت .. الموت يحل كل شيء .. بالرغم من أننا لا نحبه ونبغضه

: الأتقياء لا يبغضونه .. الأتقياء يرون فيه حياة جديدة خالية من لعبة العيش المقرفة .. ولكن أين هم ؟!

: أمي .. نحن أحياناً نمارس الخطأ ونحن متأكدين أنه خطأ ؟!

: أحياناً !! لا ليس أحياناً .. دائماً يا ولدي .. وإلا نموت .. يا ولدي في أغلب الأحيان أنت مجبر على الكذب لكي تحافظ على حياتك أو على حياة من تحبهم .. أنت وأنا الآن .. مضطران أن نكذب .. يا ولدي كيف نقنع الناس أنني التقيتك صدفة .. تعبك وجروحك وحزنك سكنوا قلبي ولا أستطيع نزعهم .. كيف سأقنعهم أنك ولدي ولكن لم ألدك .. كيف سأقنعهم لا شيء في هذا الكون يجمعني

فيك إلا الأمومة .. أمٌ وابنها ولكنها لم تحبل به .. كيف سأقنعهم أنني من أول لحظة رأيتك فيها .. حبلت بك وأنجبتك وأنك كل كوني وعالمي ودنياي .. كيف؟!! وهم معذورون .. يا ولدي أنا لم أنجب .. رأيت آلافاً من البشر كباراً وصغاراً وأطفالاً .. لم يخطر في بالي أن أهتم مجرد اهتمام بأحد , حتى كنت أسخر ممن يتبنون أولاداً وكنت أقول من يفعل ذلك كمن يتبنى مصيبة وخطأ غيره .. وها أنا .. أقسم لك أنك أغلى من روحي .. وأجزم لك لم يعد عندي المقدرة على العيش بدونك .. أقبل أي شيء إلا أن تغادر ولا تعود .. الموت أصعب .. يا ولدي الآن أعرف الحب الحقيقي .. حب الأم .. أنا الآن على استعداد لأقدم لك أي شيء وكل شيء .. أن أقول لك أي شيء وكل شيء .. أن أتعرى أمامك من كل شيء , ربما أنت من أسكن نفسه وفرضها عليّ وربما من خلقك وخلقني .. أمس كنت مستعدة أن أمزق خاشو كما أمزق الخرقة , وكل من يقترب منك .. يا ولدي أنت من الأشياء التي خلقها الله ووضعها في طريقي .. في قلبي ولم يعطني لها تفسيراً ولا تبريراً .. كأنه أحب أن يكافئني على صبري ويعوضني عن قهري وعذابي المرير .. يا ولدي حلفتك وأحلفك الآن .. إياك أن تدعني أرى هذه الدمعة في عينيك – قالت ذلك وهي تمسحها بشفتيها كالمجنونة ويديها تعبث بشعري الطويل –

: أعدك أن أحاول

(27)

الفقراء

لا يختارون

دروبهم

دائما مزروعة

برائحة الخبز والسعتر

يهدهدون للحقول

لتنام آخر الليل

على وسائد تعبهم

يقرضون الأرض ..

والشعر

حتى يصيرون

قصيدة من تراب

والدتي الحبيبة ...

يتربع على تلة وسفح , يفتح شبابيكه للشمس , ورئته للهواء , وينشر نظره فوق حبال الأفق , من أي مكان يمكن أن يُرى البحر وهو يغسل قدمي انطلياس بمنتهى العشق , يحيط به سور من الحجارة الضخمة المنحوتة بعناية , بوابته العريضة .. المبنية كمدخل قلعة , وبابه الحديد الضخم المصنوع في غاية الذوق والأناقة والذي

تتفرع منه الصلبان كلوحة سريالية جميلة تشد على التأمل بدقة وفن وذوق وإبداع الصانع .. عريض وعالٍ على شكل قنطرة , هو مدخل السيارات , بين عمودين صخريين باب صغير هو مدخل الأشخاص وهو باب مصغر للباب الرئيسي , بعد البوابة ساحة يتفرع منها شوارع صغيرة تتلوى بين الأبنية تتوزع بينها الدوائر والمربعات والمثلثات والمستطيلات والمخمسات وكل الأشكال الهندسية , كل حسب مرور الطريق وحسب التدرجات , الأدراج الحجرية المعشوشبة تصل بين مدرج وآخر بين مصطبة وأخرى , في قلب كل شكل تنتصب كل أنواع الأشجار والزهور , المبنى الرئيسي ينتصب أمام الساحة .. طبقتين الأخيرة سطح مائل قرميد .. الجدران من الحجر الضخم المنحوت بمنتهى الدقة والجمال , الزمن صبغها بلونه المفضل الرصاصي , تملأ جدران المبنى الشبابيك القليلة العرض المرتفعة المقنطرة الجميلة , وخلفه تتوزع الأبنية أحيانا تتصل وبعض الأبنية منفصلة . الدير .. قطعة من هذا الكون , تشبه الخيال إذا سرح وفاض . يبعد الدير عن الطريق العام قرابة مئة متر على اليمين بطريق فرعي خاص به , رن أبو الياس جرس الباب الصغير وبعد برهة فتح رجل في العقد الثالث من عمره طاقة في الباب

: أهلاً وسهلاً

: صباح الخير .. هذا الشاب أمس تكلمت مع أبينا مارون من أجل التعشيب والعناية بالأشجار والزهور

: أهلاً وسهلاً .. وصل ياخواجا وصل

وفتح الباب

نظر إلي أبو الياس وقال

: ناجي تمشي من هنا الى الطريق العام ومن هناك تعود , الطريق مؤمنة

: شكراً تفضلت يا خواجا .. تمام .. شكراً .. الطريق واضح الله يبارك فيك

دخلت .. أخذني الرجل إلى مستودع مملوء بالعدة أخذت ما رأيته مناسباً وعدنا

: ما اسمك ؟

: أنا اسمي ناجي

: أهلاً وسهلاً يا ناجي .. أبدأ من حيث تشاء

: سأبدأ من عند الباب الرئيس

: كما تريد

تركني وعاد إلى غرفته الصغيرة قرب الباب , سحرني المكان , كل شيء فيه يدعوك للتأمل .. كل شيء فيه يأخذك إلى أعالي أعالي الجمال والذوق , هدوؤه لا يقطعه إلا تغريد الطيور المختلفة وهفيف أثواب الرهبان والراهبات الفضفاضة , الذين يمرون بين الحين والآخر من مبنى إلى آخر . قلت في نفسي .. لو أعطوني ثمن طعامي لرضيت .. سحر المكان وهدوؤه وأناقته وجماله يدعوك للعمل بمتعة . كل يوم يسألني أبو الياس صاحب البيت

: كيف العمل ؟

: أنا سعيد جداً .. لا أحد اقترب مني أبداً أعمل كأنني أعمل في بيتي البوّاب كل يوم يسألني – أتريد شيئا ؟ – وتأتي إحدى الراهبات كل يوم بسندويشة جبنة وتغادر , خلال الاسبوع الذي مضى أكملت كل الأحواض أمام المبنى الرئيسي والآن بدأت بين الأبنية الخلفية

: ألم يحاسبوك ؟

: بلى .. أتى رجل أنيق جميل كله وقار ولطف وسألني - كم تريد يا بني أقصد كم تأخذ بالعادة ؟ – أجبته .. يا سيدي أعطني ما تشاء – رد .. يا بني هل يكفي خمس وعشرون ليرة في الاسبوع ؟ - أجبته يكفي المهم أن يكون الشغل يعجبكم , أجابني .. نعم أعجبنا جميعا الله يعطيك العافية -

: الأجرة هكذا تمام .. إن لم تكن تمام أكلم لك الخوري مرة ثانية

: لا .. كافية المهم أن أبقى هناك .. العمل يناسبني وأحببت المكان والناس

: وأنا سعيد لأنك مبسوط .. أنت ابن حلال .. إن شاء الله تبقى طويلاً

: تفضلت يا خواجا أنا ممنون عينك

: نحن نحبك وبخاصة الأولاد .. يسألون عنك أكثر من أقربائنا

: وأنا أحبهم جداً

خلف المبنى الثاني ساحة صغيرة يتوسطها شكل دائري كبير عشب أخضر مزروع على الداير بالورد الجوري وفي الوسط بحرة ماء ضخمة مضلعة يرتفع عمودها لحدود المترين يسكب ماءه في حوض مضلع جميل جداً , العمود مضلع كأضلاع الحوض يخترق ثلاث زهرات منحوتة من الحجر كبيرة ثم أصغر ثم أصغر .. الحوض والعمود والزهرات مليئة بالأشنيات ذهبت إلى البواب

: يا عم أريدك بحاجة

: امرني أنا حاضر

: البحرة التي أمام المبنى الثاني .. كلها أشنيات يلزمها تنظيف .. هل تتحمل أن أصعد على عمودها وأنظفها

: والله لا أعرف .. نسأل أبانا

تركني وذهب إلى المبنى وبعد قليل عاد برفقة رجل أنيق جميل , الابتسامة لا تفارق محياه

: الله يعطيك العافية يا ولدي

: الله يعافيك يا سيدي

: يا ولدي هي متينة جداً .. ولكن كيف ستصعد وتنظفها ؟

: يا سيدي نربط سلم برأسه بقطعة حبل ونعلقه برأس العمود وأصعد على السلم وكلما نظفت جهة أدور به .. يلزمنا فرشاة حديد ومنظف

: تصرف كما يحلو لك وحنا سيأتي لك بفرشاة الحديد والمنظفات ولكن أرجوك أن تكون شديد الانتباه وإن رأيت أن الأمر صعب أو خطر أتركه

في اليوم الثاني كانت البحرة وعمودها تلمع وماؤها يترقرق بشكل ساحر .. الراهبات كن ينظرن من بعيد ..عندما أنهيت العمل بها وصرت أقص أعشاب أحد

الأدراج بعيداً قليلاً عنها , تجمعن حولها كالفراشات وصرن يتراشقن ماءها بسعادة .. كنت سعيداً جداً وأحسست أنني عملت شيئا يبهج الناس .. عندما أتت إحدى الراهبات بالسندويشة قالت وهي تناولني السندويشة

: أنت شاب أديب وذواق

: يا سيدتي .. هذا من لطفك وذوقك .. على فكرة أنا آتي بطعامي معي ولا حاجة لي بهذه .. ولكنني أحبها وأريدها لأنني أحس أنني أشارككم طعامكم كما يقال من أجل الخبز والملح

: لم يأت عامل إلى هذا الدير ولم يتدخل بعمله أحد إلا أنت .. لأنك تعمل بمنتهى الاخلاص والأدب والذوق .. هذه البحرة لم تنظف أبدا .. كانوا ينظفون الحوض فقط .. كل الراهبات والآباء يتحدثون عنك

: هذا يثلج صدري ويجعل روحي تحلق أنا أحب هذا المكان .. بل أعشقه وأتمنى أن أبقى فيه كل عمري

لم أكمل الجملة حتى أطل الرجل نفسه بوجهه الملائكي وابتسامته الساحرة وأناقته الملفتة غادرت الراهبة مسرعة باتجاهه وهي تنحني مقبلة يده

: الله يعطيك العافية يا ولدي

: الله يعافيك يا سيدي

: ما اسمك يا ولدي ؟

: اسمي ناجي يا سيدي

: يا ناجي ..أنت شاب مخلص بعملك وذواق وأنيق , ولا حاجة لأن يدلك أحد كيف تعمل ولا أين ولا متى لذلك نحن لم نتدخل أبداً .. كنت رائعاً .. هذه البحرة خلقت من جديد .. أنا معجب بك وبعملك

: هذا شرف لي يا سيدي

: من أين أنت يا ناجي ؟

: أنا من الساحل السوري

: أهلاً وسهلاً .. أنت نصيري يا ناجي ؟

: لم أفهم يا سيدي ما تقصد بـ نصيري إن كنت تقصد العائلة .. أنا اسمي ناجي أبي اسمه سالم والنسب الشيخ

: لا أنا قصدت – وصمت قليلاً – الدين المذهب

: هل تقصد نصراني ؟

: لا .. نصيري غير النصراني

: ما الفرق يا سيدي

: نصراني تسمية أطلقها اليهود وبعدهم المسلمون على أتباع يسوع المسيح النصراني

: سيّدي أنت تتبنى هذه التسمية أقصد أنت نصراني

: لا .. أنا مسيحي يسوعي

: تقصد الانتساب يكون لصاحب الشريعة .. لصاحب الدعوة .. لصاحب المذهب وليس لمكانه .. يعني أنت مسيحي أو يسوعي أولا ثم صاحب المذهب

: نعم .. هذا صحيح

: ونحن مسلمون محمديون على ما ذهب إليه علي في فهمه للإسلام .. أي علويون

: وأنا قصدت أنكم تُنسبون إلى محمد ابن نصير أحد أتباع الحسن العسكري

: يا سيدي .. العلويون موجودون قبل أن يخلق محمد بن نصير والحسن العسكري بأكثر من مئتي عام , فشيعة عليّ وجدوا حين وجد عليّ

: يا ناجي هذه التسمية أطلقها الفرنسيون عليكم بعد الانتداب الفرنسي - أقصد العلويون

: يا سيدي .. العلويون موجودون قبل أن توجد دولة اسمها فرنسا على خارطة الجغرافيا .. العلويون موجودون كتسمية وفعل وحقيقة , من يوم كانت روما وبيزنطة .. العلويون ذبحوا وطوردوا بعد وفاة الرسول مباشرة وكان مازال عليّاً موجوداً , ولم تكن فرنسا موجودة .. وطوردوا وذبحوا أيام الدولة الأموية ولم تكن فرنسا موجودة بعد على الخارطة , وطوردوا وذبحوا أيام الدولة العباسية ولم تكن فرنسا موجودة كذلك , يا سيدي العلويون ذبحوا على مر التاريخ كرمى لانتسابهم وتمسكهم بهذا الانتساب وبفقه ومذهب عليّ .. صلاح الدين الأيوبي كما الذين أتوا قبله وبعده حاول إبادتهم ومحوهم عن وجه الأرض ولكن - أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد - وأنتم يا سيدي أكثر الناس معرفة بما أقول .. هذه البلاد من طرسوس التي تحتلها تركيا الحالية إلى العقبة ومن البحر إلى البصرة كانت نسبتهم العددية تفوق كل الطوائف الأخرى خصوصا في حلب وحماه وحمص وطرابلس وبيروت والشام وفي مدن فلسطين وفي مدن العراق .. يا سيد هنا أكثر العائلات المسيحية مازالت محتفظة ومعترفة باصولها العلوية وأنتم تعرفون هذه العائلات .. مدن وقرى بالكامل حولها الخوف من القتل إلى المسيحية من قرى عكار حتى الناصرة إلى حيفا ويافا والقدس .. يا سيدي ..صلاح الدين الأيوبي رفع السيف عن المسيحيين واليهود

ولكنه لم يرفعه عن العلويين قتلهم وأتى بأبناء جلدته وأسكنهم في بيوتهم وأرضهم فكل عائلات المدن السورية أقصد البلاد السورية من حلب إلى حماه وحمص وطرابلس وبيروت ودمشق إلى الجنوب السوري .. كل العائلات من أصول غير سورية وهم لا ينكرون ذلك وبعضهم يعتز ويفتخر بذلك لأنهم يعتبرون أنفسهم هم السادة وليسوا من العبيد - السكان الأصليين - ما بقي من العلويين تخفوا تحت راية السيد المسيح وأجزم أنكم تعلمون كل ما قلته .. يا سيدي إلى اليوم العلويون يحتفلون بالأعياد المسيحية .. مازالوا في عيد البربارة يذبحون وبدم الأضاحي يصلبون على أبوابهم

: أعلم .. ولكن ليس كل ما قلته .. من أين أتيت بهذه المعلومات ؟ ما رأيك أن نجلس

: يا سيدي أنا أجلس في أي مكان أما أنت يا سيدي – قاطعني –

: وأنا أجلس كذلك في أي مكان .. من أين أتيت بكل هذه المعلومات .. هل هناك رجل أستطيع مقابلته .. لأسأله عن ذلك ؟؟

: شكرا لتواضعك وسمو قدرك يا سيدي .. معلوماتي من رجل دين مثل حضرتكم .. وتستطيع أن تراه متى شئت ..

بالمناسبة سمعته يقول أن أغلب المخطوطات التي سجلت هذه الوقائع موجودة لدى إخواننا المسيحيين في مكتبات أديرتهم وكنائسهم والكثير منها وصل إلى أوربا

: عندنا ؟!

: هكذا قال وأنا أثق بما يقول .. وقال وأغلبه سُجل بأيدي الآباء والقساوسة فما سجله العلويون حرق معهم ما استطاعوا المحافظة عليه بعض الكتيبات الفقهية ما سَهُلَ تخبئته وكان بنظرهم ثميناً أما عن هذا التاريخ الطويل من الذبح فلم يهتموا به .. أقصد بدؤوا بالأهم .. الأولى .. هم رتبوا الأولويات

: يا ناجي سنك .. عمرك .. لا يدل عليك .. أرأيت ؟ سألتك سؤالاً فتح لي أبواباً كثيرة

: هل أزعجتكم يا سيدي ؟.. فأنا أعتذر

: لا .. لا .. على الاطلاق أنا سعدت جداً بك وبإجاباتك ولكنني أحسست أن نسبكم إلى محمد بن نصير أغضبك

: لا يا سيدي .. لا يزعجني أبدا لأن محمد ابن نصير علويا كالحسن والحسين .. كآل بيت الرسول جميعاً .. كشيعتهم , ولكن كما قلت لك .. أن يقول لك أحدٌ ما .. أنك

نصراني .. كي يضع فاصلا بينك وبين يسوع المسيح الذي تنتمي إليه قد يزعجك

: ولكن عليّ ليس نبياً

: هذا أكيد ويوحنا لم يكن نبياً وهارون لم يكن نبياً .....يا سيدي كما قلت لك العلوية هي ما ذهب إليه عليّ في فهم الاسلام.. هي طريق عليّ إلى العلي الأعلى

: ولكن الاسلام بكل طوائفهم لا يعترفون بالعلوية

: يا سيدي الشمس لا يلزمها دليل على وجودها , ولا يضرها إن لم يرها الأعمى ولا ينفي وجودها , وقضية الاعترافات , هذه عند كل الأديان وليست محصورة بالإسلام , فكل طائفة أو ملة تحصر الحقيقة بها وعندها , والباقي ضالون , والذين يعترفون ببعضهم أغلبه اعتراف مجاملة أو اعتراف تقية أو تعايش حتى الأديان يا سيدي بكل أشكالها وجغرافية تواجدها , الأحدث ينسخ الأقدم ويلغيه

: ليس دائماً

: نعم ليس دائماً ولكن هذا الذي لا ينفي ولا يلغي وجود الذي قبله .. يبقيه ولكن على طريقته وفلسفته , فالعلويون

مثلا يعتبرون أنفسهم مسيحيين حقيقيين ويهوداً حقيقيين أكثر من المسحيين ومن اليهود أنفسهم

: لماذا وكيف ؟ !

: يستندون بحديث (الأنبياء واحد ولو اختلفت أمهاتهم) ويقولون بعصمة الأنبياء ونورانيتهم يعتقدون أن كل الأنبياء هم نور الله كما قال المسيح (أنا نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة) وما يراه العاقل المثقف لا يراه الجاهل وما يراه العالم لا يراه غيره وقس

: ظاهر وباطن ؟

: ظاهر وباطن

: أنتم من الفرق الباطنية ؟

: تكرم بالتوضيح يا سيدي

: هناك فرق في الاسلام تقول بالباطن .. أن للأشياء .. للمخلوقات ظاهر وباطن

: سيدي وأنت ماذا تقول ؟

: دعك مني .. العلويون ماذا يقولون ؟

: يسوع يقول (أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة) والناس رأوه شخصاً من لحم ودم .. رأوه إنساناً .. هكذا رأوه .. وهو يصرح أنه نور , والنور في الحقيقة لا حجم له ولا لون .. سيدي .. أنت .. ظاهرك كباطنك ؟

: نعم

: هل ما في أمعائنا يشبه وجوهنا ؟

: لا

: إذا ما بداخلك لا يشبه الخارج .. سيدي أنا أرى وجهك الجميل وابتسامتك الرائعة .. ولكن هل أستطيع أنا أو غيري رؤية ما يجول في خاطرك

: البواطن لا يعلمها إلا الله

: الله وأصحابها .. يعني هناك بواطن للأشياء

: والعلويون يعرفون هذه البواطن ؟

: العلويون لا يدعون ذلك .. يقولون إن الله يرزق الانسان بقدر ما يستحق , والعلم والمعرفة أعظم ما يرزق الله خلقه وبه ينجون

: العلم عند العلويين استحقاق ؟

: ليس العلم فقط كل شيء استحقاق , وإلا كيف يكون الله عادلاً ورحيماً ؟ إن لم يكن ذلك فكيف خلقكم الله بهذا البهاء وهذا العلم وهذا الرزق ؟ وخلق غيرك أقل وأقل بكثير ؟ أم هكذا .. يوزع الباري عز وجل رزقه بشكل عشوائي على خلقه !؟ وهذا حاشاه أن يفعله

: كيف عادلا ورحيما ؟

: عادلا بذاته .. الله عدل .. ورحيماً بعباده .. جعل الحسنة بأضعاف مضاعفة

: كيف ؟! على رأيكم الله يحاسب الناس سلفاً ؟!

: كيف .. أرجو التوضيح ؟

: حسب رأيكم .. الله يخلق مخلوقاته ويوزع رزقه عليهم حسب استحقاقهم .. هكذا يكون قد حسم أمره تجاه كل مخلوق قبل أن يفعل شيئا على أي أساس .. على أي استحقاق سيوزع ؟

: يا سيد هذا السؤال لنا أم لكم ؟! إن لم يكن استحقاقاً كيف يوزع رزقه .. لماذا خلقكم سبحانه وتعالى في أحسن تقويم ووهبكم العقل السليم والخلقة الكاملة بل الجميلة وجعل لكم رتبة ومرتبة عند بقية خلقه , وخلقني أنا أو غيري فقيراً معدماً أو قليل العقل أو أعمى أو أبكماً أو مشوهاً ومليون

أوٍ .. هكذا يكون الله ظالماً .. وحاشاه أن يكون ظالماً .. يا سيدي الله خلق هذا الكون ليسعد خلقه وليس لينتقم منهم

: الله يا ناجي .. لا يُسأل عما يفعل

: يا سيدي .. الله حق وقوله وفعله الحق وهو الحق المبين .. خلق الخلائق بهدف وبميزان وليس عشواء .. والتأمل بالخالق وبخلائقه عبادة .. أحد طرق التعبد .. والتأمل هو أحد أنواع التساؤل والإنسان العارف العالم أقرب إلى الله من الإنسان الجاهل لأنه أكثر معرفة به

: ما رأيك أن نكمل في الأيام القادمة ؟
: يا سيدي أرجوك سامحني أنا انسان بسيط .. أنا أستفيد منكم وعلى يديكم نهتدي .. أرجوك سامحني قد أكون أكثرت كلاماً لا معنى له .. أنا انسان بسيط

: يا ناجي أنت أجبت عما سألت أنا .. أجبت بما تعرف وكنت صادقاً .. وأنا أشكرك جداً ولنا لقاء آخر إن كان ذلك لا يزعجك

: يا سيدي شرف كبير لي أن تقبل محادثتي وتحديثي .. يا سيدي أطال الله في عمرك وأكثر من أمثالك

: يا ناجي كلنا أولاد الله و لو اختلفت ألواننا وأشكالنا وطباعنا وأفكارنا .. نلتقي .. سلام

: سلام .. مع السلامة يا سيدي

(28)

حين أحن إليك

تخرج أعماقي ..

كنهر يهرول إلى بحره

وتقلّ ناري .. احتراقي

فوق خيول ريحك

إلى مرقد رمادي

وجمر عشقك

المجنون

حين أحن إليك

تصيرين سماء

وأنا قمراً يبحث عن وطن

أحمل بوحي

وطيفك

ودوالي اشتياقي

ونبيذ حبك ,

وجراري

أعمدة جمرك

وخجلي من شبقي

كفراشة تبحث عن قنديلها

حين أحن اليك

يحملني المساء

إلى كروم الحلم

لألون فراشاتك

التي تحوم فوق ياسمين الروح

لأكتب ونين نحيلات ذكراك

بحبر القلب

حين أحن إليك

يهزني الوجد

فيتساقط زهر لوزي

كنفنوف الثلج

فوق جبال الوجع العالي

ويتدلى حنيني

كعناقيد الغيم

قبيل المطر

شكراً ..

الحنين إليك

ملأ وجودي

حبّر صفحاتي

عتّق نبيذ كلماتي

وعرّش كالصبح

فوق كمان أغنياتي

والدتي الحبيبة ...

: مرحبا أيتها الأم الحنون

: إلهي يحميك يا روح أمك .. أنت ما بك .. كأنك تفكر بشيء ما .. خير يا ولدي

: ماذا طبختِ اليوم يا أمي

: أنت جائع ؟

: لا

: أعرف .. أنت تريد أن تتناسى .. هناك أمر فعلته ولست راضياً عنه

: يا أمي .. أنت تقرئيني جيداً

: يا ولدي أنا أقرأ عابري الطريق فكيف ولدي .. الذي أتنفسه مع الهواء

: هو أمر بسيط .. لم أخطئ به ولكنني كنت أتمنى ألا أخوض فيه , أحد الآباء فتح حديثاً كان الأفضل التغابي والهروب منه و لا أدري كيف تطور ؟

: هل تهجمت على أحد ؟

: لا يا أمي .. أنا لا أتهجم على أحد ومهما كلف ومهما كان , فقط سردت بعض الحقائق التاريخية

: هل غضب ؟

: لا .. لم يغضب أبداً .. بل كان سعيداً باستدراجي للحديث واستغرب من كم المعلومات التي وضعتها بين يديه .. واستغرابه هو ما دفعني للحديث والاسترسال .. يا أمي هنا أغلب الناس يعتبروننا أناساً بسطاء .. سطحيين .. سذج .. وممكن بهائم لا نفقه شيئاً .. الفقر يذل الإنسان ويفقده كل شيء يا أمي .. بعض الناس عن قصد أو عن غير قصد يرسخون هذه النظرية لدى الناس هنا .. قال لي

سنك لا يدل عليك .. أنا فهمت عليه ولذلك استطاع عن قصد او غير قصد استدراجي , وأنا أجبت بما أعرف وما سمعت

: حديثكم هل سيؤثر على عملك ؟

: لا .. لا أعتقد أبداً .. وأعتقد أنهم يحبونني كلهم وهذا الأب أكثر, أنا أحدثك بما يؤنبني ضميري به .. أقصد ضميري الداخلي يقول لي ابق كما يظنون أفضل

: يا ولدي حتى هنا يجب أن نصمت ؟!

: كأنه كذلك يا أمي .. أمي أنا بعد الغداء سأذهب إلى الخواجا فريد , ابقي هنا اليوم كذلك

: لا .. سنذهب سوية بعد أن تعود , أنا وعدت شيركا أننا سنذهب سوية .. ترجتني أن نأتي هي مشتاقة إليك ولشدة لهفتها لرؤياك وعدتها أن نذهب

: طيب .. ليكن وأنا اشتقت إليها

: عندما تراها لن تصدق

: لماذا ؟!

: صارت لا تشبه نفسها .. صارت مثل الفراشة

: كأنها اقتنعت منك

: اقتنعت منا نحن الاثنين وهي سعيدة بما تفعله ..
ترجتني ألا نتركها وحيدة على الأقل أن ندلها على عنواننا وعاهدتني أنها لن تدل أحداً عليه وأنا أصدقها .. لأنني أحس بحبها لنا وأنا أقرؤها جيداً

: وأنا أثق بقراءتك .. أنت أجمل أم خلقها الله

: إلهي تحميك يا أطيب وأنقى مخلوق في هذا الكون

تركت الأم التي لم تنجبني وذهبت للقاء أجمل وأعظم نساء الأرض .. جمانة التي تملأ روحي جمالاً وأفقي نساءً وكياني رجالاً .. جمانة التي أعادت بناء انكساراتي , وبلمسة يديها مسحت جروحي وخيباتي .. جمانة التي بددت غيوم حزني وحولتها مزناً ماطرة تروي شجر الأمل في عمري

: سلام مليكة الروح

: هلا يا روح الروح

: ما هذا الحزن في عينيك يا مليكة الروح ؟

: هل في عينيّ حزن ؟

: نعم

: في عينيّ لهفة وشوق إليك

: وحزن مزقت سكاكينه شغاف القلب

: كلانا يا ناجي لا يستطيع إخفاء شيء عن الآخر .. أنا وأنت .. كنا كتابين .. اليوم صرنا كتاباً واحداً .. نعم هناك ما يحزنني .. تخيل قبل أن أعرفك كان الذي يحزنني .. الآن .. يجعلني أصير فراشة تطير ولا تعرف أين تحط وطفلة تملأ الدنيا ضجيجاً

: هو عائد ؟

: نعم .. الاسبوع القادم

: كم سيبقى هنا

: لا أدري

: كيف سنلتقي

: لا أعرف

سكتنا نحن الاثنين قليلا

: دكان أبو جورج مخايل تعرفينه

: أعرفه

: تضعين لي خبراً عنده .. قولي له أنك تريدينني بعمل وقولي له أنك تنتظرينني في الساعة كذا .. فقط .. وأنا سآتي عند الصنوبرة في الوقت المحدد

: أين سنذهب ؟

عاد الصمت

: عندي في البيت

: أكيد .. تضعين السيارة في الطريق الجانبي بجانب الدغلة

ابتسمتْ: .. ما هي الدغلة وأين ؟

ابتسمتُ ملء الروح : كم جميلة وعذبة ابتسامتكِ .. لا يليق لثغرك إلا البسمة .. أرجوك لا تجعليها تفارقه كل الأمور محلولة .. المهم أن تبقى فوقه .. أرجوك لا تدعيها تفارقه فأنا بها أحيا هي رفيقة دربي وأنيسة عمري

زغرد ثغرها : ها .. أنسيتني ما كنت أفكر به .. أنت أنسيتني عمري .. أنت جعلت له قيمة وهدف .. ها قد عادت .. والله أعدتها أنت وبك ومعك أصير خميلة عصافير مغردة

: نعم هكذا .. سيأتي فترة ويغادر .. يا جمانة .. أنا وأنت محكومان أن نعيش هكذا , لا نستطيع تغيير أي شيء , ما بيني وبينك سماوات

: والله أعرف .. وأنا لا أريد من هذا الكون إلا هذه اللحظات التي أقضيها برفقتك

: نلتقي عندي في قصري

: أي مكان تكون فيه يكون الكون ببهائه وجماله .. ليأخذوا كل هذا الكون ويتركوا لي ناجي .. والله لا أريد شيئا آخر

: سنلتقي كثيراً قبل أن يأتي .. أنسي قدومه دعينا نعيش لحظاتنا بملء جوارحنا وغداً .. لكل حادث حديث

: بما أنه قادم سأخبرك بشيء خطر لي منذ زمن

: ما هو

: سأمتنع عن تناول مانع الحمل من اليوم وصاعداً

لاحظت فراشات روحي وهي تخرج من عيني

: تتمنى ؟

: تخيلي .....

(29)

يا توءم الروح ..

في شارع القهر

يضلّ كل شيء

الشجر والحجر

الشمس والقمر

الساقية والنـهر

الليل والفجر

والقلب الذي انكسر

ودمي المسفوك قبيل السحر

والروح الظمآنة كحنين في وتر

نحن المغضوب عليهم

والضالين بلا قرار

والدتي الحبيبة ...

عدت مرة أخرى للبحث عن عمل , جوزيف أجّل كل شيء يخصه لم يعد لديه أي هدف سوى أن يجد لي عملا , صاحب البيت قال لي كنت أتوقع أن يبقوك لديهم في الدير لمحبتهم الكبيرة لك ولمديحهم وثنائهم عليك وقلت له - الحق يقال قال لي الأب لم يعد لدينا ما تفعله عندما نحتاج سأخبر أبو الياس وهو يخبرك - أبو كامل مصر على أن الله سيقودني للخير ويؤكد لي (في كل تأخيرة خيرة .. لا

تخف ستأتي لوحدها) الأم سحاب لا تفارقني أبداً إما أكون عندها أو تكون عندي ولم أعد أهتم بنظافة البيت والملابس ولا الطعام .. الأم سحاب تغضب إن فعلت شيئاً (وأنا على قيد الحياة ممنوع أن تفعل أي شيء يخصني أنا ..هذه الأعمال هي لأمك) وأنا لم أعد أستطيع الغياب عنها لأكثر من يومين .. شيركا الجميلة التي خرجت من جلدها والتي لم تعد تشبه نفسها .. برائحتها التي تملأ المكان الذي تمر فيه .. وابتسامتها الحزينة الساحرة ولهفتها التي تجعل أغلب الأحيان دمعتي تسقط فأتصنع شيئا ما فأشيح عنها وجهي , وصرت أشتهي ضمها والعبث بحزنها حتى أشتته وأطرده . شباب الضيعة أراهم ولكن قليلاً جدًا عندما نلتقي نطمئن على بعضنا ونغادر كل في سبيله . أميرة روحي وغيمة هذا الكون الماطرة , عاد زوجها .. نلتقي دائما في البيت كلما استطاعت .. أمس قالت لي أن زوجها يلمح على أنه ينوي أخذها وابنته معه وقالت لي سأحاول بالحسنى أن أثنيه عن رغبته . الخواجا سمعان ما زلت أزوره وكل مرة يزداد ترحيبه بي ويصرّ عليّ ألا أتأخر عليه .. اليوم أنا ذاهب لزيارته بعد أن مر على أبو جورج وسأله عني .. قال له أنني بلا عمل هذه الأيام فترك لي خبراً أن أمر عليه , وأنا الآن في طريقي إليه لعله وجد لي عملاً أنا متفائل يا أمي

: مرحبا رفيق سمعان وكان قد نبهني ألا أناديه خواجا , قال لي (نادني رفيق .. أنا أحب أن أنادى بالرفيق)

: أهلاً وسهلاً بالرفيق ناجي .. صحيح أنت لست منتسباً ولكنني أعدّك منّا وأحبك كأي رفيق من رفاقنا , أنا تركت لك خبراً عند عمك أبو جورج الذي قال لي أنك تقربه وأنا تجاهلت ذلك وفرحت وأيقنت أنه يحبك فعلاً .. أم جورج قالت لي (يا خواجا ناجي كولدي والعدرا لولا حلاوة القلب لقلت لك انه مثل أولادي تماماً .. ناجي في هذا البيت كأنه أحد أولادي .. أتمنى إن كان لديك أي عمل مريح له سأبقى أدعو لك كل عمري) وأنا بصراحة فرحت جداً لمحبتهم وتقديرهم لك ..ناجي تركت لك خبراً كي تأتي إلي لأخبرك أن لدينا دورة تدريبة ترفيهية , فيها من كل البقاع السورية .. أنا أقترح أن تذهب إليها تتعرف على الكثير من الرفاق وتتعلمون على استخدام السلاح والكثير من فنون القتال وحفلات موسيقية ..لا تجبني الآن .. فكر بالموضوع هي بعد اسبوع ستكون في صنين .. إن أحببت عد إلي واخبرني

: شكرا لثقتك بي سأعود إليك دائما اعتبرني أخبرتك .. سأذهب ما دمت ترى أن أذهب .. سأذهب

: إذاً تأتي إلي نهاية الاسبوع وأذهب أنا وأنت .. في صنين الجو بارد في الليل تحضّر لذلك باصطحاب بعض اللباس السميك .. هل لديك حقيبة سفر ؟

: أتدبر أمري

: سأهديك حقيبة الآن .. لدي الكثير .. اعتبرها ذكرى مني .. ضع فيها كل ما تحتاجه .. أقصد من اللباس المدني .. الباقي الحزب مسؤول عن كل شيء وأنا واثق ستكون سعيداً جداً

ودعته والحيرة تلعب بي كورقة حاصرتها الريح في زاوية .. هل أسرعت بالموافقة .. أنا بلا عمل لماذا لا أخوض هذه التجربة أكتسب معلومات جديدة وربما أصدقاء جدد , وخبرة في الرياضات واستخدام السلاح والتعرف عليه .. ومالي وهذه الأمور كلها ؟ وما المانع ؟ ربما خلال الاسبوع أجد عملا .. وربما لا أجد .. هو قرار اتخذته ولا داعي للتفكير به بعد الآن

: الله يسعدك عمي أبو جورج .. الله يسعدك خالة أم جورج

: أهلاً .. أهلاً .. أهلاً يا عين خالتك

: الخواجا سمعان يهديكما السلام

: الله يسلمك .. كنت عنده ؟ .. هل أمن لك عملا ؟

صمتُ قليلاً لم أعرف ماذا أجيب

: هل هناك شيئاً تريد اخفاءه عنا ؟

: لا .. سأقول لكما .. الخواجا سمعان عزمني لألتحق بدورة ترفيهية ورياضية ينظمها حزبهم ويريدني أن أكون فيها

: وماذا قلت له ؟

: وافقت وسأذهب الاسبوع القادم للالتحاق بها

: بدل أن يؤمن لك عملاً يريد أن ينسبك لحزبه .. يا بني ابتعد عن التحزب والأحزاب , دعك منهم كلهم .. لا يأتي منهم خيراً أبداً , أينما حلوا يحل الخراب بالرغم من أن سمعة سمعان ناصيف مثل المسك عطرة ولكنني لا أريدك أن تدخل في هذه المتاهة , هم مثل الأديان لا يورثون إلا الكره والبغض والحرب .. اسمع مني يا بني اعتذر ولا تذهب ستتورط .. عد غداً إليه وقل له عمي أبو جورج لم يوافق .. بل .. غداً أذهب أنا معك إليه إن كنت تخاف زعله

: لا .. يا عمي أبو جورج أنا أعطيته كلمة ولا أريد أن أخلّ بها

: يا عين خالتك .. اسمع من عمك أبو جورج .. لن تندم .. مازلت على البر

: أنا أسمع منكما دائماً .. هي رحلة اسبوع أغير فيها جو .. أتعرف على ناس جدد ومناطق جديدة

: كما تريد .. الله يكون معك

رتبت الدكان ونظفته وأخبرت أبا جورج عن بعض المواد التي نفذت وعليه احضارها

: هل هناك أي شيء تريدني أن أفعله قبل أن أذهب ؟

: إلى أين ؟

: ربما يأتي جوزيف

: مع السلامة .. سلم عليه وخذ رأيه

لم أفتح الباب إلا وجوزيف خلفي

: يا رجل أنت كلك خير وابن حلال .. صرت أتنبأ بك كما يتنبأ قلب الأم بقدوم ابنها منذ لحظة سألني أبو جورج إلى أين قلت له ربما يأتي جوزيف

: وأنا أحسّ بك كأنك أمي وأبي

: تفضل .. تفضل

: أين كنت مررت عليك في الصباح لم أجدك ؟

: كنت عند الخواجا سمعان أقصد الرفيق سمعان

: قصتك مع هذا الرجل كأنها بدون نهاية

: يريدني أن ألتحق بمعسكر للحزب .. معسكر ترفيهي تدريبي .. رياضة وتدريب على استخدام السلاح وسهرات

: ممتاز .. لو دعاني لذهبت

: أبو جورج اعترض .. وتمنى عليّ ألا أذهب .. هو لا يحب الأحزاب وقال .. هم مثل الأديان لا يورثون إلا الكره والبغض والحرب .. وأينما حلوا يحل الخراب

: أبو جورج وأم جورج يحبانك جداً .. وما قاله تقريباً صحيح , ولكن الحياة يا صديقي لن تكون كما يحلم أبو جورج وأمثاله .. الحياة يا صديقي الجميل غابة .. لتحمي نفسك يجب أن تكون ضمن قطيع وحظه من السماء من يستطيع أن يختار قطيعه .. يعني يختاره عن معرفة وعلم وحب وقناعة وليس كمن يخلق في قطيع لا يختاره ولا يملك حق مغادرته .. هل تذكر ابن القحبة .. أليس هو من دفعك دفعاً للتعرف على الخواجا أقصد الرفيق سمعان ؛ ليحميك ويأخذ لنا حقنا من ذلك الوغد النذل , أنا أشد على

يديك عكس أبو جورج .. وأنا أخاف عليك مثله .. ولكن .. الحياة .. ليس في الهروب منها .. الحياة .. أن نعيشها بحلوها ومرها .. بسهلها وصعبها .. وأن يكون لك فيها طريق .. أثر .. والخلود أن تترك فيها شيئاً لا يفنى

: أيها الرائع .. كيف .. وهل لمثلنا أن يترك شيئاً ؟

الفنانون الذين نحتوا البتراء , والمهندسون الذين بنوا تدمر , أهم من كل الحكام الذين مروا , هم ذهبوا واندثروا وهي بقيت , المتنبي خالد أكثر من سيف الدولة وأمرؤ القيس خالد أكثر من كل العرب من آدم إلى يومنا هذا وقس .. أحياناً يا ناجي بيت من الشعر .. بيت واحد .. يخلد صاحبه .. وعمل واحد قد يخلد صاحبه

: لا أختلف معك أبداً .. ولكن .. برأيك نحن الفقراء .. ماذا يخلدنا .. أعتقد أننا نخلد فقط .. الفقر والبؤس , فبفضلنا هو موجود وبنا يدوم .. يا صديقي الرائع نحن نخلد غيرنا .. التاريخ سجل أسماء فراعنة مصر على الأهرامات .. ولكن برأيك هل وضع أيّ منهم حجراً واحداً فيها ؟ من يستطيع معرفة كم من الناس الفقراء مات تحت تلك الصخور والمباني ؟ التاريخ سجل زنوبيا كملكة لتدمر .. وكل ما هو موجود في تدمر .. موجود تحت أسم .. زنوبيا .. برأيك هل لمست يداها ازميلاً أو مطرقة ؟ وهل سجل التاريخ اسم بنّاء واحد ممن صمموا وبنوا ونحتوا الشارع

العريض وأعمدته ؟ أو نحاتاً واحداً ممن نقش تلك المعاجز ؟ لا أعتقد .. يا صديقي التاريخ يكتبه الطغاة بدم الفقراء

: أصبت لب الحقيقة .. ولكن .. المبدع يا صديقي .. عندما يبدع لا يخطر بباله كل الذي ذكرته .. المبدع .. يمارس متعته في الحياة .. كمن يتسلى

: صحيح .. والصدفة وحدها من تخلد هذا وتدثر ذاك .. برأيك ألم يكن في ضيعنا وفي غير ضيعنا شعراء وأدباء يتفوقون على المتنبي وأبو تمام والبدوي وشوقي ونزار .. ولكن الصدفة لم تأتهم فماتوا ومات معهم ابداعهم

: إذا لنفعل ما علينا ونترك الأيام .. الصدف .. سمها ما شئت .. تفعل فعلها .. في ضيعتنا رجل شيوعي حفظت منه بضع كلمات حفرت في رأسي حفراً .. يقول إنها لأحد منظري الشيوعية والماركسية (قل كلمتك وأمش)

: وأنا سأقول كلمتي وأمشي

: اذهب يا صديقي الجميل ولا تخشى شيئاً وربما تجد من تحب وتعشق هناك ومن تحبك وتعشقك وربما أكون أنا هنا قد أمّنت لك عملاً : سلام

: سلام .. أنا أحبك جداً

أشاح عني وجهه عندما سمعها وغادر صامتا

(30)

صباح الخير .. أيها المنتظر

كم شمساً ..

كم قمراً ..

كم ليلاً ..

كم نـهاراً ..

ونحن ننتظر ؟

يا نحن ...

الكثير راح

والعَدْوُ أنـهكه العمر

والدروب قطّعَها الوقت

أيـها المحكومون بالانتظار

وكروم الأحلام ..

هرّت من السلال

في معارج الدروب

كلما أفرغ جام تركنـاه

صرنـا إلى عنقود ..

إلى حبة

حلمنا اليوم أن نموت واقفين

حملتنا وهناً على وهن

وأرضعتنا وجعاً على وجع

وزرعتنا على ضفاف القهر..

حلماً

وقالت:

لا تنتظروه – هو ينتظر

وقالت :

"سيأتي زمن لا أحلام مغتالة فيه .. "

أيها المحمومون بالأحلام

أيها المقتولون بأحلامكم

ها فراشات العمر ..

تاهت في أخاديد الوقت

والقناديل شح زيتها

وأنتم تركضون ...

أقداماكم اقتاتَتْها الدروب

والوريد أغلق شبابيكه

والمسافات صارت أبعد ...

والأفق غرّب إلى بحر الاضمحلال

" وتكابرون ... "

ونكابر ...

لم يبق صوت !!!...

ما تسمعونه صدى عظامكم

تتدعتر بها أقدام العابرين

ونكابر ...

وحدها أمنا قلبها مفتوح

وحدها لا تعاتب ...

وحدها لا تحاسب ...

وحدها تكفكف دمعنا وتمسح تعبنا

وفي حضنها وحدها نتمدد

بكل طولنا

بكل عرضنا

بكل قوتنا

بكل ضعفنا

وبكل أحلامنا

أيها المعجونون بقهركم – بأحلامكم

وزعوا أمنياتكم في سبيل الله

على أساس أنها ..

قاب بنفسجه ونداها ..

قاب الشآم وياسمينها ..

قاب صبا ووتر

وادّعوا ....

حصرمٌ , كرم المسافات..

وبحرُ الأفق أجاج ..

وهذا العريّ .. عرض للجمال

وهذا الملح .. طهرُ جرح

وهذا الموج .. جدائل حوريات

في عرس مرافئ الحنين

وارسموا بأبجدية السراب ,

في سجل الذكريات ,

أغاني للربيع القادم ..

صباحاً للفجر الآتي ..

ومراكباً لبحر عند الشمس

ومنارة لصهيل المتعبين

والدتي الحبيبة ...

ما بين انطلياس وصنين مسافة حلم .. أو عروج إلى حيث تغسل الشمس كل يوم وجهها من غبش الليل .. كنا كأننا نتسابق مع الغيم .. أحياناً يباغتنا عند منعطفٍ , فنتركه عالقاً بأغصان أرزة ونجتازه , ليلاقينا مقهقهاً عند أول المنعرج .. الرفيق سمعان على طول الطريق وهو يحدثني عن الزعيم وكيف استطاع أن يوفق بين المادة

والروح ويستنبط نظرية جديدة للكون وهي (المدرحية) عكس بعض النظريات التي اعتمدت على الناحية الروحية وتجاهلت المادة كاللاهوت أو الفكر المادي الصرف كالماركسية التي أغفلت الروح واعتمدت المادة .. سألته سؤالا واحداً خلال كل حديثه .. لماذا تكرهون اليهود وتحبون العرب والأتراك أقصد التركمان والكرد والشركس..... بالرغم من أن اليهود سوريون و هؤلاء جميعهم غزاة .. أجاب بحدة (هؤلاء صاروا من نسيج المجتمع السوري , أمّا اليهود فلم يستطيعوا قبول الآخر .. وهم سبب بلاء البشرية) تذكرت حواري مع الأب وقررت أن أستمع فقط .. قال الرفيق سمعان

: بعد قليل سنصل إلى دير البشير , سيكون مركز تجمعنا وسيتابع الجميع سيراً على الأقدام لأن الطريق من هنا وصاعداً صار غير معبد المشرفون والمسؤولون عن المعسكر سبقونا إلى هناك بسيارات جيب تستطيع السير على الطرق الجبلية .

دير البشير , ضيعة منتشرة كالشرايين على سفح جبل يجاور السماء تماما يُخيل للزائر أنه عندما يصعد إلى قمة الجبل سيمد يده ويلمس النجوم أو القمر أو الشمس , الضيعة كأنها خالية من السكان , بيوتها متباعدة .. لذلك ربما لم نر إلا القليل ممن يمرون في الطرقات .. شجر

الأرز ينتشر في كل مكان .. بعض الأشجار من الضخامة لدرجة أنها تمتد جذوعها وأغصانها لأكثر من مئة متر .. عندما رأى الرفيق سمعان دهشتي قال هنا بعض الأشجار عمرها أكثر من خمس مئة عام . عندما نزلنا من السيارة كان عدد من السيارات تقف تنتظر استكمال وصول الرفاق .. اندفع الجميع لاستقبال الرفيق سمعان .. كأن الغالبية يعرفونه .. أغلبهم قُبيل أن يصل أمامه وقف كالطود وحياه رافعاً يده إلى الأمام وكان هو يقف منتصباً كذلك ويرد التحية وأنا صرت أقلده تماماً .. بعد أن سلمنا على الجميع وأنا ما زلت كظله ألصق فمه بأذني وقال

: أنت رائع .. أنا أحبك جداً

همست في أذنه كذلك

: أنت تاج رأسي ورأس كل شريف في هذا الكون .. وأنا أحبك جداً

أنا فهمت لماذا قال ذلك .. سألهم

: من بقي ولم يصل بعد ؟ أجاب أحدهم

: بقي عشرة رفاق أعتقد دقائق ويصلون جميعاً . وقفنا ننظر إلى الغرب .. صار الغيم والضباب الذي كنا نتسابق معه على الطريق صار أخفض منا .. على مد النظر لا

ترى إلا كتلا من الغيم كالقطن المندوف تتدافع في قلب الوديان , انطلقنا بعد اكتمال العدد عبر وديان وجبال مسافة ساعتين وربما أكثر .. وصلنا إلى مكان , مساحة كبيرة جداً مستوية كراحة الكف تحيط بها الجبال من كل الجهات , تبدو كأنها تقف حراساً لهذا السهل او المنبسط , شجر الأرز ينحدر من القمم إلى السفوح مشكلا غطاءً طبيعيا للمكان على طرف هذا السهل الواسع تحت شجرة أرز كبيرة جذعها أكثر من خمسة أزرع .. على أحد غصونها علقت أكرة يتدلى منها حبل وسطل لسحب الماء من البئر الذي يرتاح في ظلها الوافر .. استقبلنا عند وصولنا ستة شباب وأربع صبايا باللباس العسكري المموه

: أهلاً وسهلاً بكم أيها الرفاق .. أيها الرفاق نحن قسمناكم إلى خمس خيام للشباب وثلاث خيام للبنات , الخيمة تتسع لثمانية أشخاص ولكننا جعلنا كل ستة رفاق في خيمة لتوفر الخيام ولكي يكون متسع وراحة .. أعتقد أن أغلبكم لا يعرف الآخر لذلك نحن وزعنا الرفاق وحرصنا أن يكون في كل خيمة من كل البلاد السورية لنتعارف أكثر .. على كل حال أعتقد أن الخيام لا ندخلها إلا لننام لذلك الأمر بسيط .. سأقرأ أسماء الرفاق كل ستة في خيمة ليتفضلوا ويستلموا خيمتهم وينصبوها .. حددنا مكان الخيام وسنقوم نحن بمساعدتكم في نصبها لمن لا يعرف .

خلال ساعات كانت الخيام منصوبة خمسة للشباب وثلاث للبنات وحرصنا أن تكون خيام البنات تحيط بها خيام الشباب والمشرفين من كل الجهات . حوالي الساعة الرابعة وزع الطعام أحد المشرفين

: رفاق .. الطعام وافر وكل ما تطلبونه وتشتهونه موجود , هذه خيمة الطعام , من الآن وصاعداً كل رفيق يأخذ ما يحب ويشتهي وكفايته .. قد لا نستطيع نحن تقدير ذلك بدقة لذلك الخدمة من الآن وصاعداً ذاتية

في الخامسة وُزِعَ لكل رفيق حقيبة مكتوب عليها اسمه , فيها لباس عسكري مموه كامل ولباس للرياضة كامل .. الآن عرفت لماذا سألني الرفيق سمعان عن مقاس ثيابي وحذائي يوم دعاني للدورة , باقتراح أحد الرفاق بدأنا العمل على حفر ما يشبه المدرج تحت الأرزة للأماسي وللمحاضرات .. كانت كل الوجوه تقرع قفصك الصدري ؛ لتدخل وتتربع في شغاف القلب , لدرجة تكاد تنسى من أنت , ولماذا أتيت , كل البنات كن جميلات لدرجة النشوة , هكذا رأيتهن .. ربما الجو الذي خلقه الجميع هو من ولّد لدي هذه الرؤية , والود الذي ملأ المكان البارد , فملأه دفئاً وحميمية ونحن ننصب الخيم حيث كنت بمنتهى السرعة والمتعة أعمل وبدون أي ارشاد اقتربت مني أحد المشرفات

: أنت فلسطيني يا رفيق ؟

: أنتِ ماذا تريدينني .. أقصد ماذا تتمنين أن أكون ؟

ابتسمتْ ابتسامة ارتدتني كقميصي

: أريدك كما أنت .. أنا سألتك لأنني وجدت لديك خبرة في نصب الخيم

: أنا أول مرة أنصب خيمة .. ولكنني أحب أن أكون من المكان الذي تحبين

: الأماكن بناسها أليس كذلك ؟

: ليس دائماً

صمتت قليلاً ..

: صحيح .. ليس دائماً .. أنت من الساحل السوري

: تقصدين من اللاذقية أو طرطوس أو لواء الاسكندرون ؟
لأن الساحل السوري من البحيرات المرة إلى طرسوس

: تماماً هذا ما قصدته .. لهجتك اللبنانية فيها لكنة طرطوسية أو لاذقانية أو لوائية

: صدقت أنا من هناك .. أنا ناجي سالم الشيخ

: تشرفت بك يا رفيق ناجي .. سوسن فارس أبو زهرة من يافا - فلسطين

: وأنا سعدت بمعرفتكِ جداً .. شكراً لوجودكِ الذي يملأ الكون جمالاً وعذوبة

اتسعت ابتسامتها واتسع أفق الجمال
: شكراً لعينيكِ التي رأت بي ما ليس بي
: شكراً لدرك المكنون الذي أخذ بيدي إلى عالم الجمال والأناقة والرقي

: كأنني لن أستطيع مجاراة فيض شاعريتكً نلتقي
: ازعجكِ ما قلت .. لأعتذر ؟

: من يتحدث هذه اللغة ويملك هذا الذوق لا يعتذر .. أبداً .. أنتَ .. أيقظتَ مراهقات أنثى .. فخبأن وجوههن بخفر العذارى

في المساء أشعلنا الفوانيس وعُلقت في أغصان الأرزة وجلسنا على المدرجات وجلس عند جذع الأرزة على صخرة كبيرة مشرف ومشرفة وباقي المشرفين جلسوا بيننا .. انتظرت حتى تجلس المشرفة سوسن ولكن كأنها انتبهت أو تقصدت أن تبقى واقفة حتى أجلس وثم تجلس .. جلست بعيدة .. عرّف الرفيق بنفسه وبرفيقاته ورفاقه المشرفين ثم طلب أن يعرّف كل واحد منا بنفسه .. كان

أغلب الحضور من لبنان وفلسطين وأردني واحد وعراقي واحد وسوريان وأنا الثالث أقصد من الشام , ثم تحدث الرفيق عن الدورة وبرنامجها بإسهاب وطلب من الرفاق الذين يحملون معهم ألات موسيقية أن يحضروها لنكمل السهرة ومن يود النوم فله الخيار

لم يذهب أحد إلى النوم بقينا جميعاً كان من يحمل آلات موسيقية ثلاث بنات واحدة معها طبلة واثنتان معهن غيتار وشابان معهما ألة العود وشابان معهما كمان وشاب معه ناي وبدأت السهرة عزفوا نصف ساعة ليضبط كل منهم آلته ثم بدؤوا التدريب على العزف سوية اتفقوا على ان يعزفوا من الأغاني التراثية وبدؤوا بالانسجام كان يقود الجميع شاب طويل جميل الصورة , الابتسامة لا تفارق ثغره , كأن الجميع قرؤوا تمرسه وخبرته فصار الجميع يلتحق بما يعزفه على كمانه , بعد نصف ساعة صار الانسجام بينهم كأنهم فرقة, وربما لرسوخ الأغاني التراثية في الوجدان وحفظها بشكل فطري وصار الجميع يغني بشكل جماعي مع المعزوفات , انتصف الليل فبادر أحد المشرفين .. تصبحون على خير .. الاستيقاظ في السابعة والنصف بلباس الرياضة , اليوم وغداً وبعد غد نحن سنتناوب الحراسة , أقصد المشرفون وبعدها سنتشارك جميعاً بعد أن تتعلموا استخدام السلاح . في خيمتي كان ثلاثة من لبنان وأنا وفلسطينيان , نام الجميع إلا أنا ,

الفلسطينيان وهما يتعرفان على بعضيهما بلكنتهما الفلسطينية أيقظا مأساتي مع عاملي التلييس (الورقة) ولا أدري كيف غفوت , صحوت على مناداة أحدهما

: ناجي .. ناجي (كوم)صار الساعة سبعة

بدأنا الجري جميعاً بين الأشجار على طرف السهل المنبسط , وفي السفوح , يقودنا شاب أسمر غامق , عرفت من لكنته أنه فلسطيني , طفنا حول السهل الكبير , والذي يبلغ محيطه قرابة الألفي متر , وعدنا إلى قرب البئر , وبدأنا بالتمارين الرياضية , في الثامنة والنصف ذهبنا لتناول الإفطار , في العاشرة عدنا إلى مدرجنا الرائع تحت الأرزة , وبدأ أحد المشرفين وبيده الكلاشنكوف , يشرح ويفك , ثم بدأ كل واحد منا يخرج إليه ويفك ويركب , في الساعة الثانية عشرة انتهى الدرس وذهبنا , منا من ذهب لصنع الشاي وآخرون لصنع القهوة , وآخرون تجمعوا تحت الأرزة , وبدأت أحاديث التعارف بين الشباب والصبايا .. اقترب مني الشاب الفلسطيني الذي كان ينام جانبي

: كأنك لم تنم أمس جيداً

: صحيح .. ذهب النعاس ولم أستطع النوم ولا أدري متى غفوت

:هل هناك ما يزعجك ؟

: لا أبداً .. لم أشعر يوما بسعادة أكثر من الآن .. هذه اللمة وهذا الود الذي تراه في عيون الجميع ينسيك كل الكون .. ربما تغيير المكان .. ربما السعادة .. السعادة كالحزن تذهب النوم من العيون .. وربما تأتيك فكرة قُبيل وضع رأسك على المخدة تطيّر النوم من عينيك وتجعلك متيقظا دائماً

: صحيح .. ناجي أنت سوري ؟

: نعم

: أنا فلسطيني

: أعرف

: من اللهجة ؟

: تماماً .. اللهجة الفلسطينية مميزة

: تحبها ؟

: من ؟

: اللهجة الفلسطينية

: أنا أحب الهواء إن أتى من صوب فلسطين .. ومن لا يحب قلبه .. فلسطين هي قلب سوريا

: أنت قريب جداً إلى القلب .. ملامحك وابتسامتك وطريقة حديثك تدخل القلب فوراً

: يقال إن أحب الله مخلوقاً .. أحبب خلقه به .. وأنت ودود ورائع .. على فكرة وبدون أي مبالغة عاينت أغلب هذه الوجوه لم ار وجهاً لا يشدك إليه ..

: صحيح .. ربما تجانس الناس فكريا يجعل هذا الحب وهذا الود بينهم

: اين تسكن يا رفيق ناجي ؟

: في انطلياس

: بعيد جداً .. لا أدري إن كنا سنجتمع مرة أخرى

: أين تسكن ؟

: أهلي في صيدا وأنا بشكل دائم في الجنوب

: قد نلتقي .. صيدا والجنوب ليسا بعيدين

: كم أحب ذلك .. يا ريت

: ما دمنا التقينا هنا احتمال لقائنا ودائماً وارد جداً .. لا أنت ولا أنا ولا رفيق من الموجودين .. كان يعتقد أنه سيلتقي بنا هنا

أنهت حوارنا شابة لطيفة تحمل بيدها ابريقاً كبيراً وبالأخرى مجموعة من الكؤوس

: أنا ماري .. وأنتما ؟

: أنا خالد والرفيق ناجي

: أنا معي شاي وجورجيت معها قهوة وهي قادمة فماذا تريدان ماري أم جورجيت ؟ - وهي تقهقه - أقصد شاي أم قهوة ؟ قال خالد

: أنا أريد قهوة

: وأنت ؟

: أنا أريد ماري

قهقهت : على عيني .. على عيني

عند الرابعة دعا المشرفون للمسير باللباس العسكري بقي رفيقان من المشرفين وغادرنا جميعا صعوداً , كان كل اثنين أو ثلاثة يتبادلون الحديث هؤلاء عن الموسيقا .. وأولئك عن الطبيعة وهؤلاء عن الثورة والحرية ..

وأولئك عن الفقر والكرامة .. وهؤلاء عن فلسطين وعرفات وجورج حبش وحواتمة وجبريل , ونحن نلهث , احتدم النقاش بين مجموعة حول الحركة الوطنية وكمال جنبلاط .. محور الخلاف كان في البداية على كمال جنبلاط وياسر عرفات وحافظ الأسد , أحد الرفاق قال عن الأول أنه رجل يدعي ما ليس فيه .. هو رجل اقطاعي يسحق الفقراء من أيام أجداده .. طائفي يتستر بيافطة التقدمية والعلمانية ليركب على الجميع أقصد الأحزاب والجماعات اليسارية والثاني هو سبب نكسات الثورة الفلسطينية كلها , هو يد الرجعية العربية الطويلة في الثورة الفلسطينية فالرجعية العربية هي من تموله وتدعمه ولا يمكن أن يحرر شبراً واحداً إلا إذا كانت الرجعية العربية ستحرر فلسطين , وحافظ الأسد وحزبه العروبي , هو من أجهض نهضة الأمة السورية , وقتل ولاحق كوادرها وأعدمهم .. رد أحد الرفاق بمنتهى الهدوء - ونحن نتوقف قليلا ثم نتابع - يا رفيق .. كمال جنبلاط أكيد ليس كارل ماركس وله معتقداته ودينه وفكره وأكيد لم يبتعد كثيراً عن اطار طائفيته , ولكنه يتبنى الثورة والحرية هل نقول له لا نقبلك ؟ وياسر عرفات كذلك ليس لينين , ولاغيفارا , وليس كاسترو , ولو ارتدى مليون كوفية وأجمل ما أبدعه الخياطون من أزياء عسكرية , وأجزم معك أنه خرج من عباءة دول النفط الرجعية العفنة

ولكنه يقود أكبر الفصائل عدة وعدداً , هل من الحكمة رفضه لأن دول النفط تموله ؟ بالمناسبة موسكو كذلك تدعمه وتدعم كمال جنبلاط كذلك , وأما حافظ الأسد فبالأمس خرج بأول انتصار على اسرائيل وكذلك تدعمه موسكو , وعلاقاته جيدة مع أغلب دول العفن العربي , و لم يتنفس السوريون القوميون الاجتماعيون إلا في عهده .. رفيقي الغالي ليس من الحكمة في شيء , أن نفتح صراعاً مع أي فصيل يريد قتال اليهود , فرد عليه كذلك بمنتهى الهدوء , وليس من الحكمة أن نبيع أوهاماً , وليس من الحكمة ألا نقول للناس الحقيقة كما هي , الحكمة أن نقول الحقيقة كما هي , ونسمي الأشياء بأسمائها , ليكون الناس كل الناس , على بينة .. إن كانوا من جماهير الحزب أو من جماهير الأحزاب الأخرى , لا أعتقد أنَّ المسافة كبيرة بين بيير الجميل وكمال جنبلاط , كليهما من ورثة العائلات الاقطاعية , وليست المسافة كبيرة جداً بين كميل شمعون وياسر عرفات , كليهما رجل الغرب , الأول بدون واسطة والثاني عبر وسيط وهو ملوك ومشيخات الخليج درءً للفضيحة , المسافة بين هؤلاء جميعاً والكيان اليهودي , هي المسافة بينهم وبين واشنطن , فالجميع يشربون من نفس النبع ولكن بكؤوس مختلفة وكذلك درءً للفضيحة . طلب أحد الرفاق المشرفين انهاء النقاش لحين العودة , لأن النقاش هنا يعيق المسير . تابعنا المسير

صعوداً , بعد حوالي الساعة وصلنا إلى القمة لم نر شيئاً , كان الضباب الكثيف لا يدعك ترى لأكثر من مترين , جلسنا فوق الصخور لنرتاح .. لا أدري إن كانت تقصدت الجلوس بجانبي أم هي الصدفة , حين نظرت على يميني وأنا أحاول تعديل جلستي .. فوجدتها بكامل ابتسامتها

: سعدتْ ؟

: جداً

: بما ؟

: عما سألتِ

: لماذا لم تقترب طوال الطريق إذاً

: منذ الأمس ودنان عطركِ تمنع عني عبيرها

: هل أعجبكَ النقاش رأيتكَ شديد الانتباه

: برأيي .. كلا الرفيقين يخوضان في نفس البحر بينهما بعض الفقاعات مع الحوار تزول .. وأنتِ ما رأيكِ ؟ .. لم ترد بل سألتني

: ناجي .. كم عمرك ؟

تأملتها .. أبحرت في عينيها العسليتين الجميلتين حتى أشاحت وجهها عني , خمّنت عمرها وأجبتها

:ثمانية عشر

: لا أعتقد

: وأنتِ

: ثلاثون

: لا أعتقد

حاولتْ أن تكون ابتسامة .. لم تستطع .. خرج لابتسامتها صوتٌ كتمته بيدها .. ابتسمت بنشوة وأنا أقول لها

: ما رأيك أن يكون حلاً وسطاً بيننا أنا وأنت على التسعة عشر مثلاً

وضعت يدها على فمها مرة أخرى

: هل ستشارك في النقاش إن حدث ؟

: لا أدري

: كيف لا تدري ؟

: لن أقحم نفسي .. إن وجدت إمكانية للمشاركة سأشارك

: إلى أي كفة تميل ؟

: لي رأي آخر ألتقي هنا قليلاً وهنا قليلاً .. يعني .. أنا .. الأثنين .. بدون فقاعات

في اليوم الثالث بعد عودتنا من التدريب على القتال القريب وجدنا بانتظارنا ضيوفاً , اثنين منهم باللباس العسكري أحدهم الرفيق سمعان , وقفوا وحيونا وتقدم منا الرفيق سمعان (نحن فخورون بكم وبما تقومون به .. أنتم أبناء هذه الأمة العظيمة التي لم يستطع الغزاة على مر العصور قتل روحها الولادة ومحو تاريخها المبدع .. معي ضيوف أتوا لمشاركتكم فرحكم .. نلتقي بعد استراحتكم تحياتي لكم جميعاً) ونحن في طريقنا إلى خيامنا سألت سوسن وهي تهم بالمغادرة همسا في أذنها ..

: كأن النقاش انتقل إلى أعلى

: وفي أذني .. ما أدراك ؟ هل تقرأ الغيب ؟

: لا.. لا أعلم الغيب .. أمي سحاب .. علمتني قراءة الوجوه

: سحاب .. ما هذا الاسم الجميل .. والدتك اسمها سحاب ؟

: أمي اسمها سحاب

: وهي تبتسم.. ووالدتك ما اسمها ؟

: راحيل

: اتسعت الابتسامة .. اشرح

: في يوم ما

في بداية وصولنا استغربت أن يكون بين المدربين نساء , ثم خمّنت أن يكنّ للتدريب على الاسعاف والأمور الطبية , لم أتخيل أن تكون سوسن إحدى مدربي القتال القريب الثلاثة .. سوسن فارس أبو زهرة .. هذه السمراء الكحيلة .. الممشوقة كحورة .. التي تتحرك بسرعة وخفة تذهل .. أثناء التدريب حاولت أنا كغيري أن نتشبث بالأرض قليلاً ولا نقع .. ولكن دون جدوى .. وهي تشرح (في القتال القريب عليك أن تكون أسرع من خصمك دائماً .. عليك ألا تعطيه فرصة للثبات , في القتال القريب الأسرع دائماً له الفوز , الشجاعة والمبادرة السريعة وخطف هيبته وزرع الخوف في قلبه يكسبك الفوز ولو كان هو الأقوى , القتال القريب يلزمه القوة ولكن السرعة والخفة والصوت أهم من القوة) سوسن الأنثى مختلفة جدا عن سوسن المقاتلة . في الساعة الرابعة كنا جميعاً تحت الأرزة على تلك المدرجات الجميلة والضيوف جلسوا أمامنا بشكل دائري وقف الرفيق المشرف الياس ورحب بالضيوف وشكرهم لقدومهم لمشاركتنا عملنا وفرحة لقائنا ودعى الرفيق سمعان للحديث وقف الرفيق سمعان وبدأ الحديث (أنا أرحب بكم جميعاً وأرحب بالرفقاء الذين جاؤوا

ليشاركونا , أيها الرفقاء دوراتنا تقام لعدة أسباب أهمها التعارف بين شبابنا وتوطيد أواصر العلاقات بين الرفقاء من كل البلاد السورية واكتساب المعارف الفكرية والرياضية والعسكرية لنكون دائماً مستعدين للمعركة القادمة , التي ولو تأخرت هي آتية ولنحاول قدر المستطاع شرح القليل من فكر الزعيم للرفقاء وهنا يجب الاعتراف أننا لا نستطيع ونحن في هذه الظروف الصعبة إيضاح رأي سعادة بما جرى وما يجري ويجب أن نعترف أننا مقصرون ومهما كانت الظروف والاعتراف بالتقصير هو وقفة مع الذات لانطلاقة جديدة نتفادى ما استطعنا أخطاءنا السابقة أهلاً وسهلاً بكم .. أعطي الكلام للرفيق خالد)

الرفيق خالد رجل وسيم تجاوز الستين قليلاً رصين شعره طويل غزاه الشيب الجميل .. لحية كثيفة طويلة وشارب .. تكلم بصوت رخيم جرش قليلاً .. بدأ بالوضع الدولي , ثم العربي , واستفاض عن سوريا بكياناتها شدّ الجميع بطريقة سرده وتحليله , ولكنه في القضايا السورية بقي في العموميات , ولم يقترب من أي موضوع يمكن أن يفتح نقاط خلاف .. أنهى حديثه وطلب منا أن نسأل وعلى الرفقاء أن يجيبوا بما يستطيعون . وقف أحد الرفقاء المشرفين وقال

: أيها الرفقاء , الحوارات التي تدور بين رفقائنا هنا لا تخلو من بعض الخلافات في الرأي , عن بعض الأمور التي تدور حالياً على الساحة اللبنانية والشامية و الفلسطينية والعراقية - وسرد له ما دار بين الرفقاء - نريد تحليل الحزب لو سمحتم

- استأذن الرفيق سمعان من الجميع وطلب -

: تفضل رفيق الياس .. تفضل

الرفيق الياس رجل مليء أصلع في قمة الرأس سوالفه كثيفة وطويلة كما شعره في الخلف كذلك يغزوه الشيب بالكامل ومتقارب في العمر مع الرفيق خالد . الحقيقة أسهب في التوضيح وكثيراً من الأحيان سمى الأشياء بمسمياتها , ولكنه ترك الفقاعات لم يفقأها . تكلم بعده الرفيق سمعان

: رفقاء هل قال الرفيق الياس كل ما في نفوسكم ؟ هل أجاب على تساؤلاتكم ؟ هل هناك أسئلة ؟

الحقيقة كنت أريد السكوت لولا نظرة سوسن وابتسامتها .. كنت سأختار الذهب لولا أن قامت من مكانها وجاءت : أما لديك ما تقوله ؟

: السكوت ذهب

: إن كان لديك ألماساً لماذا لا توزعه علينا – قالت ذلك وغمازتا خديها تزدادان سحراً وجمالاً –

: تريدين أن أتكلم ؟

: إن كان لديك ألماس

انتبه الجميع لهمسنا فرفعت يدي

: تفضل رفيق ناجي ما السؤال ؟

انتبه الجميع أن الرفيق سمعان نادني بالاسم

: الحقيقة ليس لدي سؤال هو رأي وأريد أن أعرف رأيكم فيه

أجابني فوراً الرفيق خالد

: تفضل يا رفيق الصح أن يقول كل رفيق رأيه ونتحاور جميعاً وإلا نكون نلقي عظات

: شكراً يا رفقاء أول ما سأتكلم فيه هو سايكس بيكو اللذان قسما بلادنا كما شاءت مصالح بلديهما .. وتركونا وراحوا تحت ضربات ثوار هذه البلاد , الآن .. لم تعد المشكلة بهما , المشكلة أننا نحن الآن نقاتل لتثبيت ما قسموه وجزؤوه فابن كل اقليم أو كيان يشعر بالفخر والاعتزاز بالانتماء لما منحه له سايكس وبيكو ويرى

الكيان الآخر من وطنه الحقيقي هو وطنه الثاني والأصح يراه وطنا آخراً فالثقافة في هذا المجال هي عميقة عند كبار السن أكثر من جيلنا نحن الشباب , تربية الانسان برأيي توازي تحرير الأرض السورية ,لأن الإنسان السوري الحقيقي يوازي الأرض تماماً , فالإنسان الذي لا يعرف قيمة أرضه وحدود بلاده لن يصونها ولن يدافع عنها , فسايكس بيكو , ربت دون أن نشعر الإنسان في كل بقعة على أنها هي وطنه العظيم .. بل وزرعت في نفسه أن هذه البقعة الصغيرة هي أصل الكون كي تنسيه وطنه الحقيقي وحدوده وامتداده , وصار إنسان كل قطعة متعصب للجنسية الجديدة , وسايكس بيكو وما قبله من المستعمرين , صنعت لكل جماعة أو طائفة زعيما خالداً ما خلد الكون وما علينا إلا الطاعة والتسبيح لهذه العبقريات , في أحد نقاشات الرفقاء قال أحد الرفقاء إن المسافة بين هؤلاء جميعاً واسرائيل .. هي المسافة بينهم وبين واشنطن وأنا أبصم له وردّ أحد الرفقاء .. لا مصلحة لنا أبداً أن نفتح الآن معهم جبهة وأنا كذلك أبصم له .. ولكن بدون فقاعات وغشاوة .. أي أن تكون الأمور واضحة للكل ليس للرفقاء فقط بل لكل الناس .. أي أن نبين هوية كل هؤلاء .. العدو ووكيله ووكيل وكيله .. ونشرح للجميع ما هو مبدئي وهو ما لا يجوز المساومة عليه ولا النقاش فيه والهامشي وهو ملعب ممكن اللعب

فيه وألا نخلط بين الغث والثمين ولا يجوز وضع الناس أقصد من يقودون الكيانات والحركات والأحزاب في سوريا التي بالمسطرة قسمها المستعمر .. لا يجوز أن نضع هؤلاء في سلة واحدة , هكذا نكون قد فقأنا الفقاعات ومسحنا الغبش وبذلك نضع كل شخص في مكانه الحقيقي لا كما يحدث الآن , شكراً أيها الرفقاء كأنني أطلت أحببت ألا يكون وجودكم مهرجاناً خطابياً , أحببت أن يكون حواراً ممتعاً وجميلاً يقول كل منا ما يجول في خاطره , وما يقرأ وكيف يقرأ ما يدور حوله شكراً مرة أخرى

وقف الرفيق خالد

: شكراً لك أيها الرفيق العزيز , هكذا تُغنى الحوارات والآماسي والاجتماعات , ولا حاجة لنا للخطابات والسجع والبديع إلا في الشعر والأدب , أما في السياسة والمبادئ والمواقف, فيجب أن نضع النقاط على الحروف , ويجب أن نقول الحقيقة ومهما كانت , ولكن .. أيها الرفقاء يجب أن نبين الآتي وبمنتهى الموضوعية والصدق .. أولاً .. لكل مقام مقال وفي كل موقع وضعية مختلفة للوقوف , ولكي تكون الصورة واضحة سأسرد أمثلة تقرب الحديث من مضمونه ويصير واضحاً .. حديث أخ لأخيه , يختلف عن حديث أخ لصديق , وحديث أم لابنها يختلف عن حديثها لزوجها أو لابنتها أو لأختها وحديث الأب لابنه

يختلف عن حديثه لصديقه .. أقصد ما نتحدث به الآن مع بعضنا قد لا نستطيع البوح به للغير فيما بيننا نضع نقاطنا على الحرف ومع الأصدقاء قد تكون نقاطنا مختلفة عما وضعناه فيما بيننا وما نضعه مع الناس قد يكون مختلفا كذلك .. ومع الأعداء سيكون مختلفاً جداً .. وبناء عليه .. تقييمنا لبعض المواقف ولبعض الشخصيات فيما بيننا يكون مختلفاً أمام الملأ .. فبعض الشخصيات والحركات لسنا نحن من أوجدها .. هي موجودة .. قد لا يعجبنا وجودها ولكنها موجودة .. قد تكون سيئة .. وقد يكون الأسوأ .. والأسوأ .. والأسوأ وهكذا .. فنحن علينا أن نجد طرقاً معينة للتعامل مع الواقع الموجود وبأقل الخسائر الممكنة , ولكن ليس في العمق في المبادئ .. علينا كما قال الرفيق أن نلعب في ساحة الهوامش , ومن هنا .. هناك واقع موجود ورديء وفي هذا الرديء إذا دخلنا في التفاصيل سنجد بين هذا الرديء درجات , لذلك أقول لكم , كل ما قلتموه صحيحاً ونحن نعرفه حتى هم يعرفون أننا نعرفه ويعرفون أننا نقطّع معهم مرحلة , ونعرفهم جميعاً .. منابتهم وكيف يفكرون .. ارتباطاتهم وكيف يتحركون , وهم يعرفون أننا نعرف .. انها مرحلة نُقطّعها بأقل الخسائر , أما عن الثقافة السورية القومية .. فالحقيقة النزعة الكيانية (كيانات سايكس بيكو) غذّتها بعض الحركات وبعض الشخصيات المرتبطة ببعض الدول ,

والإنسان بطبعه ميال للاعتزاز ببلده وهذا ما ساعد هذه النزعة لتنمو وتحيا , أما نحن لا أعتقد أننا مقصرون , لأننا كما تعلمون لم يدعنا المستعمر والحكومات التي صنّعها لحظة واحدة , ونحن ملاحقون في كل البقاع السورية منذ استشهاد الزعيم حتى اليوم , هذه الأيام نلتقط أنفاسنا .. أيها الرفقاء .. دعونا نقول بيننا كل شيء .. ومع غيرنا ليكن الحديث على قدر من الوعي والحكمة بحيث لا نساوم على المبادئ ولا نفتح معركة جانبية على حساب المعركة الرئيسية .. شكراً

قال الرفيق سمعان

: هل وصلت الفكرة .. هل من سؤال ؟ .. ليس هناك أي سؤال ..طيب .. نرتاح للطعام ونعود لنسهر

: ماذا ستفعل الآن ؟

: لا شيء
: ألست جائعاً ؟
: لا

: ترافقني أريد أن أتمشى ؟

ابتعدنا قليلاً عن الجميع ولكننا كنا على مرآهم تحت أرزة وعلى حجرين جلسنا

: لك عندي غمرة وقبلة

: فقط ؟

: ماذا تريد ؟

: أنا أمزح .. ألا تتجرئين على غمري وتقبيلي ؟

: أنت ما رأيك ؟

: وأنا أشتهي ذلك .. متى

: عندما يكون الوقت

: كأنني كنت جيداً اليوم

: أنت دائماً جيد وجميل.. واليوم كنت رائعاً

: هل أخطأت برأيك ؟

: لا .. أنت صدمت الرفقاء الكبار في السن وفي التجربة , أعتقد أنها كانت صدمة رائعة .. أقصد أنهم أحبوا ما قلت ولكنهم فوجئوا بسنك وتحليلك كما فوجئت أنا

: هذا ثناء منك .. ربما هم لا يرون ذلك وإلا لكانوا أثنوا أمام الجميع .. أنا يهمني جداً الرفيق سمعان .. هذا الرجل يثق بي ومتفضل عليّ ولا أحب أن يزعل مني .. أنا أحس بحبه وثقته ولا أريد أن أفقده أبداً

: لا .. أعتقد .. الرفيق خالد استشهد بما قلته أكثر من مرة وحتى الرفيقان اللذان سببا هذه المحاضرة والتي تنبأت لها , وافقا على كل كلمة قلتها .. أنا كنت قريبة منهما وهما يثنيان على ما قلته , في كل الأحوال الرفيق سمعان كان مشدوداً لما تقوله بإعجاب ألم تنظر إلى عينيه وأنت تتكلم ؟

: لم أتجرأ

: ألهذه الدرجة تحبه ؟

: هذا الرجل له هيبة الأب بالنسبة لي

: أعتقد لن يغادر قبل أن يكلمك ويثني عليك وأنا أراهنك

: كيف ستكون السهرة ؟ كأنهم سينامون هنا اليوم

: نعم .. سينامون هنا .. موسيقا وغناء .. سنشارك وهم معنا .. أنت صوتك جميل

: شكراً .. لا ليس جميلاً

: بعض الرفقاء سيقرؤون شعراً أو يقدمون شيئاً من الكوميديا .. سنحاول أن يكون الجو رائعاً

: ما رأيك بالغزل ؟
: لم أفهم ؟

: شعر الغزل .. أريد أن أغير صورتي أمام زوارنا .. ما زلت أحسّ أنني تكلمت بشيء ما كان علي الحديث به

: تريد أن تقرأ شعراً ؟

: ما رأيك أن ألطف الجو ؟

: الشعر لك ؟

: هي محاولة

: جميل جداً

: ناجي .. هل سنلتقي .. بعد أن نغادر ؟

: أتمنى

: أنت أين تسكن وماذا تعمل ؟

: اسكن في انطلياس رأس النبع .. نبع الفوار .. أعمل بأي شيء .. لا عملاً محدداً أتقنه

: وأنا اسكن في مخيم برج البراجنة ولكن أتواجد دائماً في الجنوب .. إذا أردت أن أراك كيف ؟

: في رأس النبع دكان للعم مخايل أبو جورج .. معروف في كل المنطقة , أنا أعتبره كوالدي عندما تصلين إليه تكونين وصلت

بدأ الشباب يتجمعون ومعهم آلاتهم وبدؤوا دوزنتها وخرج الضيوف وبدأت السهرة بدون مقدمات , غنّى ورقص ودبك الجميع , في الحادية عشرة تقريباً وقفت سوسن بعد أن تعب الجميع وقالت

: ما رأيكم أن نرتاح قليلاً مع الشعر ؟

رد الرفيق الياس

: ياريت ..

: أنا أدعو الآن الرفيق ناجي لنسمع شيئاً يختاره لنا

وقفت .. وشعرت بقشعريرة تسري في كل أوصالي وجف ريق فمي وأحسست أنني لن أستطيع الكلام لأنني أحسست أن صوتي قد اختفى , فمشيت بهدوء نحو قنينة الماء شربت وعدت إلى أقصى المدرج من جهة اليسار حيث لا يجلس أحد ووقفت

: الحقيقة لا أدري إن كان ما سأقرؤه عليكم شعراً .. سأقرؤه وتدلوني أنتم إن كان يستحق

- جمانة -

جمانة ...

بنفسجة في حضن المدى ,

عاشقة متمردة كتبتْ

بحروف النار ،

على صحائف اللهيب

ها أنا ....

أفرش جداول اشتهاءاتي

على صفحة بحر رغباتكم المكبوتة

ها أنا ....

أعصي الأوامر ،

أخرق أسفار القوانين ،

وأكتب بحبر السنديان ؟؟؟؟....

أتوق معانقة إله البنفسج ,

أنصله من أسر السيف والدم

أن تبحر إليَّ مدن بلا ملامح

ونرحل إلى لا اسم لا عنوان

نكتب أسماءَ ونرسم ملامح

يُسكت أصواتنا البوح

نضيء فسحة الوقت

و أسوار الحقيقة

ها أنا ....

افرش أنوثتي ..

عارية سافرة في رحم الشمس

فتولد أقرأ .....

قصيدة – طفلة - مراهقة ...

قصيدة – صبية – مجنونة ...

قصيدة – أنثى تطعمكم من جوع ...

قصيدة – أنثى تؤمنكم من خوف ...

تكتب فيها الشفاه صحائف الشكوى

والحلمات تكتب فيها

حارقات الشكر المبحوحة

جمانة ...

أم – أنثى – عاشقة

كل يوم تخرج نهديها للصبر

تُسكره من خمرة الشهوة

و نخب تسلق الغيم

سيّجت ليلها بمواويل الوجد

وأسرجت لصهيلها خيول الآه

وأذنت – ننام في أحد المرات القادمة

أوفي نعش انتظار الأبدية

جمانة ...

كل يوم تبدل البنفسج الذابل

في حنايا الروح والجسد

وتمتطي صهوة العوسج والصبار

فيسيل البوح إلى رحم الوديان

تفتح ذراعيها لصهيل البحر

لوش المطر والغمام ...

: أين مني إلهٌ مجنونٌ

يشعل حرائق مساء ات البرد

يعمّد بنهر النشوة أقداحي

ويلقي فوق رعشتي أزهار المجرة

جمانة ...

تجثو على أرصفة العمر

قمراً عاشقاَ ينادم ثريا عاشقات

تسافر غيمة راعفة

تدمنُ النشوة

تحب مفرداً مجمعاً

هي ناقوس يثقب جبننا ...

ترتل ما توسوس ضمائرنا

– ما تناغي به أطفال أجسادنا المسجونة

جمانة ...

على حافة الليل تصادر ارتحالنا

إلى استرسالات الذاكرة

معلنة في أجسادنا النفير

والجمال في مملكة الأنثى

ملقية أوجاعنا على كتف القمر

مقيمة طقوس الصحوة في ليل الغمام

كل ليل أو نـهار

تجمع أثوابها وستائرها

وتحرق أصابع الخريف

وتنشد ...

: هلّا .. فنان يجيد النقش فوق أنثى

هلّا .. رجل يساهر نجوماً تميجن ...؟

" ما أطال النوم عشقاً

ولا تنـهدت في سريره ورودا شهية "

جمانة ...

إلهٌ في قمر

يتنفسها الصبح

وينشدها المساء

تشعل للصلاة شموعها

وترتدي شبق الجسد

تؤجج النار في التفاصيل

وترقص على أنغام الهطول

تنهمر الأنوثة

وتصير الرجولة فراشات وردية

جمانة ...

مبتدأ التفتق ,

مبتدأ الفتح ,

مبتدأ الطقس

خبر الحب ,

شهية البوح

نعناع الفصول

ياسمين الشبابيك

بنفسج البراري

عطر الأسرَّة وصيحة المخاض

كل الحروف تشتهيها

كل المفردات تتقمص

جمانة

صفق الجميع وبدون استثناء وقام الرفيق سمعان واقترب وضم رأسي على صدره وهمس في أذني .. فاجأتني ولم تفاجئني .. أنا توسمت فيك أشياء كثيرة ولكن ليس للحد الذي رأيته ثم تراجع وجلس وقفت سوسن وخلفها الرفيقات وسلمن كلهن ..

قالت سوسن

: الحقيقة أنا أريد أن أعترف الآن أمامكم واشهدوا .. أن هناك خطأ حدث أثناء تسجيلي في النفوس , فأنا في الحقيقة اسمي الحقيقي (جمانة) وضحكت وضحك

الجميع وتابعت .. كل أنثى تقرأ أو تسمع هذه القصيدة ستتمنى أن تكون جمانة

(31)

وددتُ لو أذوب بكل نسائك الشبقات

و تحممينني بماء النساء

وتمسحي بيدك رمادي

فأعود مشتعلاً بذنوبك

وإلى جهنمك أعود

بطلاً , متوجاً ,

مقدوداً , منتوفَ , القميص

فالحب أشهاه من تحرق ناره الأنحاء

وددتُ لو تنشرين مناديل قصائدي عنك

على حبل نايك

أن ترتدي قمصان بوحي المحموم

بحبك المجنون

أود لو أشعل بثقاب أصابعي ,

نايات خصرك المغناج ,

وأهرهر عن موج شعرك

موسيقا الألوان

أود أن أحررك , وأتحرر ,

من رجس القوانين وربقة الحكمة

من عبودية الآلهة , ووثنية الانتظار

ونغرق في بحر خطايانا الرائعة

اليوم أنت أرضي , وحقلي , وقمحي

بحري وسمائي , شمسي وقمري

رحمي ومرحمتي , وأفق أحلامي

والدتي الحبيبة ...

: (اشتقنالك) يا ناجي .. الحمد لله على السلامة , انشاء الله سعدت في هذه الرحلة

: الله يسلمك يا عمي أبو جورج .. الحمد لله .. جداً

: الحمد لله على سلامتك يا ولدي والمسيح لم تغادر خاطري ..

: الله يمد بعمرك ويعطيك الصحة والعافية يا خالة أم جورج والله وأنتم لم تغادروا البال ..

: مرت سيدة أعتقد اسمها جمانة .. مرت مرتين .. وقلت لها أنك غداً ستعود .. قالت قل له أنا أنتظره

: ايه عرفتها .. أنا أعتني بحديقة المنزل كأنني تأخرت عليها هذه المرة

غادرت إلى البيت لم أتوقع ان أجد أمي سحاب

: أه يا ولدي كم أنا مشتاقة إليك

بقيت دقائق وهي تطوق رأسي وتقبلني أينما يقع ثغرها ,وهي تهمس بكلام لم أفهم منه شيئاً لكثرته , بعد أن هدأت قليلاً ضممتُ وجهها بين راحتي وتأملتها ورحت أقبلها على عينيها وعلى خديها وعلى جبينها وطوقتها

: وأنا اشتقت إليك جداً أيتها الحنونة .. اشتقت للأرض التي تمشين عليها .. لم أتوقعك أن تكوني هنا

: من يوم ذهبت لم أنم إلا هنا .. كل يوم يأتي الصغار ويسألوني عنك والست سارا وزوجها سألوني .. قلت لهم

هو في ورشة في الجبل بعيدة وينام هناك يعود في آخر الاسبوع

: كيف خطر ببالك أن تقولي ذلك ؟

: يا ولدي .. حتى لشيركا قلت ذلك ولصديقك جوزيف جاء وقلت له ذلك .. يا ولدي ماذا سأقول لهم ذهب إلى معسكر !

: وجوزيف ماذا قال لك .. عندما قلت له ذلك

: ابتسم واقترب مني وقبل رأسي وقال – إن شاء الله يرجع بالسلامة – هذا الرجل يحبك جداً وأعتقد أنه لم يصدقني

: ضحكت .. يا أمي جوزيف يعرف لذلك اقترب منك وقبلك على رأسك

: ليس عيباً (مو) ؟ .. وهو لن يزعل

: لا يا أمي ليس عيباً .. هو لو لم يكن يعرف لما ابتسم ولما اقترب وقبل رأسك .. أنت أجبت صح , وهو أعجب بحرص أم على ابنها وهو يحبني وأنا أثق بحبه لي .. أكنت متأكدة أنني قادم اليوم ؟

: كما أراك .. أنت أتيت في الليل وقلت لي أنا غداً عندك , لذلك اليوم لم أذهب إلى أي مكان , قل لي أكنت سعيداً ؟

: جداً يا أمي .. قضينا أوقاتاً رائعة

تحممت وغيرت ملابسي

: إلى أين يا ولدي ؟

: السيدة جمانة تركت لي خبراً عند أبو جورج , أرى ماذا تريد وأعود لن أتأخر

: طيب .. أرجو أن أكون قد صنعت لك ما تحب وتشتهي

: لا أعتقد في كل هذا الكون طعاماً أطيب مما تصنعين

: يا ولدي حتى أمك تجاملها

: أجامل كل الكون إلا أنت .. وارد أن ألبس قناعاً مع البشر , إلا معك وعندك لا أستطيع أن أكون إلا حقيقياً كما أنا , وأنت خير من يعرف .. أنت الوحيدة في هذا الكون يستطيع كشف كل ما أضمره وأخبئه .. أمي .. ولو لم تقولي .. أنا كذلك أعرف .. أقرؤك , أنا وأنت يا أمي كتابنا صفحة واحدة وعلى وجه واحد .. أحبك جداً جداً.. أنا من غير دفء حضنك أموت من البرد .. سلام لن أتأخر

لم أنتظر كثيراً عند الصنوبرة

: كنت مصرة أن أسبقكَ .. ولكنكَ سبقتني

: كم أنا مشتاق لهاتين العينين .. لهذا الوجه .. لهذا الحضن .. أنا مشتاق لكل مسام فيك

: هذا الاسبوع مضى كأنه دهر

: أين سنذهب ؟

: إلى البيت ؟

: وهو ؟

: هو في الجبل الآن .. أخبرته أنني أريد بعض الأغراض وأوصي بسقاية الحديقة

هذه المرة لم ننتظر لنزع ملابسنا .. لم ننتظر لنصل إلى غرفة النوم , النار التي كانت متقدة , كانت بحاجة لبحر ليطفئها , وهي في حضني مغمضة العينين بنصف ثياب وبنصف ارتداء ابتسمت وقالت
: رائع الجنون أحياناً

: عندما تلتهمك النار يبطل التفكير كيف ومتى وأين وفي أي بحر أو نهر تلقين نفسك .. كم أنت حبيبتي

: احكِ لي بدقة كل دقائق الأيام التي قضيتها

قصصت لها كل شيء وبحذافيره

: جميلة ؟

: من هي ؟

: سوسن

: لماذا تسألين ؟

: لأنني إن غادرت أتمنى أن يكون الحضن الذي سيضمك يليق بك ,

: هل ستغادرين ؟

: نحن نتحاور .. أحاول اقناعه ألا يأخذني .. أحاول اقناعه بأنني لا أستطيع العيش هناك , بل وصرت أضرب على وتر ابنتنا ..من أننا سنفقدها هناك وأرجوه أن يؤجل سفري معه ريثما تكبر البنت

: سأتيتم مرة أخرى ؟

: سأحاول .. لن تتيتم أكثر مني .. هذه الحياة بدونك لا معنى لها أبداً .. أنت قدمت لي ما لم يقدمه الكون مجتمعاً .. وأعتقد أنك أهديتني كل ما تتمناه الأنثى

سقينا الحديقة وغادرنا

: سأمر على أبو جورج وأضع خبراً عندما أستطيع
: حاولي ألا تتأخري

: بدونك أنا أختنق .. سلام يا عمري

: سلام

(32)

ثمة من قتل القمر

فوق تنهيدة نوافذي

وهذا الليل ..

كأنه أبدي

على الأقل .. ليشيعني ؛

حيث والدتي

ووالدي

دائماً في بهيم هذا الليل

يجرحني حزن عينيك

برأيك .. قبل أن نرحل

ولو لمرة ..

يقرع بابنا الصبح ؟

والدتي الحبيبة ...

مرّ شهر كامل , وجمانة لا حس ولا خبر , أحسّ قلبي بحجم حبة خردل , وأحسّ بضيق في التنفس , أمي سحاب تعتقد أنني مريض , وتلحّ عليّ أن أذهب إلى طبيب

: يا ولدي .. أنا معي نقود كثيرة ولا لزوم لها إلا لك ومن أجلك , يا ولدي أنت تقتلني بتجاهلك لصحتك

آخر مرة مرّ جوزيف شكتني أمامه
: يا ولدي يا جوزيف .. ناجي تعبان .. هو مريض أريدك أن تذهب معنا إلى الطبيب

: ما بك يا صديقي ؟
: لا شيء والله , لا يوجد بي مرض هي أوهام الأم .. أنا فقط كالعادة .. ضيقُ خلق لأنني بلا عمل منذ عودتي من المعسكر وأنا لا أفعل شيئاً
: أقطع ذراعي إن كان هذا هو السبب , أنت عندك أشياء الله وحده يعرفها - والتفت نحو أمي سحاب - أيتها الأم الطيبة .. لا تخافي ولدك عاشق وأقطع ذراعي إن لم يكن كذلك

ابتسمت وقالت

: ياريت يا بني هذا هيّن .. سألته قال لا

غياب جمانة يقتلني يا أمي .. وأمي سحاب تكهنت وسألتني قبل أن يسألني جوزيف

: يا ولدي هل هو العشق .. قل لي يا ولدي وأنا صديقتك وأمك وأنا سأساعدك .. روحي فداك

: يا أمي أمثالي لا يحق لهم الحب والعشق .. يا أمي نحن حطب هذا الكون خُلقنا لنحترق ؛ ليأكلْ ويتدفأ بنا وعلينا .

اليوم وأنا عائد من عند أبو كامل وإذ بصوت يناديني

: ناجي .. ناجي .. ناجي

ألتفتّ .. أعرفه .. تذكرته بسرعة .. جميل الداشر من وادي البلوط وقفت وانتظرت حتى وصل

: أهلاً .. أهلاً .. تصافحنا

: والله عرفتك من بعيد هل تذكرتني ؟

: أهلاً أبا هيثم كيف لا ؟! نعم تذكرتك

: تفضل .. تفضل .. نشرب قهوة

: شكراً يا أبا هيثم

: والله سنذهب سوية ..

: غير مرة .. غير مرة

: لا .. هذه المرة أدلك على البيت ونشرب قهوة وتذهب .. أين تسكن ؟

: ابحث عن بيت هل حواليكم ؟ كل يوم في مكان

: سأبحث لك .. تفضل

ذهبنا صعودا إلى حارة الغوارني , على طرف غابة الصنوبر بيت قديم من طابقين في القبو كان يسكن أبو هيثم , أمام البيت شجرة توت وتحتها مقعد من خشب (دشك) فوقه فراش ومسندان للظهر .. خرجت أم هيثم سلمت عليّ وقبلتني على خدي ورحبت بي ترحيباً حاراً .. جلست على المقعد ودخلا هما إلى البيت , صارا يتحدثان .. صوتهما كان مسموعاً

: أتيتِ بكير اليوم .. خيراً ؟

: صاحب البيت أعطاني اجرتي وقال لي لم نعد بحاجتك مع السلامة

: لماذا ؟

: أتى بواحدة جديدة

: ألم أقل لك طريها معه

: يا ابن الداشر .. طريتها من زمان .. والذي تريده ويريده صار من زمان ولكن التي أتى بها اليوم صغيرة وحلوة

: (طيب .. طيب ولا يهمك .. بكرا منشوف محل تاني)

صعقت بالحوار , ام هيثم امرأة في الأربعين من عمرها ليست جميلة .. وليست قبيحة خرجا ومعهما القهوة

: والله انبسطت برؤيتك جداً .. ماذا تشتغل هذه الأيام ؟

: كنت اشتغل في فرن .. ثم بدير والآن موعود بعمل في فرن

: الله يوفقك .. الآن البيت صرت تعرفه .. لا تتأخر علينا .. ايه

: إن شاء الله

شربت القهوة وغادرت عندما وصلت عند أبو جورج

: أهلاً يا بني منذ ساعتين أتت صبية وسألتني عنك

سألته وقلبي يكاد يخرج من صدري

: الست جمانة ؟

: قلت لك صبية .. قالت لي تمرّ غداً بعد الظهر

: ألم تقل ما اسمها ؟

: بلى اسمها سوسن ..

: آآآآآه .. انتظرها غداً هذه إحدى رفيقاتي في الدورة

: اعتقدت ذلك .. قلت لها ابقي لن يتأخر .. قالت هي مشغولة الآن وستمر غداً

دخلت رتبت الدكان ونظفت الرفوف وكتبت النواقص على ورقة

: يا عمي .. هذه نواقص الدكان .. هل تريد مني شيئاً ؟

: إلى أين ؟

: بصدق .. لا أدري

: بالسلامة يا ولدي

قررت أن أذهب باتجاه بيت جمانة , أستبين الأمر , إن كانت هناك أم لا , مشيت من مفرق البيت حتى البوابة بمنتهى الهدوء وأنا أراقب الشبابيك الشرفات لم أر أي حركة ولا ما يدل على وجود أحد ما هناك , أمام البوابة وقفت .. باب الفيلا مقفل .. النوافذ مقفلة أحواض الورود والزهور منها ما هو ذابل ومنها ما هو في طريقه للذبول و اليباس .. كل شيء يدل على أن البيت لم يدخله أحد منذ

آخر مرة أتينا , فكرت قليلاً ثم قررت أن أدخل من جانب البوابة واسقي أحواض الزريعة , فكرت قليلاً ثم تراجعت – أي إنسان يراني ماذا سأقول له .. إن سرق البيت سأكون أنا المتهم الوحيد – فعدت أدراجي والألم يعتصر قلبي وصرت أقاوم دموعي ولكن دون جدوى عند مدخل الكازينو غسلت وجهي وتابعت , عند الباب استقبلتني الأم الحنونة سحاب بابتسامتها الساحرة

: خمّن من عندنا ؟

: أكيد الرائعة شيركا ..

وككل مرة تطوقني واطوقها

: ما أطيب رائحتك يا شيركا .. ما أطيبك كلك يا شيركا

وكطفلة صغيرة غضت بصرها عني ثم استدركت

: كيف عرفت أنني هنا فوراً ؟

: يا شيركا من يحبني أنا وأمي ويهتم بنا في هذا الكون يعدّون على أصابع اليد الواحدة

: ألم يسبب لك مجيئي إحراجاً ؟

: لماذا يا شيركا ؟! أنا أجزم لكِ , أنكِ من القلائل في هذا الكون حبهم صادق

حدقت بي ملياً ورأيت دمعة في عينيها تريد المغادرة وهي تمنعها وابتسمت

: ام ناجي .. بالرغم من كل عذاباتها وما رأته .. محظوظة .. محظوظة جداً

أخرجتني شيركا وأمي سحاب من غمي قليلاً وعند الغروب غادرنا نوصل شيركا وننام هذه الليلة هناك .. نغير الجو . انتظرت سوسن عند أبو جورج , عند الرابعة أطلت .. صافحتها ولكن سوسن لم تقبل وأمام أبو جورج وأم جورج طوقتني وعانقتني وهي تقول

: وك ناجي بعد شهر ونصف هكذا تريد أن تسلم – وتابعت – كيفك عم أبو جورج .. كيفك خالة أم جورج

ردا معا

:أهلاً وسهلاً .. أهلاً وسهلاً - وتابع أبو جورج - والله معك حق .. الرفيق متل الأخ وممكن يكون أحسن

اقتربت منه وقبلته على رأسه

: صدقت ياعم .. ممكن يكون أحسن

ودعنا أبا جورج وأم جورج بالرغم من محاولتهما أن نبقى

: يا ابنتي ابقيا هنا .. ناجي ابني .. هو مفوض في كل شيء

: تسلم يا عم أبو جورج .. ناجي كل من يعرفه يتبناه .. ها أنا مثلا وهي تقهقه .. أريد أن أراه قليلاً وأغادر

غادرنا إلى البيت

: هذا قصري يا سوسن تفضلي

عند الباب استقبلتنا أمي سحاب , عانقتها سوسن بحرارة

: والدتك أليس كذلك ؟ الخالق الناطق

عندما لفظت الكلمة ضمتها الأم سحاب مرة أخرى وزرعت وجهها بالقبل , هذه الكلمة كانت تجعل من الأم سحاب طائراً يحلق .. غيمة حقيقية تهطل فوق رأس من يقول ذلك

: نعم أمي سحاب التي أخبرتكِ عنها – والتفتّ نحو أمي – رئيستي ومدربتي وسيدتي سوسن يا أمي

: أهلاً وسهلاً يا بنيتي .. أهلاً وسهلاً

: صبية يا أم ناجي .. ناجي يشبهك ولكن من يراكما يعتقد أنك أخته .. والدتي أكبر منك بكثير .. والدتي على أبواب الكهولة

: يا حبيبتي .. أنت مذوقة ولطيفة .. الله يخلي لك أمك ويديم عليها الصحة والعافية

جلسنا وتسامرنا وأكلنا وكانت علائم السرور بادية على وجه أمي سحاب حتى تطور النقاش واقتراح سوسن أن أذهب معها إلى الجنوب

: ما بك ؟ لست سعيداً ؟

: لا..لا .. لا شيء .. فقط بالي مشغول لأجد عملاً فمنذ قدومي من المعسكر وأنا بلا عمل

: هذا الحزن الذي في عينيك .. لا أعتقد سببه عدم وجود عمل .. على كل حال ما رأيك أن تذهب معي إلى الجنوب تتعرف على الشباب وإن أعجبك الوضع تبقى معنا ؟

: يا ابنتي .. كأنني سأزعل منك .. وجداً ستأخذينه إلى أين ؟! انتهى الشباب من كل الوطن العربي لم يبق إلا ابني وحيدي ؟

: يا أم ناجي .. وهل سنأخذه لنقتله , يا أم ناجي من وهب الروح هو وحده يأخذها , ولا تستطيع أمي حمايتي ولا تستطيعين أنت كذلك , أنا رأيته قلقاً وحزيناً - تغيير جو إذا أراد - زيارة

: صحيح يا ابنتي من ركبها وحده من يزيلها .. ولكن .. يا ابنتي .. اعقلها وتوكل .. وكذلك .. لا ترموا بأنفسكم .. وأنا أعرف بخبرة الحياة , أن الوحيد في كل الدنيا لا يجندونه , لا تزعلي يا ابنتي لو تعرفين قصتي مع ناجي لن تلوميني

: أيتها الأم الحنون كل الأمهات مثلك وكل أم لا تشبه أم ناجي هي ليست أم .. هي شيء آخر .. وأنا أعرف تعلق ناجي بك , فأنت محور أي حديث كان يدور بيننا .. أنت الكون بالنسبة له , الوفي لأمه وأهله هو أنبل وأصدق الناس , أرجوك لا تزعلي مني , ناجي صديق صدوق , أنا وجدت فيه كل صفات الرجل الصادق الوفي الأمين الواعي الذكي لذلك تمسكت بصداقته وبالتواصل معه

: يا أمي .. سوسن لم ترد ازعاجك أبداً .. هي فقط عرضت أن أغير جو وأنا بحاجة لذلك , أنت ترين

امتلأت عيناها دموعاً

: كما تريد يا ولدي .. أنا أثق إن ذهبت – وسكتت وأشاحت بوجهها –

: يا أمي هو مجرد اقتراح .. ها أنا ما زلت أمامك ولن أذهب إلى أي مكان أنت لا ترغبين به – وطوقت رأسها بمنتهى القهر والوجع –

ودعت سوسن عند دكان أبو جورج حيث أوقفت سيارتها القديمة سألتها

: هل هي سيارتك

قهقهت

: لا .. هي لأحد الرفاق استعرتها لألقاك , ها قد أغضبنا والدتك

: تقصدين أمي سحاب

: متى ستقول لي ما الفرق بين الأم والوالدة ؟

يوم ما .. اسمعيني جيداً , لا أريد أن أغضب أمي , نلتقي مثل هذا اليوم عند الرفيق سمعان ناصيف , أريد ان آخذ رأيه سأخبرها أنني وجدت عملاً بعيداً وسأنام هناك .. يعني نبدأ بالكذب .. تمام ؟

: تمام .. تمام

غمرتني بشدة وقبلتني

: وهذي لأم ناجي وهذي كذلك .. إياك ألا توصلها

: طيب .. طيب .. وهذي مني للجنوب .. وهذي للشمال .. وهذي للأرض .. وهذي للسماء

قهقهت

: تذكر .. ألم يعد لديك من ترسل له ؟

يا أم ناجي ؟ من أين أتيت ؟ كيف جئت بنهار وبليلة صرت أمي ؟ أن يكون لك أمٌ تغمرك بحنانها ودفء حضنها وعبق رائحتها ؛ لهذا ضريبة يجب أن تدفعها , يا أم ناجي أي حركة لي , صار لك فيها حساب , لكل شيء في هذا الكون ضريبة يا أم ناجي , لا شيء بالمجان

(33)

في الليل ؛

في الطريق إلى النهار

رشرشنا ماء العمر فوق زهر الصبّار

أين.. جنّةٌ تليق بهذه النار

أين .. جهنمٌ تليق بهذا الدمار

هذي علة الهوى

والهوى سر

الله علة الهوى

ولسر ضياؤه

الأسرار

يا الذي تطفي الهوى بالهوى

كمن يطفئ النار بالنار

يا أيها المقتول بهواك

إنه الوطن

يا غريب الدار

يا غريب الهوى

إنه الهوى ...

والهوى ...

أقدار

كل ما في الكون ...

له حجم

أو مقياس

وزن ومقدار

" إلا الهوى

ما يومه يوم..

ولا مقداره مقدار "

والدتي الحبيبة ...

الحقيقة يا أمي .. لم يعد همي الأول البحث عن عمل , غياب جمانة قتلني يا أمي .. أحاول النوم .. أستجديه .. أريد أن أغفو ولكن بدون جدوى .. وإن سهوت تأتي جمانة .. أمس سهوت , أتت دقت الباب .. لم أستطع الوقوف لأفتح لها .. قدماي لم تستطع حملي .. لم أستطع تحريكهما .. ناديتها لتخلع الباب وتدخل صوتي اختفى .. دقتْ .. دقتْ .. دقتْ وغادرت وأنا أصرخْ .. أصرخْ .. أصرخْ .. وصوتي لا يخرج من حلقي استيقظت على صراخ أمي سحاب وهي تحتضن رأسي وتبكي
: أفق يا ولدي .. أفق .. ما بك يا ولدي ؟ ما بك يا ولدي ؟ أفق يا عمري

دموعها بللت وجهي , حرقتني ,ولا أدري بماذا أردّ على أسئلتها

: يا ولدي .. قل لي ما بك ؟ هل تحب سوسن ؟ يا ولدي إن كان ذهابك إليها يريحك أنا موافقة .. خذني فقط معك .. إلى الجنوب .. لا أسكن معك .. اتركني فقط أكون قريبة .. إن كان يريحك .. أذهب وحدك وتأتي إليّ وقت تشاء المهم أن تبقى تطمئني عليك .. (دخيلك) يا ولدي قل لي ما بك ؟

: يا أمي لا تكبّري الموضوع .. أنا مرهق .. لا شيء مما تتصورينه .. أنا فقط مرهق , وبسبب الارهاق تأتيني هذه الكوابيس

: يا ولدي أمس وما قبله .. إلى متى .. أنا أمك سحاب .. سحاب التي تقرأ للناس وجوههم تعجز عن قراءة وجه ولدها ؟! يا ولدي أنت بحر من الأسرار .. هي من تأتي إليك بشكل كوابيس .. احكِ لي .. تكلم .. يا ولدي مجرد أن تتكلم تذهب .. أنزل عن كاهلك هذه الأسرار , دعني أحملها معك , والحمل عندما يوزع يخف حمله

: يا أمي .. هل تذكرين مررت بمثل هذا وراح .. عندما يأتي حينه سيزول .. لا تخافي

: ما كان يقلقك في تلك الأيام مختلف عن الذي يقلقك الآن

: كله إلى زوال .. كله إلى زوال .. لا تقلقي

كل يوم أذهب إلى بيت جمانة .. أصل عند البوابة وأعود .. ولا حسٌّ ولا خبر

: يا ولدي .. يا ناجي .. عاهدني ألا تزعل مني مهما صار وعن أي سؤال سأسألك

: نهضت ومسكت يديها قبلتهما .. يا أم الكون يا سحاب .. أنا أغضب الكون ولا أغضبك .. أزعل من الكون كله ولا أزعل منك .. قولي ما تشائين

: يا ولدي .. أنت كل يوم تذهب إلى أمام تلك الفيلا وتعود .. أنا أعتذر لأنني أراقبك .. سامحني يا ولدي .. سامحني أبوس يديك

صعقتني الأم سحاب .. ماذا سأجيبها الآن , لم يخطر في بالي لحظة إن هذه الأم التي لم تحبل بي ولم ترضعني , أنها أم حقيقية , إن نام ولدها تنام , وإن قلق تقلق , وإن تألم تتألم ؛ لدرجة أن تترك الكون وتتبعه ؛ لتجد ما يقلقه ويتعبه

: إلهذا أنت تترجيني يا أمي ؟ أنا أرجوك أن تثقي , أنه يحق لك بالنسبة لي كل شيء .. أنت لك الحق أن تمنعيني عن أي شيء , ولو كنت أحبه وأريده .. يا أمي .. أنت أمي التي لم تحبل بي ولم ترضعني صحيح .. ولكن ما أحسسته تجاهك من أول مرة رأتك عيناي هو شعوري تجاه أم لم أرها , يا أمي هذا البيت لسيدة اسمها جمانة , تبنتني مثلك , كي تساعدني وبدون أن أحس أنها تتصدق عليّ كلفتني كل أسبوع أسقي أحواض الورد والشجر , كانت تعطيني ما يعادل عمل شهر كامل , وعندما حاولت رفض ذلك أقسمت أنها تعتبرني صديق وكدليل على صدقها قالت لي

- خذ هذا المغلف ضعه أمانة عندك إياك أن يراه أحد في هذا الكون هو بالنسبة لي حياتي وأنا أمنتك على حياتي - وثقت بي .. يا أمي وها أنا أضعه بين يديك إن أتت اعطيها المغلف - وفتحت صندوقة التنك ودليتها عليه - وهذه مفاتيح الخزنة اتركي نسخة من مفاتيحها معك , إن أتت في غيابي اعطها المغلف وإن لم تأت , هي أمانة كذلك عندك .. هل عرفت الآن ؟

لا أدري إن كنت استطعت اقناع الأم سحاب .

في الصباح أخبرتها أنني ذاهب إلى نابية ,قلت لها الخواجا سمعان ترك لي خبراً أن أذهب إليه كأنه وجد لي عملاً , في الثانية عشرة كنت عند الرفيق سمعان
: أهلاً وسهلاً بالرفيق العزيز الغالي

: أنا لم أنتسب بشكل فعلي ولكنني أعتبرك مرجعي وسندي ومن يمسك بيدي إلى بر الأمان ؛ لذلك أتيتك اليوم لأستشيرك

: وانا معجب بك جداً وأحبك وقضية انتسابك أنت تقررها لا أنا , وعندما تطلب سأكون سعيداً , الحزب يفتخر بأمثالك .. تفضل ما القضية ؟

: مرت الرفيقة سوسن واقترحت أن أرافقها إلى الجنوب ما رأيك الذي سألتزم به ؟

: يا ناجي أخذ رأيي والتزامك به .. أمانة غالية تضعها في عنقي .. يا ناجي سوسن ليست سورية قومية .. هي من الفدائيين والمعسكر أحد ثمار التعاون بيننا .. أن تذهب إلى الجنوب , هذه قضية تحددها أنت .. نحن السوريين القوميين نعتبر أن دماءنا وأرواحنا التي في أجسادنا هي أمانة للأمة تأخذها متى طلبتها , وفلسطين بالنسبة لنا كالشام كالعراق كلبنان كأي بيت في سوريا , والقتال لتحريرها من اليهود هو واجب على كل سوري انتسب أم لم ينتسب .. أنا أشجعك كما أشجع كل سوري

: غداً سنكون عندك أنا أخبرتها أن نلتقي عندك لأنني أريد أخذ موافقتك

: أنت دائما قريب , والآن أنت أقرب الناس .. شكرا لثقتك بي

عندما وصلت كانت الأم سحاب تنتظرني

: الحمد لله على السلامة يا ولدي .. خبّر

: الله يسلمك يا أمي .. وجد لي ناطوراً لبيت في الجبل والأجر معقول ولكنني سأبقى بعيد عنك طوال الاسبوع وربما أكثر وربما أقل .. يعني كلما سنحت الفرصة سآتي ريثما يجد جوزيف لي عملاً عنده ما رأيك ؟

صمتت .. ثم قالت
: الذي تراه يا ولدي الله يحرسك ويحميك كيفما اتجهت وأينما ذهبت

: سأذهب وأخبر يوسف أقصد جوزيف

أخبرت العم مخايل أبو جورج وأم جورج أنني ذاهب إلى الجبل ناطور بناية كما أخبرت أمي سحاب , وأخبرت جوزيف الحقيقة .. قلت له أنا ذاهب إلى الجنوب مع الفدائيين , لم يوافق وحاول أن يثنيني بكل طاقته , في الصباح حملت الحقيبة التي أهداني إياها الرفيق سمعان بما فيها من لباس عسكري ومدني

: أمي .. دعواتك .. ولا تنسي المغلف إن مرت السيدة جمانة

وانحنيت على يديها ثم عانقتها .. حاولت ألا أشعرها بشيء ولكن دموعي خانتني

: لماذا تبكي ؟ والله العظيم لم تقل لي الحقيقة .. أنت ذاهب إلى الجنوب

لم أعد أستطيع الافلات من يديها ومن دموعها .. بكينا .. بكينا

: يا أمي أنا لست ذاهب إلى الجنوب , أنا فقط .. لم يعد
لدي القدرة على فراقك اسبوع .. دعواتك يا حنونة

(34)

حين تُسرج الروح صهوة الكلمات

يكون الصهيل سيمفونيةً للعشق

ويولد زمن جديد .

رتل حتى ينتشي الغيم

ويعبق الكون برائحة اللوز

ويكتشف المطر

طقوساً نهدّيّة للغيم

وأسرَّةً يهطل فوق حلماتها

يا امرأةَ فوات الأوان

لا تعاتبي قِصر العين

لا تعاتبي مخارج البوح

لا تتبعي اشتياقك

لن تجدي مكاناً لجرح جديد .

يا أنت ....

حكاياتنا

فيها بعض اللون

بعض الغيم

بعض المطر

تعالي نرسمها

نكتب فيها ما لم نقرأ

ونلون فيها ما كنا نحلم

يا أنت ....

تعالي نوقّع أدناه

نعترف باقتراف الحلم

بأحذية للشتاء

وبأسرّة فيها دفء

وبألوان الطعام

وبالشهوة المحترقة

وبعفة النفس

تقتل فينا – لغة الحلم والاشتهاء .

يا أنت ....

لا تُقَلّبي دفاتر الأيام

كل الأحلام مؤجلة

تئنُّ أنين الديب

على بوابات الصبح الآفل

يا أيتها ...

افتحي شبابيك الأيام

الجروح أصدق المواسين في المآتم

ودموع الثكالى

أصفى من حبات المطر .

يا أنت ....

غادر المحبون

متى تلفظنا محطات الانتظار

وتمتلئ إلينا الدروب بصبايا الآس

والدتي الحبيبة ...

: سنمرّ على والدي ووالدتي نودعهما وآخذ حاجياتي ونغادر ما رأيك ؟

: اذهبي حيث تشائين أنا سلمتك أمري

: كل أمرك ؟
: كل أمري

: - وهي تقهقه - هل هو اعلان استسلام ؟

: لا .. هو اعلان ثقة

: لماذا .. أليست مغامرة ؟

: أمي سحاب .. علمتني كيفية قراءة الوجوه , في كل الأحوال الحياة .. كلها .. مغامرة , في البدء آباؤنا وأمهاتنا غامروا ليعيشوا .. فأتينا , وها نحن نستلم الراية

: هو تشاؤم ؟

: لا .. على الاطلاق .. هو توصيف بسيط ومختصر جداً

: كثيراً ما أتساءل عن الحد الفاصل بين التفاؤل والتشاؤم
: أنا أعتقد أن الحد الفاصل بينهما الصدق

: وما علاقة الصدق بالتفاؤل والتشاؤم ؟!

: التفاؤل هو أن تصفي الواقع الرديء بأنه جيد على أساس أن غدا سيكون أفضل , فالمتفائل يرى أشياء فعليا غير موجودة , والتشاؤم هو أن تطغى السلبيات على الإيجابيات وهنا المتشائم يرى أشياء غير صحيحة , والحد الفاصل بينهما أن نكون صادقين ..أن نسمي الأشياء بأسمائها

: وإن كانت السلبيات أكثر أو العكس ؟

: نوصّفها بدقة وهذا هو الصدق .. كي لا نبيع أنفسنا أكاذيباً , ثم نبيع غيرنا ما اشتريناه

: - قهقهت – أنا وأنت ماذا سنبيع ؟

: أنفسنا

: - جحظت عينيها - لمن ؟

: لمن نحب

أخذت اليمين وأوقفت السيارة , ونظرت إلي وعينيها ممتلئتان دموعاً

: أصبت أيها الرائع , وبهذا فقط , يكون للحياة معنى وثمن

أم سوسن امرأة كبيرة في السن وأبوها رجل كهل , بعد أن رحبا بي بحرارة سألتني أمها

: من اي منطقة في فلسطين ؟

: أنا من اللاذقيّة يا أمي

: متوجهة نحو زوجها .. أبو محمود .. اللاذقية قريبة مننا

: يا أم محمود اللاذقية في سوريا وليست في فلسطين ولكنها ليست بعيدة

: آآآ

لاحظ انشغال سوسن عنا فسألني

: كأنكما ذاهبان إلى الجنوب

: نعم .. دعواتكما

: الله يكون معكم ويحميكم

: الله يكون معكم .. أنا وأبو محمود نتمنى أن تبقى سوسن معنا , فأخوتها الثلاثة استشهدوا ولم يبق عندنا أحد

: بقي لنا الله يا أم محمود دعيها تذهب حيث تشاء - ردّ أبو محمود على زوجته -

صمتّ ولم أجد ما أقوله أمام هذه الأم وهذا الأب , كان وداع سوسن لأمها وأبيها مؤلماً جداً بسبب كلمات أمها التي كانت كالسكاكين تقطع الإنسان وهو حي , قال أبو محمود ودمعته تكاد تغادر عينيه والغصة بالكاد تسمح بخروج كلامه المتهدج

: كلما أتت وغادرت نفس الموال .. يا أم محمود ادعي لهم .. ادعي لهم , وكفى

الطريق من بيروت إلى الجنوب كأنني أعرفها .. كأنني مررت فوق هذه الطريق .. التلال .. الجبال .. الأحراج .. كل شيء في هذه المنطقة كأنها قطعت من جبال وسفوح ضيعتنا .. القرى التي تنتشر كعقود اللؤلؤ في جيد الجبال .. القرويات اللواتي كنا نمرّ بقربهن , كأنهن أتين للتو من هناك بمناديلهن وثيابهن الطويلة الفضفاضة الملونة , وصلنا إلى جبل شاهق من أعلى قمته إلى الوادي تكسوه أشجار السنديان يتخللها بعض أشجار البطم والبلوط في أسفل الجبل حيث يخف الانحدار ويبدأ بفرش راحتيه , هنا صخرة ضخمة في أسفلها طاقة يخرج منها نبع ماء , هنا وتحت أشجار السنديان عشرات السيارات , أوقفت سوسن السيارة وترجلّنا

: صباحاً سترى فلسطين أمامك .. الآن الرؤيا صعبة ,
هنا نقيم .. هنا رفاق السلاح , من هنا إلى آخر هذه الجبال
وهذه الوديان ينتشر الفدائيون بمختلف فصائلهم

حمل كل منا حقيبته ومشينا صعوداً بين أشجار السنديان
بطريق ضيقة للمشاة بعد مسافة , محرس مبني من الحجر
والعيدان ومغطى بأغصان الأشجار على جذع شجرة
سنديان ضخمة تماماً يقف أمامه شاب أسمر باللباس
العسكري المموه وبسلاحه الكامل سلّم على سوسن
بحرارة وسلّم علي ورحب بي ترحيباً ودوداً ودعانا
للمتابعة – تفضلوا .. تفضلوا – بعد مئة متر شجرة أخرى
ضخمة تحتها مجموعة من الشباب والصبايا منهم من هو
بلباس الرياضة ومنهم باللباس العسكري , وقفوا جميعا
وبدؤوا بالترحيب بنا , سلّمنا على الجميع وجلسنا على
الصخور التي هُيّئت لتكون مقاعد

: أعرّفكم .. ناجي أحد الرفاق الذين كانوا معنا بآخر
دورة أحبَّ أن يأتي ويتعرف عليكم – ثم التفتت نحوي
وهي تعرف – خالد ,علي , هزاع , إيمان , سُميّة , ...

كانوا خمس صبايا وسوسن وعشر شباب وأربعة في
المحارس

: أهلا وسهلا بك أخاً عزيزاً – قال أحد الشباب .. كأنه قائد المجموعة -

: من لحظة كنا نتذكرك

: خير إن شاء الله .. سلبا أم إيجاباً ؟

: لا سلباً ولا إيجاباً , نريد رأيكِ

: بماذا ؟

: النقاش كان يدور الآن كيف يستطيع الإنسان الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع المتناقضات ؟
: ضعوني في الجو , لم أفهم شيئا

تكلم الشاب الذي رحب بنا

: يا سوسن الموضوع .. الحكومات .. القادة العرب .. أنور السادات وحسين بن طلال وحافظ الأسد ومعمر القذافي وجعفر النميري وفيصل أل سعود وأحمد حسن البكر وهواري بو مدين والحبيب بور رقيبة وسليمان فرنجية , هل نسيت أحد

: نسيت قابوس – وقهقه الجميع –

: يعني هذه الطبخة أي طباخ في الكون يستطيع مزجها

: الأخ ياسر عرفات .. الأخ ياسر عرفات يستطيع طبخهم

قهقه الجميع وبصوت عالٍ

: لماذا .. هل تسخرين ؟

: لا .. لا أسخر .. أنت عددت أغلب ملوك ورؤساء الدول العربية – أقصد ما يسمى عربية , ونسيت الأخ أبو عمار وهو الأهم فهو رئيس منظمة التحرير , أي رئيس فلسطين .. ففلسطين .. عليها وبها .. يبيع ويشتري الجميع

: مبتسما .. تفضلت يا إيمان .. (هي اجت تتكحلها عمتها)

ودار الحديث واحتدم أحياناً , وكلٌ يغني على ليلاه , وبانت الخلفيات الثقافية لكل شاب وكل صبية , كانت أغلب البنات تميل لليسار وبعض الشباب كانوا في أقصى اليسار والبعض الآخر في أقصى اليمين , والأغلبية كان في الوسط , وخاصة قائد المجموعة .. كان دائما مرحاً يحاول أن يجمع بين الجميع ويقرب وجهات النظر باللطف والاعتدال , كنت صامتاً تماماً , مقرراً ألا أشارك إن استطعت , فقد أيقنتُ أن مشاركتي في النقاش لن يكون مريحاً لا لي ولا لسوسن .. التي أحسستُ أنها سعيدة لصمتي , بقيت هكذا حتى بادرت إيمان ووجهت السؤال لي

: الأخ ناجي لم تشاركنا برأيك ؟

تجاهلت السؤال أو حاولت التجاهل , حتى عاد خالد قائد المجموعة ليؤكد السؤال

: صحيح أخي ناجي .. لم تشاركنا برأيك .. ماذا تقول ؟

نظرت إلي سوسن وكأنها تمليني الجواب

: الخوض في هذا النقاش صعب وأراكم جميعاً تقولون الحقيقة ولكن كلٌ بصيغته

ابتسمت سوسن .. ابتسامة من وجد شيئاً كان يبحث عنه , ولكن ابتسامتها محاها خالد مرّة أخرى عندما تابع

: هذا جواب بمنتهى الدبلوماسية – وهو يبتسم –

: لا .. ليس جواباً دبلوماسياً .. الحقيقة جمع هؤلاء – أقصد من يستطيع الاحتفاظ بهم جميعاً .. إما بمنتهى العبقرية .. وإما بمنتهى النفاق , و السياسة يلزمها العبقرية والنفاق والمشكلة التي يواجهها العبقري المنافق , أن بينه وبين النظافة ما بين السماوات والأرض ومن هذا الباب يعتنق مبدأ (المبررات تبيح المحظورات) وهنا يفترق أصحاب المبادئ ومن بدء التكوين هذا الصراع قائم , ودائم برأيي ينتصر المنافقون العباقرة ويخسر المبدئيون العباقرة

ساد صمت .. قطعه سؤال خالد مرّة أخرى لي

: أخي ناجي من أين حضرتك ؟

نظرت في وجه سوسن لأقرأ جواباً لم أستطع , سؤاله لي سحب بريق النصر الذي كان يتوهج في وجهها , وأيقنت أنه لا جواب في ذهنها

: أنا من اللاذقية

: أهلاً وسهلاً .. أنت سوري .. لهجتك جعلتني أعتقد أنك لبناني

: أهلاً بك .. كلنا واحد وهذي البلاد واحدة قبل أن يقسمها المستعمر

: سأل هزاع .. أنت قومي سوي ؟

: تسألني أن كنت أنتمي للحزب السوري القومي الاجتماعي ؟

: نعم

: لا .. أنا صديق للحزب , لم أصبح بعد مؤهلاً لأكون في صفوف الحزب .. لماذا تسألني ألأنني قلت هذه البلاد واحدة قبل أن يقسمها المستعمر ؟

: هذه اللغة دائما يستخدمها القوميون

: تقصد القوميون العرب أم البعثيون أم السوريون القوميون ؟

: أقصد القوميون السوريون

: السوريون القوميون لا يقدمون على سوريا أي اسم هي أولاً , هكذا أعتقد

: وما الفرق ؟

: الحقيقة أنا لا أعرف ردهم ولكنني سأجيبك بما أعتقد أنا .. أعتقد إن قدمت القومي على السوري كأن تضع العربة أمام الحصان لا خلفه أو كأن ينسب إليك أبوك بدل أن تنسب أنت له .. ربما إجابتي خاطئة , ولكنني هكذا أفسر

: المهم أن يفهم القصد

: كأنك لا تحب هذه اللغة أقصد لغة السوريين القوميين الاجتماعيين ؟

: هذه اللغة يتخذها بعضهم زريعة للتدخل في القرار الفلسطيني

: لنمنع التدخل في القرار الفلسطيني ندافع عن خرائط سايكس بيكو ؟

: لا .. أبداً .. ولكن الحقيقة .. هناك السوري واللبناني والفلسطيني والأردني هذه حقيقة لا نستطيع تجاهلها

: وهناك العراقي والكويتي والشامي والحمصي والحلبي والمقدسي والبغدادي .. وهل فلسطين تخص الفلسطينيين فقط ؟

: لا .. تخص الفلسطيني أولاً ثم العرب

: كيف تعتقد أنها تخص كل العرب والقرار الذي يخصها يخصك وحدك ؟

: لأن الحكام العرب كلهم خونة

: كلهم ؟

: كلهم

: بما فيهم قادة الشعب الفلسطيني ؟

: أنا أقول الحكام العرب .. وهناك بعض القادة الفلسطينيين خونة

: آآآآآ .. تقول بعض , أي هناك قادة ليسوا خونة

: وكل الحكام العرب خونة ؟

: تماماً

: سأروي لك حادثة قصّها لي أحد المقاتلين الفلسطينيين .. قال لي في أيلول الأسود وبعد دخول الجيش السوري إلى الأردن وكادت تنشب أزمة عالمية , وتقرر خروجنا بعد تلك المجازر , ونحن خارجون كانت تُطلق علينا النار من أحد البنايات , دخلت أنا وأربعة من رفاقي المبنى لإسكات النيران , في الطابق الثاني رفسنا أحد الأبواب , فتح لنا رجل في السبعين من عمره دخلنا للبحث عن مطلقي النار سأل قائد المجموعة الرجل .. يا رجل هذا الخنزير ذبحنا والآن نحن خارجون وتطلقون علينا النار .. تخيل ماذا كان رد الرجل (أخوي .. افعل ما شئت في البيت .. فتش كيفما تشاء , احرق البيت إن كان ذلك يشفي غليلك , اطلاق النار ليس من بيتي .. ولكن أرجوك لا تشتم الملك) هذا كان رد الرجل أنت ذكرتني بهذه الرواية وأنا أثق أنه صادق بما روى , أنا أعدت روايتها عليك لأقول لك أننا نقاتل وبشراسة عن الحصص التي وزعها المستعمر علينا , وكلنا يرى بمن يقوده أنه القائد الملهم الإلهي الذي لا يكذب ولا يخون ولا يبيع ولا يتبول ولا يتغوط .. كل منا يرى قائده هكذا والباقي كلهم زناة , زنادقة , أفاقون , سراقون , وخونة هذه المشكلة لا حل لها .. ما رأيك ؟

: أخي الأعمال هي من تقول هذا كذا وهذا كذا

: يا صديقي عندما وقف جمال عبدالناصر وخطب أمام الشعب المصري العظيم وقال إن حذاء أي جندي مصري يشرف رأس الملك فيصل وأل سعود كلهم , هتفت له الجماهير حتى بحت حناجرها وبعد أقل من سنة استقبل عبد الناصر فيصل وهتفت له نفس الجماهير حتى بحت حناجرها .. يا صديقي نحن نقاتل عن موبقات هؤلاء العظماء .. الرجل الذي طلب من رفيقنا الذي ذبح الملك حسين أخوته ورفاقه وفعل ما لم يفعله حتى الإسرائيليون .. أن يفعل أي شيء إلا شتم الملك .. الملك الذي لم تكن قد جفت عن يديه الطاهرتين دماء الفلسطينيين نساءً وأطفالاً وشيوخاً وشباباً هذا الرجل كم ستجد مثله على امتداد الساحة العربية , يا صديقي بعض اللبنانيين إن قلت لهم أنهم عرب يعتبرونها شتيمة , والأغلبية إن قلت لهم أنتم سوريون كذلك يعتبرونها شتيمة وكذلك الأردني والفلسطيني إن لم يعتبرها شتيمة يرفض , وينساق ذلك للمناطقية وثم تصل لمستوى الضيعة والقرية وثم العائلة حتى نصل إلى السيد , سيد العائلة ومن هنا جاءت عبادة القائد العظيم الفاتح , الذي لا يأتيه الخطأ لا من خلفه ولا من أمامه , لو أمعنت النظر منذ اندحار الاستعمار العثماني للوطن العربي - بالمناسبة العرب لا يسمون الاحتلال العثماني للوطن العربي احتلالاً بل فتحاً ومازال التلاميذ في كل أنحاء الوطن العربي يقرؤون الفتح

العثماني للوطن العربي - منذ اندحاره إلى اليوم هل رأيت حزباً أو جماعة أو رئيس دولة حتى رئيس جمعية تغير إلا بالموت أو بانقلابٍ .. إلا الحزب السوري القومي الاجتماعي فرؤساؤه يتغيرون ودائماً

: ولكن أنطون سعادة هو إله عند القوميين

: أنت مصرّ أن تضع قومي قبل سوري , كأن لديك مشكلة في الموضوع – ابتسم الجميع – في كل الأحوال أنا لم أسأل أي سوري قومي اجتماعي عن الموضوع ولكنني أرى أن انطون سعادة لا يعتبره السوريون القوميون رئيساً ولا أميناً عاماً .. هم يعتبرونه مفكراً ومؤسساً أقصد ككارل ماركس بالنسبة للشيوعيين

استأذن خالد من هزاع وقال

: الحقيقة الموضوع تشعب جداً إلى مدى لا يهم قضيتنا بل يؤذيها .. المهم أن الشعب الفلسطيني منذ الـ 43 وهو يكافح ويناضل ويقتل في محاولة لإبادته ومحو قضيته , المهم الآن أن تبقى بنادقنا جميعاً في اتجاه واحد في درب واحدة درب فلسطين

: صدقت .. والدرب إلى فلسطين يجب أن تكون ودائماً هي الميزان لكل الكون ليس للعرب فقط ويجب أن تكون

درب فلسطين هي من تحدد العدو والصديق الخائن والوفي

وقطعاً للنقاش سألت سوسن

: ألن تشرّبونا شيئاً .. تطعمونا شيئاً ؟

وقامت مع الصبايا ليفعلن شيئاً وانفضّ المكان لم يبق أحد إلا صبية صغيرة أعتقد أنها في مثل عمري , عرفت فيما بعد أن اسمها غادا

: كأن النقاش تشعب .. هل انزعجتَ ؟

: لا .. على الاطلاق .. الاختلاف من ضرورات الحياة , فالحياة الجميلة جوهرها الاختلاف شرط ألا يفسد الود , تخيلي أن يكون الكون كله نساءً أو كله رجالاً أو نكون كلنا نفكر بنفس الطريقة أو أن تكون الطبيعة كلها من نوع واحد كلها سنديان مثلاً

: صحيح .. شرط ألا يفسد الود

عادت سوسن والصبايا ومعهن ابريق شاي كبيرٍ وزيتونٍ وبطاطا مسلوقة وبيضٍ وجلسنا على الأرض لنأكل لم يأت من الشباب إلا خالد , بعد الطعام غادر الجميع وبقيت أنا وسوسن سألتني

: هل أنتَ منزعج ؟

: لا .. ولكن كأنني وأنتِ جئنا إلى غير مكاننا وزماننا أليس كذلك ؟

: ناجي بإمكاننا العودة فوراً إذا أردت

: لا .. يا سوسن .. ليس من الصح في شيء أن نغادر لأننا اختلفنا في النقاش .. بالمناسبة نحن لم نختلف .. الشباب تمترسوا فوراً بمجرد معرفتهم بي .. اتخذوا مواقف جاهزة .. تذكرين نقاشنا في المعسكر .. ربما يتغير الأمر فيما بعد , في كل الأحوال ليس لائقاً أن نغادر الآن على الاطلاق

في اليوم التالي كنت باكراً تحت شجرة السنديان عندما اتت سوسن من بلوكوسها

: صباح الخير .. تعال معي

اتجهنا غرباً إلى حافة الجبل وعلى صخرة كبيرة قرب المحرس الغربي , كان حسن يقف أمامه , جلسنا بعد أن ألقينا عليه تحية الصباح وأخذت تشرح لي .. كانت أرض الجليل أمامنا كراحة اليد بخطوطها البنية والخضراء والبيوت والمباني التي تبدو كعلب الكبريت وكألواح الصابون وسط هذه اللوحة التشكيلية البديعة

: هل نمتَ جيداً ؟

: لا بأس

: هل دار نقاشٌ بينكم ؟

: لا أبداً , الشباب تمازحوا قليلاً ثم نمنا

صارت جلستنا الصباحية هنا تحت شجرة السنديان ؛ لنصبح على فلسطين جزء من الصباح , وفرضاً كفروض الصلاة

: سوسن هذه العربات كل يوم تمر على هذا الطريق بدون خوف أو وجل

: ماذا تقصد ؟ إلى ما ترمي ؟ ماذا يدور في ذهنك أيها الفدائي الجميل ؟

: هذه العربات تمر أمام أعيننا وكأننا غير موجودين

: هم يمرون على الحد الفاصل بين الأرض اللبنانية والفلسطينية

: ونحن نتفرج .. بل كأننا نحرسهم .. يجب أن يخافوا .. يجب ألا يمروا إلا متخفين , وإن استطعنا ألا يمروا أبداً

: ناجي أعتقد أنهم يروننا كما نراهم والطيران كل يوم يمر فوقنا ويصور

: هذا ممكن جداً .. ولكن يجب ألا يمروا هكذا وبهذه السهولة ونحن نستطيع اصطيادهم بمنتهى السهولة

: ناجي الانحدار شديد والوصول إلى الوادي شبه مستحيل .. الوصول قرب الخط من هنا مستحيل

: ولأنهم يعتقدون أن الوصول إليهم من هنا مستحيل لذلك يتصرفون بمنتهى العنجهية .. ولأنهم يعتقدون ذلك اصطيادهم بمنتهى السهولة وسيأخذون درساً لن ينسوه أبداً

: بماذا تفكر وتخطط ؟

: برأيك كم تبلغ المسافة من هنا لأسفل الوادي؟

: الف متر على أبعد تقدير

: سوسن .. يلزمنا حبلٌ بهذا الطول .. يمكننا حفر درج لأقدامنا خلال يوم أو يومين والأشجار ستسترنا من هنا إلى أسفل الوادي , الحبل سيرافقنا من هنا من أول سنديانة ومع درج أقدامنا إلى أسفل الوادي من شجرة إلى أخرى وعندما نعود يعود معنا , نقطّعه في طريق العودة كي

نمنع استخدامه من قبل من يلاحقنا هذا إن بقي من يلاحقنا .. تخيلتِ ما قلته ؟

: بمنتهى الدقة ولكن يا ناجي ما تفكر به يلزمه موافقة من القيادة العليا

: ليكن

: تفكر بشكل جدي ؟

: سوسن .. هل أتينا إلى هنا لنتجادل .. أم لنحرس حدود العدو ؟

: أكيد لا

: إذاً فكري معي .. ترافقينني ؟

: ما رأيك أن نسأل خالد ؟ هو المسؤول هنا عن كل شيء وهو من يستطيع أن يتصل بالقيادة

: وماذا تنتظرين ؟

: سأذهب وأدعوه لشرب الشاي معنا هنا ونطرح الفكرة .. ناجي ربما يأتي أخرون غيره هل تعترض على حضور أي أحد غيرنا

: يا سوسن .. إن كنا نخاف من بعضنا لهذه الدرجة لا حاجة لوجودنا هنا وعلى كل حال أجزم أنه لن يأتي أحد من الشباب أبداً لأنهم لا يستسيغون رؤيتي

: لن أتأخر

ذهبت سوسن وبعد ربع ساعة عادت ترافقها غادا وسُميّة وخالد

: صباح الخير

: أهلاً صباح النور

: هذه خيانة

: لماذا يا غادة ؟

: لو لم نرها كانت جاءت وحيدة .. تريدان أن تشربا الشاي وحدكما ؟!

: بهذه معك حق

: بصراحة أنا خجل منكَ

: لماذا يا أخي خالد ؟

: مواقف بعض الأخوة غير لائقة

: أخي خالد انس كل ما جرى لا وقت لدينا لمثل هذه الصغائر .. الآن سوسن ذهبت إليك لنشاركك بما نفكر

: تفضل كلي إصغاء

شرحتُ له ما أفكر به بالتفصيل .. تناقشنا طويلا حول الإيجابيات والسلبيات , كانت سوسن وغادا وسُميّة مستمعات وبإصغاء شديد

: بصدق وبمنتهى الصراحة لم يخطر ببالي هذا أبداً وأنا موافق على العملية بكل تفاصيلها بقي يا أخي ناجي أن نأخذ موافقة القيادة , أنا سأنقل كل التفاصيل لهم ونرى

: متى ؟

: متى تريد ؟

: اليوم .. اليوم .. دع الأمر بيننا الآن , وتيّسر إلى حيث تريد الإبلاغ , إن وافقوا نكمل نحن بقية التفاصيل , وإن لم يوافقوا نعتبر الموضوع انتهى في أرضه

: وهو كذلك .. سلام .. لن أتأخر حد أقصى قبل الغروب

: مع السلامة

غادرنا خالد وبقينا نحن الأربعة نشرب الشاي ونتسامر

: طبعا أنتَ في العملية ؟

: أكيد يا غادا .. أنا فيها .. أنا سأكون في المقدمة .. وإياكِ أن تعتقدي معنى ما أقوله أنني أنصب نفسي قائداً

: هل فكّرت من سيكون معك .. وكم العدد ؟

: لم أفكر من سيكون معي , فكرت بالعدد فقط يا سُميّة

: اشرح لنا

: رامي آر بي جي .. وفدائي يحمل فقط الطعام وبندقيته , وفدائي يحمل ما يستطيع من الذخيرة وبندقيته , وفدائي وأنا .. طبعا كي نحمل إضافة لسلاحنا بعض الذخيرة والماء .. يجب أن نحمل معنا ما يكفينا لثلاثة أيام على الأقل

: كيف ستختار من يقوم بالعملية ؟

: لست أنا من يختار يا سُميّة , عندما يعود خالد بالموافقة سنطرح العملية أمام الجميع وسنشرحها بالتفصيل ونرى من يحب أن يشارك .. إن كان العدد أكثر من خمسة نجري قرعة .. طبعا أنا خارج القرعة

: وأنا خارج القرعة

: وأنا خارج القرعة

: وأنا

: يقولون (بس يجي الصبي منصلي على النبي) هذا سابق لأوانه , احتمال ألا نحتاج لقرعة أبداً

: صحيح

قُبيل الغروب عاد خالد والابتسامة تملأ وجهه

: الحمد لله على السلامة .. بشّر ؟

: القيادة تبلغك السلام وتتمنى لك ومن سيشاركك السلامة والنصر المؤزر إن شاء الله .. بعد اجتماع ضم الخبراء والقادة وافقوا وأعجبوا جميعاً وأثنوا على الخطة والعملية , طلبهم الوحيد أن تكون حذراً ودقيقاً وأن تختار من يشاركك العملية بدقة

: أفهم أن القيادة أسمتني قائدا للعملية ؟

: تماماً

: يا خالد هذا لا يجوز .. هنا من هو الأكفأ مني

: يا أخ ناجي .. سأكون معك صريحاً وصادقاً وسأنقل ما جرى بحذافيره .. ما قلته جرى نقاشه وبمنتهى الموضوعية وأجمع الكل العسكريون والسياسيون على أنك صاحب الخطة والفكرة وأنت خير من ينفذها .. أبو

صالح قال بالحرف الواحد نحن هناك من سنين لم يخطر ببال أحد من قادة المجموعات مثل هذه العملية لذلك صاحبها ومبدعها هو من ينفذها والراية ستكون بيده , لا أحد منا يتمنن عليك بشيء وطلبوا مني أن تبلغهم اسم العملية

: أنا عندي اقتراح يا أخي خالد

: تفضل

: نحن الآن .. أنا وأنت والصبايا فقط ولا يوجد أحد من الشباب أقترح الآتي .. تطلب اجتماع للجميع وحتى الحرس وتشرح لنا جميعاً ما جرى وبالتفصيل شرط ألا تذكر أي شيء عن قرار القيادة وتسأل من يود المشاركة وترى إن كان العدد كبيراً ممن يريد المشاركة تكون القرعة وتستثنيني أنا منها أقصد فقط قرعة المشاركة .. أخي خالد ولو خالفنا أوامر القيادة هنا يجوز لأننا نحن الذين نفهم ونتفهم ونقدر الوضع أكثر

: الحق معك وأنا معك فهمتك جيداً وهذا ما سيحصل الآن

نادى على الشباب وأرسل من يأتي من هم في نوبة الحراسة

: شباب أنا دعوتكم لإبلغكم ما جرى اليوم وبالتفصيل الممل

شرح خالد واستفاض

: شباب العملية اختيارية من يود المشاركة برفع الأيدي نحن نحتاج لأربعة أو خمسة كحد أقصى عدا الأخ ناجي لأنه أكيد ممن سيشارك فمن يريد ؟

قال ذلك وهو يرفع يده , لم يرفع يده أي شاب آخر , الصبايا جميعهن رفعن أيديهن

: أخي خالد .. جيد .. القرعة لقيادة العملية

: لا حاجة للقرعة بالتصويت أنا أرشح ناجي لقيادة العملية - قالت سوسن - من يوافق ؟

رفع خالد يده والصبايا جميعهن

: إذا أنا قائد العملية .. أخي خالد أنا أعفيك من المشاركة أنت قائد المجموعة هنا

: لا .. سأشارك

: أخي خالد أنا قائد العملية , وأنا من يحدد .. أنا أعفيك .. وأتمنى من الصبايا أن يجرين قرعة بينهن , نحن نريد اربعة وأنا , أريد منك فقط تأمين بعض المواد نتفق عليها

: لن نجري أي قرعة سنذهب معك جميعنا

: يا سُميّة لماذا ؟ هكذا عددنا كبير

: لا .. ليس كبيراً .. دعنا نكون مرتاحين في حمل الماء والطعام والذخيرة .. والكثرة لا تعيق بشيء

: ما تقوله غادا صحيح

: كما تريدين أيتها المدربة .. نباشر غداً واسم العملية عشتار إكراماً لكل الأمهات .. لكل النساء , أخي خالد ابلغ القيادة , اسم العملية (عشتار)

(35)

أيها الوطن المكسور ..

كعاشق

علمني ..

كيف ألملم دماء رحمي

من ذرات ترابك

كيف .. انفخ فيها ..

لتولد من جديد

والدتي الحبيبة ...

بدأنا والصبايا العمل بمنتهى الهدوء .. كنا نعمل بصمت , ربطنا الحبل في أول سنديانة قرب المحرس الغربي نمده للشجرة التي تلي وننتشر بمحازاته نحفر مواقع لأقدامنا

: صبايا يجب ألا نوسع الحفرة كي لا تأخذ وقتاً , نريدها صغيرة بحيث نستطيع وضع أقدامنا ونحن نمسك في الحبل

كان الانحدار شديداً جداً ولكن الحبل الذي كنا نمده من شجرة إلى أخرى مكّننا من العمل ولكن بصعوبة بالغة , كنا نضطر أن نحفر ونحن منبطحون بيد ونتمسك بالحبل باليد الأخرى في منتصف السفح وصلنا إلى شير أو ريف .. جبل من الصخر ارتفاعه أكثر من خمسين متراً تحت سنديانة على كتفه جلسنا نحن السبعة ونظرنا ببعضنا ونحن نضحك

: والحل ؟ سألتني منى

: نتجه شرقا قرابة المئتي متر وننحدر من هناك

: المسافة من هنا إلى الطريق التي يمرون عليها كم تبلغ ؟ سألت سوسن

: بحدود الخمس مئة متر لماذا ؟

: ألا نستطيع إصابتهم من هنا ؟

: نستطيع ولكن قد لا تكون الإصابة محققة وأنت علمتني أن البندقية مداها المجدي الأقصى أربعمئة

: لا أعتقد أننا سنستخدم البنادق

: ممكن نستخدم .. وممكن لا .. في كل الأحوال يجب أن نقترب أكثر

على طرف الجرف الصخري كان الانحدار على أشده .. وأشجار السنديان بدأت تقل لتحل محلها أشجار الدلب الضخمة العالية والتي بينها فراغات كبيرة وهنا مكمن الخطر , وإمكانية رؤيتنا ممن يراقب الطريق أو من السهل صارت كبيرة , وصار علينا أن نراقب ونحفر بدون اصدار أي صوت لأن الصدى صار يضاعف الصوت فعندما كان يسقط حجراً من تحت أقدامنا كان صداه يُسمع جيداً , ما ساعدنا أن الحراسة الاسرائيلية هنا كانت تعتمد على هذا الانحدار الفظيع للجبل واستحالة تسلقه فكانوا مكتفين بهذه الدوريات الآلية

: غادا .. أنت من الآن وصاعداً عليك المراقبة فقط .. راقبي جيداً وفي كل الاتجاهات

على طرف الجرف الصخري شجرة دلب معمرة وأنا ألفّ الحبل عليها اضطررت أن أدور حولها وأنا أدور اكتشفت اكتشافا رائعا .. باب كهف بحجم الشباك تخرج من زاويته شجرة بطم تغطيه تماما دخلت فيه .. في الداخل يتسع ويرتفع لأكثر من ثلاثة أمتار وكلما دخلت يتسع , خرجت

وكأن سوسن التي كانت خلفي تفاجأت باختفائي
: أين ذهبت ؟

: وجدت لك فندقاً من الطراز الفخم

: ماذا تقصد ؟

: يوجد هنا مغارة تتسع لمعسكر .. سننام هنا ونتخفى

: دعني أر

: دعيني أكمل لفّ الحبل ثم تدخلن جميعكن ابقين هنا حتى أعود

تابعتُ لفّ الحبل للشجرة التالية ثم التالية حتى بدأت الأرض ترتاح وتنبسط ربطتّ الحبل وعدت مسرعاً سعيداً , كن ينتظرن على باب المغارة وهن يضحكن ويتهامسن سعيدات تعانقنا جميعنا وبكينا جميعاً ونحن نتهامس , في الداخل كأن المغارة ممتدة إلى عمق بعيد .. كنا جميعاً سعيدين

: من منكنّ تفسر لنا سبب سعادتنا جميعاً

ضحكنا جميعاً

: قل أنت .. إن كنت تستطيع - قالت سُميّة

: أعتقد أنها فرحة الانتصار .. نحن أنجزنا تسعين بالمئة منه بقي العشرة

: ولماذا أنجزنا .. والله أنجزت وحدك .. أصلا نحن عبئبءٌ عليك

: همسن بصوت واحد .. والله العظيم صحيح

: والله العظيم لولاكن ما استطعت فعل شيء .. والله العظيم لو غابت واحدة منكن .. أي واحدة لما استطعنا أن نصل إلى هنا إياكن أن تقلن ذلك مرة أخرى , الآن نرتاح ونأكل فلا أحد يستطيع الصبر على الجوع كما صبرنا فمنذ الصباح مازلنا على الماء رغم كل الجهد والتعب , ثم نخرج لنرى كيف وماذا سنفعل ثم نعود لنسهر ونرتاح , كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلا خرجنا وبمنتهى الهدوء , وصلنا إلى الطريق تماما همست لهنّ أن نتراجع قليلاً .. بقرب الطريق تنتشر الصخور تبتعد عنها متراً ومترين وعشرة أمتاراً أشرت لهن بيدي وبدون كلام , كيف ننتشر وعدنا إلى المغارة

: في الصباح نصطف كما اشرت .. كل واحدة خلف صخرة .. سنتركهم يذهبون وفي طريق العودة نشتبك معهم .. هم في العادة مصفحة خلفها جيب , أنا أسدد أولا على المصفحة وبإذن الله سأحرقها في نفس اللحظة تطلقن

النار جميعكن إياكنّ أن تعطين فرصة لأي منهم أن يستخدم سلاحه .. إياكنّ .. يجب ألا نعطيهم الفرصة لاستخدام سلاحهم على الاطلاق يجب أن نعود إلى هنا- غندرة -

: هل سنعود إلى هنا ؟

: نعم سنعود إلى هنا .. سنبقى هنا حتى الليل وممكن أكثر في وقتها نقرر .. لأن الطيران الاسرائيلي سيخرج وسيصطادنا كالعصافير إن انسحبنا فوراً , ونحن سنعود سالمين غانمين , هذه المغارة أهدانا إياها الله , حتى ولو لم تكن موجودة كنا سنبقى قربهم غير بعيدين هكذا كانت خطتي .. لأنهم لن يفكروا على الاطلاق أننا سنبقى قريبين منهم ومن بين الافتراضات أنهم وجدونا, وهذه أسوأ الاحتمالات , كنا سنقاتلهم ونقتلهم حتى نستشهد , ولكن هذه المغارة يسرها الله لنا كي نقتلهم ونعود مرفوعي الرأس والجبين , هل منكن من دبَّ أثر للخوف في قلبها ؟

: أنا .. وأقسم بتراب أمي وأبي ليس خوفاً من الاسرائيليين .. فقط أخاف ألا أراكم مرة أخرى

: نحن هنا إما نموت سوية أو نعيش سوية ..لا تخافنّ أبداً أقسم لكنّ , أننا سنعود سالمين غانمين وسنذكر بعض .. ستكون ذكرى جميلة ورائعة , ستكون مفخرة لنا جميعاً

جلسنا عند جذع شجرة الدلب .. دبَّ النعاس فينا جميعا بسبب التعب والارهاق , دخلن جميعاً إلى المغارة , عند بزوغ الفجر استيقظت لم أستطع الحراك كنّ جميعهن حولي متلاصقات ورؤوسهن فوق صدري ويدي وفخذي

: صبايا .. صبايا .. صباح الخير .. صبايا .. صباح الخير

سحبت يدي ورحت أربت على وجوههن بدأن بالاستيقاظ واحدة بعد الأخرى قالت سوسن

: كان يجب إيقاظي قبلهن جميعاً لألتقط لهن صوراً .. أنت كيف نمت ؟

: وهل لديك كاميرا ؟

: نعم معي كاميرا

: تمزحين ؟!

: والله العظيم لا أمزح وإن سمحت لي سأصور العملية إن استطعت

: لن أمنعك .. أنت سيدتي ومن علمني كيف استخدم السلاح ولا مانع أن تصوري تلامذتك وهم في الامتحان

ضحكن جميعهن كلما استيقظت صبية وتنظر أين وكيف كانت نائمة .. تضحك وتسأل نفس السؤال .. أنتَ كيف نمت ؟

: بمنتهى الصراحة نمت مثلكن ومن دقائق فقت .. وجدتكن هكذا , وأنا لا أستطيع الحراك بصراحة لو لم يكن لدينا مشوار مهماً لما أيقظتكن أبداً .. تهيّأن .. سنترك كل شيء هنا نأخذ الذخيرة والسلاح , هم يمرون بين السابعة والثامنة دائماً .. سنكون هناك في السادسة والنصف

خلف أول صخرة وضعت قاذف الآر بي جي وعدت .. أنت هنا , وأنت هنا وأنت هنا وزعتهن بشكل زكزاك خلف الصخور وبشكل تستطيع كل صبية الرمي وهي متخفية تماماً .. أجثو قربها - إياك أن تسمحي للخوف أن يقترب منك لا تطلقي النار حتى تسمعي صوتي " نار " مفهوم - أعانقها وأغادر , سُميّة عانقتني بشدة وبكت بصمت .. سُميّة أبكتني ولا أعرف لماذا .. آخر من ودعت كانت سوسن التي مجرد وصلنا ذهبتْ لصخرة بعينها واختفت خلفها , كانت خلفي وعلى اليسار قليلاً وأنا أعانقها لاحظت أن مكاني مكشوف لها تماماً

: سوسن .. إياك أن تتصرفي تصرفاً يؤذيك ويؤذيني

: اطمئن سأتقيد بأوامرك بدقة

عند السابعة وعشرين دقيقة سمعنا صوت الهدير تهيأنا كلٌ خلف صخرته , مرت المصفحة بعد دقائق تلتها عربة جيب فيها اثنان في الأمام وستة في المقعد الخلفي المكشوف كل ثلاثة يقابلهم ثلاثة , في موقعنا لا نستطيع رؤية العربات في الذهاب حتى تصبح مقابلنا تماماً أما في الإياب نراهم من بعيد في الثامنة عادوا وضعت القاذف فوق كتفي وتركت العربة المصفحة حتى صارت على مسافة خمسين متراً بحيث تكون الجيب تبعد نفس المسافة عن الصبايا وسددت على مقدمتها وأطلقت وصرخت نار .. وبسرعة وضعت قذيفة جديدة ورميت على الجيب .. دقائق .. وكان كل شيء انتهى لم يغادر المركبتين إنسان .. قتلوا واحترقوا جميعاً , عندما تأكدت من أن الامر انتهى بمنتهى الدقة صرخت .. بسرعة .. عشر دقائق كنا جميعاً في المغارة تعانقنا وبكينا .. كنا نودّ أن نطير

: أنتن أجمل نساء الأرض وأشرفهن وأعظمهن أنا أودّ أن أقبل أقدامكن واحدة واحدة

ساد الصمت ونحن ننظر ببعضنا

: رائع النصر أليس كذلك ؟

: كم أنت جميل ورجل

: شكراً يا سوسن .. هل نجحتُ بالامتحان ؟

: بامتياز

: الفضل للأستاذ .. أنت مدربة رائعة .. وأنتن أجمل فدائيات في الكون .. لم يستخدمن سلاحهنّ أبداً

: لقد التقطت لكم جميعكم صوراً .. أنا الوحيدة التي سأخرج من هذه المعركة بدون صورة

: تمزحين ؟!
: والله لا أمزح

: هكذا ظُلمتي

: لا .. أنا موجودة في صورة كل واحدة وفي صورتك ..

: أنت في قلوبنا جميعاً , سُميّة أيتها الفدائية الجميلة المحبة .. زال الخوف ؟

: عندما سمعت صوتك نار .. حسبت نفسي أنني سأخرج مع كل طلقة , وأفجر رؤوسهم قبل أن يستطيعوا مد أيديهم إلى بنادقهم , كلماتك كانت تدق في أذني أقوى من الرصاص - إياكن أن تدعوهم يستخدموا سلاحهم - كنت أسدد بمنتهى الدقة , والله العظيم كنت أرى الرصاص وهو

يخترقهم .. لقد أدميت شفتي .. لا .. الآن ذهب .. وأنا الآن أثق مثلك أننا راجعون لنحتفل بالنصر هناك

قالت هناك وصمتت وأطرقت في الأرض

لم يطل وقت انتظار الطائرات .. كان هدير الطائرات يصم الآذان , وصوت القصف والانفجارات كأنه يقلب الأرض رأسا على عقب , لم نعد نسمع بعضنا أشرت إليهن

: اقتربن كما كنتن أثناء النوم لنستطيع سماع بعضنا

ضحكنا وبصوت مرتفع وتحوقنّا حول بعضنا حتى صرنا كتلة واحدة , قلت لهن

: الآن يلزمنا دجاجة تضمنا تحت جناحها .. أقصد .. إحدى أمهاتنا أم محمود والدة سوسن .. أم ناجي سحاب التي تكون تقول الآن .. سوسن غدرت بي وأخذت وحيدي لتقتله في الجنوب أو أم سُميّة أو أم منى أو أم مها أو أم إيمان أو أم غادا

: هل أنت وحيد ؟ سألت غادا

: وحيد جداً

: كيف جداً ؟

: ليس الآن .. لن أجيبك الآن

: والدتك اسمها سحاب ؟ سألت سُمية

: لا .. والدتي اسمها راحيل .. أمي اسمها سحاب

: لا تسأليه لن يجيب الآن سيأتي يوم وتعرفين هكذا قال لي في المعسكر

كنت أحسّ بقلبي كأنه ينبض بهن جميعا وروحي فراشة تحوم حول رؤوسهن الملتصقة بي كيفما اتفق كنت أود لو كنت طائراً ضخماً أعلقهن بجناحي وأطير بهن بعيداً عن أي خطر .. صارت الغارات متباعدة واصوات الانفجارات تخف

: كما توقعت القصف على المواقع .. أرجو من الله أن يكون الشباب في كل المواقع في مأمن ولم يصب أحد بأذى

: أنا متأكدة أن مجموعتنا لم يصب أحد منهم بأذى – قالت منى

: لماذا أنت متأكدة ؟ سألت سُميّة وهي تغمز ؟

: لا .. لا .. شيء فقط توقع

: لأن الحرس الذي يطل على المنطقة .. ولماذا الحرس أنا واثقة أنهم كانوا منذ الأمس يراقبون متى وكيف ؟

: يا مها .. نحن وصلنا إلى هنا بسرعة فائقة - الأخوة كما يحبون المناداة - يعتقدون أننا لن نصل إلى هنا قبل يومين وممكن أن يكون ما تقولينه صحيحاً , المهم ألا يكونوا أصيبوا بأذى

: ماذا سنفعل الآن يا ناجي ؟

: سننتظر حتى حلول الليل ونغادر بمنتهى الهدوء في الفجر على أبعد تقدير نكون في قمة الجبل ستتقدمكن سوسن وأنا خلفكن لأقطع الحبل ما أخبار الماء ؟

: مازال لدينا في كل جعبة قنينتين

: تمام لا تقتربن من المعلبات .. نأكل خبزاً وبندورة كي لا نعطش سنحتاج ماء في الصعود أكثر من النزول

هدأ كل شيء وخيم الهدوء , في التاسعة انطلقنا , الظلام شديد وما كان يزيد به ظلال الأشجار, الحبل كان المنقذ والدرج الذي حفرناه لأقدامنا , الحبل الذي كنت أقطّعه قطعاً وأرميه بعيداً.. أحياناً كنا نزحف بضعة أمتاراً ونعود نتزحلق إلى حيث كنا , لشدة الانحدار وللإنهاك الذي بدأ يجتاحنا جميعاً , المحزن الجميل , كلما تزحلقت صبية

كانت تتمسك بالتي قبلها وهكذا , فيصير التزحلق جماعي .. كان الميزان سوسن فعليها كان يقع العبء الأكبر , فهي التي كانت تتمسك بالحبل وتنقذ هذا الرتل المشحوط تقريباً , بعد ثلاث ساعات من الزحف أحياناً , والمشي أحياناً , جلسنا مترادفين نصف ساعة , ثم تابعنا صعوداً , في الرابعة كنا أمام المحرس وعبدالله يصرخ قـــــف طويلة

: عبدالله .. عبدالله .. أنا سوسن نحن عدنا

هب الجميع لاستقبالنا عند سماعهم صوت عبدالله , بدؤوا يعانقون الصبايا وأنا رميت آخر خمسين متراً من الحبل قرب جذع السنديانة ووقفت حتى يقبلوا نحوي .. أقبلوا وسلموا عليّ بدون عناق إلا خالد عانقني طويلاً وانهال علي بوابل من المديح

: طمئني أأنتم جميعاً بخير المواقع المجاورة انشاء الله كلهم بخير

: نحن كنا محتاطين , الحمد لله لا إصابات لدينا المواقع المجاورة لم نبلغ بوقوع اصابات أو شهداء , والاذاعات لم تعلن عن إصابات أو شهداء , يا رجل (كايمة الساعة) في الإذاعات , أناشيد وتعليقات منذ الاعلان الأول .. لقد

سجلت لكم البيان .. سأغادر الآن لإبلاغ القيادة بنبأ عودتكم سالمين

جلسنا تحت شجرة السنديان جميعا بما فيهم الحراس وساد الصمت كان الغضب بادياً على وجوه الصبايا جميعهن , أنا عرفت من اللحظة الأولى سر غضبهن وتمنيت ألا تتكلم أياً منهن وصرت أنا أسأل وأحمد الله على سلامتهم .. صلاح قال .. كانت الغارات كثيفة جداً وفي كل الاتجاهات وسمعنا من الإذاعات أنها شملت كل الجنوب , مؤيد .. قال أنا أول واحد رآكم كنت في نوبة الحراسة , بصراحة لم أكن أتوقع أنكم وصلتم وتوقعت أن يكون الهجوم ليلاً سمعت صوتاً قوياً انتبهت كانت النار تلتهم المصفحة ثواني واشتعلت النار بالسيارة صرخت مثل المجنون وقفزت باتجاه الشباب .. نفذت العملية .. النار تأكلهم .. نفذت العملية .. الرصاص يلعلع على خط التماس وأفرغت ما ببندقيتي .. صرخ بي خالد أن .. أهدأ وهبّ الشباب إلى شرفة الوادي , كلنا كنا نصيح وأغلبنا لا يدري ماذا يقول إلا خالد رأيته ينظر باتجاهكم صامتاً ودموعه تنهمر .. دموع خالد أعادت لي صوابي فصمتّ .. دقائق وصرخ بنا إلى البلوكوسات إياكم أن يخرج أحد منكم , المعركة لم تبدأ بعد .. بعد دقائق تبدأ ابتهلوا لله أن يكون معهم , بعد ربع ساعة استأذنت من الجميع أن يسمحوا لنا أن نذهب لننام , غادرت الصبايا إلى

بلوكوسهن وهن صامتات لم تنطق أيّة منهن بكلمة واحدة وعلائم القرف والغضب بادية على وجوههن ..سُميّة كان وجهها الأكثر وضوحاً , كانت نظرات الازدراء باتجاههم واضحة جداً, ابتهلتُ ألا تتكلم أيّة منهن , نظراتي كانت موجهة نحو سوسن , وكأنها قرأت ما أريد , استيقظنا على صياح الشباب .. غارة .. غارة .. مرّوا فوقنا ولكن لم يقصفوا , كان القصف في مكان آخر في الثانية عشرة هدأ صوت الطيران , خرجت إلى مقاعدنا تحت شجرة السنديان , وأتت الصبايا باتجاهي ومعهن الشاي والطعام , الشباب كانوا يتجمعون أمام البلوكوس الآخر , كانوا يتجادلون بصوت خفيض غير مسموع

: صباح النور والجمال والحب .. صباح الصبايا اللواتي لولاهنّ هذا الكون لا يساوي فردة حذاء

: ايـــــه .. طول بالك .. قالت سوسن

: ايــه .. لي عندكن طلب أعتقد هو آخر ما سأطلبه منكن وأرجو أن يستجاب

: عرفناه .. لا تقله منذ أمس ونحن نتجادل عنه – قالت سوسن

: لا يضر أن أطلبه ربما لا يكون هو .. ربما .. طلبي ألا تتجادلن مع أي أحد على أي شيء يخصني , وأتمنى كذلك

ما يخصكّن , ولكن ما يخصكّن لكن مطلق الحرية , ولكنني أبدي رأياً هنا فقط .. لا نريد أي نقاشٍ .. أي نقاشٍ .. النقاش سيزيد الشرخ وسيوسعه وأنا لا أريد ذلك هذا طلبي .. وأقبل أياديكن واحدة واحدة وأرجوكنّ أن ينفذ .. النقاش الذي لا ثمرة منه مضيعة للوقت , وزيادة في اتساع الفجوة , أرجوكنّ اقطعن أي نقاش فيما يخصني , أنا قرأت وجوهكن جميعاً وأبتهلت ألا تتكلم أيّة منكن والحمد لله مضت على خير .. انتهى الرجاء تفضلوا أنا جائع

في الساعة السادسة مساءً عاد خالد وبرفقته وفد من قيادة المنظمة مؤلف من خمسة أشخاص همس في أذني خالد وهو يشير إلى أحدهم وكان رجلاً ضخماً طويلاً , أسمر اللون ملتحي يعتمر فوق رأسه قبعة (بيريه) تشبه بيريه تشي غيفارا – هذا المرافق الشخصي للأخ أبو عمار – صافحونا جميعنا عناقاً وقف بجانبنا وخطب وأثنى وعدد ما فعلته العملية عالمياً وما زالت وما ستفعله ونظر إليّ

: أخي ناجي أنتم رفعتم رأسنا وأقسم لك أن الأخ أبو عمار يبلغك ومن معك سلامه وقبلاته وأقسم لك أنه كان يودّ أن يأتي بنفسه ليهنئكم ولكن بعض الظروف حالت دون ذلك

وتقدم مني وعلق على صدري وساماً وناولني ظرفاً وعانقني ثم انتقل إلى الصبايا وقلدهنّ الأوسمة وعانقهنّ وأعطاهنّ نفس الظروف

(36)

عندما رحلوا

عرّج العيس

لوحوا بالمناديل

كنت أدحرج راسي

في آخر الوجع

قلت .. ربما أصل

هم انتظروا ..

وانتظر العيس

الروح لم تنتظر

قبلتهم وهي تطير

والدتي الحبيبة ...

صارت الغارات الاسرائيلية يومية ولكننا اعتدناها وعدنا إلى حياتنا الطبيعية , في الصباح نذهب جميعا إلا الحرس إلى الرياضة نركض في الجبال والوديان لمدة ساعة كاملة

ونعود لتنظيف الخنادق والإضافة عليها وبعد الظهر نكمل حفر بلوكوساً جديداً كان الشباب قد بدؤوا بحفره .. كان الطيران الاسرائيلي كل يوم يحلق بضع مرات فوقنا وكنا فوراً نوقف العمل ونختبئ , ولكنه لم يقصف عندنا كان يقصف في أماكن أخرى كنا نسمع أصوات الانفجارات , في المساء نتبادل نوبات الحرس , انتبهت جيداً أنني سببت نوعاً من القيد لكل الشباب فكانوا عندما أقترب منهم يقطعون الحديث أو يغيرونه , في البداية اعتقدت أنهم لا يريدون أن يدور نقاش قد يوسع الشرخ بيننا , ثم صرت أخمّن أنهم يشعرون ببعض الغيرة على البنات لأنني غريب .. غريب اقتحم عالمهم , سوسن كانت دائما تحاول تبييض وتسهيل الأمر , وأنا كنت أحاول التودد للجميع محاولاً ردم الهوة التي حفروها بيني وبينهم , من أول لقائنا , كنت دائماً أحاول إبعاد شبح الشابين اللذين فتحا معي ومع مازن معركة لا ناقة لنا بها ولا جملاً , وإجبارنا على الدفاع عن أنفسنا , حاولت أن أغيّر طريقة تفكير كل منا بالآخر , ولكن دون جدوى , صارت صور ذلك اليوم تلاحقني كيفما اتجهت , لا تفارقني أبداً , قالت لي سوسن : ناجي حزنك ظاهر جداً والجميع يلاحظونه إن أحببت أن تعود فأنا سأرافقك .. البنات يلاحظن أكثر .. غادا أمس تكلمت بصوت عالٍ وغاضب وأمام الجميع وسألتهم لماذا هذه العدوانية تجاه هذا الشاب – ما فعله سيمضي وقت

طويل حتى يأتي من يصنع ما صنعه , لا أحد منكم يسبقه لعمل ولا لأي شيء ويحاول التقرب منكم وأنتم لا حياة لمن تنادي - وغادرت البلوكوس وأنا أرى الدمع في عينيها , ناجي وأنا أحسّ بالذنب لأنني أتيت بك إلى هنا

: برأيك وبمنتهى التجرد والصدق .. هل ترين أنني أخطأت مع أحد ؟

: لا .. على الاطلاق

: أنا سأبقى لنهاية الاسبوع , إن تغيروا أبقى وإن لم يتغيروا سأغادر , أنا كنت أعتقد أن ما بعد العملية ليس كما قبلها , وأنهم سيتغيرون .. لا بأس .. محاولة أخيرة

كنت أحيانا أذهب إلى حافة الجبل , وأجلس تحت سنديانة , أتأمل تلك السهول البديعة وأكتب لك عن الحياة هنا , وعن الأبواب التي أغلقت بغياب جمانة .. كأنها سافرت يا أمي وصَعُبَ عليها توديعي وصارت دموع أمي سحاب تحرق قلبي وأحسّ بذنب تجاهها لماذا اقتربت من هذه المخلوقة , لماذا زرعت نفسي في دربها وهي كانت تعيش بدوني مرتاحة من الكون ومن الأمومة ومن الأبناء , هي كانت تعرف جيداً أنني لم أقل لها الحقيقة عندما أتيت إلى هنا , ولم يكن لديها طريقاً آخر , أنا أثق أنني لا أغيب عنها لحظة واحدة كما هي لا تغيب عن مقلتي

نوبتي في الحراسة من التاسعة للحادية عشرة سلمت جاسم وعدت .. وعلى بعد أكثر من ثلاثة أمتار من البلولوكس الرئيسي كانت أصوات الشباب والصبايا مرتفعة وحادة لدرجة الصياح , وقفت .. كان الكلام واضحاً جداً تنحيت جانب السنديانة وجلست كي لا أحرج أحداً ويكونون قد أنهوا حديثهم وصرت أتصنع السعال , كان صوت هزاع وأعتقد خالد وسوسن وغادا واضحة

: ما أدراكِ إن لم يكن مزروعاً بيننا من قبل عبد الله سعادة أو انعام رعد وربما جورج عبد المسيح ؟

:أنا أجزم أنه من مخابرات حافظ الأسد , اخترق حتى القوميين

: وربما يكون ماركسي هذه المعلومات الغزيرة يتمتع بها الشيوعيون فقط

غادا : وربما يكون من جماعة هتلر

: أتسخرين ؟

: تماماً أسخر .. السؤال موجه للجميع , رجل تصدى لمهمة هو خطط لها ونفذها بمفرده , إياكم أن تعتقدوا أننا أفدناه بشيء .. نحن كنا عبئاً عليه , كنا معه أنساً فقط وعبئا حمله على كتفيه وهو سعيد جداً في حين لم يتجرأ

أحد منكم على مرافقته , بل أجزم أن أغلبكم كان موقنا من استحالة العملية إن لم أقل غير ذلك .. ماذا لديكم لينقله لعبدالله سعادة أو انعام رعد أو جورج عبد المسيح أو حافظ الأسد أو حتى لإسرائيل وأنتم تثقون أننا هنا وكل يوم تمر الطائرات الاسرائيلية وتصورنا وتعرف كل مواقعنا ومواقع غيرنا وربما تعرفنا بالاسم أنتم لم تحبوا هذا الشاب الذي لم يبلغ العشرين من عمره , الذي ترك كل الدنيا والتحق بكم , لا تفعلون شيئاً إلا ويكون أولكم .. أعطى رأيه .. فلم يعجبكم .. نحن لا نقبل إلا أنفسنا

: أنت لا ترين ما نرى نحن ؟

سوسن : وما ترون ؟

: بصراحة أنا لست معترضاً على آرائه وبمنتهى الصدق أنا أتبنى تسعين بالمئة منها , أنا ما جعلني أجفل منه هو منبته ـ الساحل ـ استحيت أن أساله عن دينه ومذهبه فهذه المنطقة كلها من جماعة حافظ الأسد

وكي لا أسمع ما هو أفظع قمت وتمشيت باتجاههم

: مساء الخير يا شباب .. كأنكم نسيتم أن نوبتي تنتهي في الحادية عشرة .. أصواتكم مسموعة جداً .. أيها الأصدقاء لا تتعبوا أنفسكم بالبحث والتنقيب والجلد .. أنا أتيت إلى هنا برغبة مني وحب , وباقتراح هذه النبيلة التي علمتني

كيف استخدم السلاح .. وأتت بي إلى هنا لأستخدمه ولكن يا رفيقة الدرب , ما بأيدينا نختار .. كأنه كما أننا لم نختر أمهاتنا وآباءنا , كذلك دروبنا .. كأنه لا نستطيع أن نختارها .. أيها الأصدقاء لن ألقي عليكم خطاباً .. بمنتهى الصدق أنا أحببتكم جميعاً وأعرف أنكم لم تحبوني .. حاولت أن أجعلكم تروني كما أنا ولكني فشلت .. أيها الأصدقاء وجودي يتعبكم , تحملوني للغد فقط وأنا سأغادر , شكراً لكم جميعاً , وبمنتهى الصدق أنا أعذركم .. هكذا تربينا .. ومن ربيّ على شيء شاب عليه .. عندما يختلف الخونة , أقصد ما سميتموهم أنتم خونة وطبعا استثنيتم من تحبون , وهذا حقكم وكذلك الطرف الآخر يطلق نفس التسميات , ويستثني من يحب كذلك .. عندما يختلف هؤلاء .. يدفع الثمن الناس , الفقراء , الطيبون , والوطن .. وعندما يتفقون كذلك يدفع الثمن الفقراء والوطن .. قضيت بينكم أياماً أعتقد ولو لم تحبوني ولم تثقوا بي , كانت ذات فائدة لنا جميعاً تناقشنا وركضنا وحفرنا وأكلنا سوية .. وأعتقد أنني نجحت بالامتحان التحريري أمام من علمتني استخدام السلاح وأؤكد لكم أنني لم أطلق إلا قذيفتين , أصبت بهما عدوي بمقتل , وغادرت لم أترك خلفي طلقة واحدة , وبشهادة هؤلاء الطاهرات أننا أتينا بسلاحنا وذخائرنا , ولم نتركها ليخف الحمل عنا , استخدمت السلاح في المكان والزمان الصحيح , أيها

الأصدقاء صار بيننا خبز وملح , وناجي لا يخون ولا يفرط به , شكراً من كل قلبي وأرجو أن تسامحوني على أي خطأ أو هفوة بدرت مني

(37)

أنا ..

ذلك الرجل

الذي ,

بح نايه

فوق ريح ..

لا .. تشبه

صداه

أنا ذلك الرجل

الذي ,

نثر أغانيه

فوق دروب ..

لا تشبه

مقلتيه ومعناه

أنا ..

ذلك الرجل

الذي .. لوّن ..

أبواب الصباح

بجمر موال ..

بشمس ..

وقمر ..

وإله

أنا ..

ذلك الرجل

الذي ,

رسم وطنا

يشبه وجه أمه

وجه سعدا

وحفنة مطر

تحبر حدود

مداه

أنا ..

ذلك الرجل ..

الذي يلملم أوراقه

ليخيط منها كفنا ..

تبرد جمر

هواه

هذا ..

ليس وطني

ولا الأهل أهلي

كسرت اليراع

وسال .. كدمع أمي ..

جواه

والدتي الحبيبة ...

ملأ هذه الليلة الصمت .. صمت القبور كأن الجميع أحس بنوع من الخجل , لم أنم كل الليل , مع بزوغ

الفجرخرجت وجلست تحت شجرة السنديان , وإذ بسوسن تخرج من بلوكوس البنات وتبعتها البنات

: صباح الخير

: صباح الورد

: لم تنم أليس كذلك ؟

: لا .. نمت .. ولكن استيقظت باكراً أريد أن أرى الفجر هنا لآخر مرة

: باين !!

: ما رأيكن أن نذهب إلى شرفة الوادي .. أريد ان أودع فلسطين لآخر مرّة

: أتسمح لنا أن نذهب معكما ؟ سألت غادا

: أنا قلت ما رأيكن .. لمن يريد

: أنت حزين ؟

: جداً يا إيمان .. جداً

: ألن تدعنا نراك مرة أخرى ؟

: من جهتي أحب إلى قلبي وروحي أن أراكن دائما يا إيمان .. لا أدري .. لا أعتقد أنني سأعود إلى هنا مرة ثانية

: إن اعتذر الشباب عما حدث بالأمس ألا تبقى ؟

: أولاً .. لن أقبل أن يعتذروا .. هم لم يخطئوا .. هم عبروا عن هواجسهم وأرائهم وهذا حقهم لم يستطيعوا قبولي .. يا غادا الرائعة كفلسطين .. موروثنا ثقيل جداً أيتها الغالية , وليس بالأمر السهل التخلص منه و(قادتنا ومفكرونا) وضعي حول هاتين الكلمتين مليون قوس , سقوا هذا الموروث بدموع عيونهم لأنه يخدم وجودهم , هؤلاء يركبون على أعناقنا بهذه التناقضات وهذا الموروث , قرأت مرة أن رجلا ذهب إلى المقبرة ليقرأ الفاتحة على قبر أبيه وهو في طريقه إلى قبر والده وجد رجلاً يجلس عند ضريح دارس ويبكي بكاءً مراً , تعجب الرجل .. القبر دارس تقريباً وليس حديثاً والرجل ليس متقدما في السن فسأل نفسه ما هذا الوفاء .. عادة الناس تبكي موتاها حديثو الموت ثم ينسون , وهذا الرجل يبكي عند قبر دارس , فوقف بجانبه وألقى عليه السلام وسأله

:لمن هذا القبر الذي يبكيك ؟

: إنه قبر الصحابي الجليل حجر بن عدي رضي الله تعالى عنه

زاد استغراب الرجل

: ما باله ؟

: قتله الصحابي الجليل معاوية ابن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه

زاد استغرابه

: ولماذا قتله ؟

: لأنه رفض أن يسب الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه

نظر إليه ودمعت عيناه , فسأله من كان يبكي عند قبر حجر

: وما يبكيك أنت ؟

: والله أبكي عليك رضي الله تعالى عنك

هكذا نحن أيتها الغالية لا نستطيع فرز الغث من الثمين , كلنا مصابون بعمى الألوان .. تفضلوا من يريد

: أنا سأغلي ابريق شاي وألحق بكم

: شكراً.. دائما يا إيمان النقية كاسمك

جلسنا تحت السنديانة المعمرة .. كان الفجر بدأ ينشر مناديله فوق حواكير وبساتين الجليل وبعض جدائل الشمس أخذت تسقط فوق الهضاب البعيدة , لوح لنا هزاع

من المحرس
: صباح الخير

: صباح النور .. الشاي قادمة

صبت إيمان الشاي وجلست , وماهي إلا دقائق حتى ظهر في الأفق سرب طيران كانت تبدو كالغربان قادمة باتجاهنا .. وقفت وصرخت بكل ما أوتيت .. غارة .. غارة .. التصقن بالأرض .. التصقن بالأرض .. هيا ..هيا , ماهي إلا دقائق وربما ثواني إلا والانفجارات هنا وفي الجبل المقابل والدخان يملأ المكان نهضت سألت البنات اللواتي كن يلتصقن بي
: كلكن بخير

: الحمد لله

هرعت مسرعا نحو المحرس حيث أحد الصواريخ رأيته بأم عيني يسقط على مقربة منه , عندما وصلت كان المحرس كومة من حجارة ناديت هزاع .. هزاع .. هزاع , سمعت أنين وصوت خفيض وبدأت كالمجنون برفع الحجارة عن هزاع .. عندما وصلت إليه كانت الدماء تلطخ وجهه وثيابه

: لا تخف انشاء الله انت بخير ساعدني

سحبته بصعوبة ومسكت يديه فأحسست أنهما مكسورتان فنمت بجانبه

: ساعدني يا هزاع حاول معي لأحملك يلا يا هزاع

في هذه اللحظة كانت البنات قد وصلت فرفعنه فوق ظهري ونهضت به ومشينا بين أشجار السنديان المتباعد , عادت الطائرات مرة أخرى فصرخت بالبنات اهربن بسرعة بين الأشجار .. بسرعة .. طغى هدير الطائرات على كل شيء ,حاولت بكل طاقتي أن أسرع , كانت الصخور الناتئة تعيقني ووزن هزاع , انتبهت على صياح سوسن , تحاول مساعدتي وتثبيت هزاع ألا يقع عن ظهري وتقول له

: تشبث بعنقه .. تشبث بعنقه

سوسن لم تكن تدري بعد أن يدي هزاع مكسورتان بل شبه مطحونة , كنت أسمع أزيز رصاص رشاشات الطائرات وهي تمر وترتطم بالصخور , أحسست بقطعة نار دخلت من ظهري وخرجت من صدري , تلمست صدري.. شيء ساخن كان يخرج منه نظرت في كفي .. دم يلطخ كفي , وضعت يدي مرة أخرى كان الدم يتدفق من صدري بقوة .. صحت بسوسن بصوت مخنوق أنا أصبت يا سوسن اسرعي إلى الشباب ليأتوا وينقذوا

هزاع لا أدري إن كنت أستطيع الوصول به إليهم , انطلقت كالمجنونة وهي تنادي

: اسرعوا .. إلينا .. هيا .. هزاع وناجي أصيبا .. هيا ..

كان صوتها يملأ الكون بعد أن غادرت الطائرات , لحظات وأتى الجميع أنزلوا هزاع وحملوه , نزع خالد سترتي ومزق القميص الداخلي و لفه علي محاولا اغلاق فوهة صدري ولكن دون جدوى , قلت له ضع راحتك على ظهري واغلق فتحة الظهر وأنا أضع راحتي هنا وأغلق فتحة الصدر .. حملني الشباب وسوسن بالرغم من رفضي , كانت سوسن تصرخ وتبكي – لا تخف .. لا تخف .. أنت بطل .. ستنجو إكراما لأم ناجي .. إكراما لسوسن .. ولأجل فلسطين , عند باب البلوكوس وضع الشباب القطن واللاصق وأغلقوا الفتحتين وحملونا إلى أول السفح حيث السيارات كانت متوقفة , طلب هزاع ممن يحملونه أن يقربوه مني

: ناجي أنا لا أستطيع تحريك يدي , كنت طوقتك وعانقتك .. ناجي ربما سأموت ..أنني أراه .. قبل أن أرحل سامحني قبل أن نغادر .. سامحني يا ناجي أنت ضحيت بنفسك من أجلي .. سامحني ربما نلتقي عند إله لا يضيع عنده شيء ساندني الشباب واقتربت منه ضممت وجهه الملطخ بالدم و قبلته

: أنت سامحني .. لم أكن قويا بما يكفي .. كنت أسرعت أكثر وكنت تفاديت هذه الرصاصة التي اخترقتك واخترقتني

وضعوني في المقعد الخلفي أنا وسوسن وضعت رأسي في حضنها وراحت تنظر إليّ وتبكي بحرقة وقاد خالد السيارة وجلست بجانبه غادا , أحسست الارتخاء يدب بي كالنعاس وألم فظيع في بطني وفي صدري وصرت غير قادر على تحريك أطرافي

: سوسن

: نعم يا روح سوسن

: في جيب سترتي رسالة هي لأمي وفي حقيبتي ظرف فيه كذلك أوراق ضعي هذه في الظرف وسلميها لأم ناجي .. قولي لها هذا الظرف ضعيه في نفس المغلف الذي معك وهي تعرف لمن ستعطيه إن كانت سهت ولا أعتقد أنها ستسهو هذه لسيدة أسمها جمانة .. أسمعتني جيداً يا سوسن ؟

: سمعت

: معك قلم وورقة ؟
: لماذا ؟

: أكتبي ما سأمليه عليك

: غادا .. من التابلو اعطني أي ورقة وقلم .. : : ماذا سأكتب ؟

: شاب اسمه يوسف ينادونه جوزيف يعمل في أفران انطلياس الحديثة .. أول شخص تذهبين إليه وتخبريه , قولي له ناجي يؤمنك أن تدفنه في الدغلي هو يعرفها وأمي سحاب تعرفها وسمعان سيساعدكم بذلك أخبري الرفيق سمعان أنني أريد هذا المكان , لا أريد الذهاب إلى اللاذقية , ثم اذهبي إلى أمي بلغيها أنني حزين لفراقها , وحزين أكثر لأنني كذبت عليها , وأخبريها أنني أحبها جداً جداً , وأخبري أبو جورج وأم جورج وقولي لهما نِعمَ الأب والأم هما .. اكتبي يا سوسن

: أسرع يا خالد أسرع .. ناجي لم يعد يتكلم

: سوسن .. إلى صور أو صيدا ؟

: الأقرب يا خالد .. الأقرب .. ناجي يجب أن يعيش .. يجب .....

: هوني عليك يا سوسن .. بكائك قد يقتله .. أنا متأكد أنه يسمع نحيبك

: يا خالد .. آخ يا خالد .. ارتخت يداه .. واصفر وجهه وعيناه مغمضتان .. افتحهما يا ناجي .. دخيلك أفتحهما .. دعني أراهما .. دعهما يكلماني .. أنا أفهم عليهما .. افتحهما يا ناجي .. أنا أقرأ فيهما كل ما تريد قوله .. يا ناجي .. دخيلك .. أنا أحبك .. أيها الطاهر .. أيها النبيل .. أيها النظيف .. أيها العاشق الصغير .. أنا أحبهما .. افتحهما .. أنا أجيد قراءة رسائلهما .. كرمى لأم ناجي التي سرقتك من حضنها افتحهما .. داخلة عليك .. ابق .. ابق .. أنا أحبك

: اقتربنا يا سوسن .. اقتربنا .. اصمتي إكراما لناجي .. أنت تقتلينا جميعاً ليس هو فقط .. أنا لا أرى الطريق أبوس قدميك اصمتي .. لم أعد أرى أمامي

أسرع خالد .. ولكن ناجي سكت .. صرت أتلمس يديه ووجهه وضعت فمي على فمه وأمام أنفه .. ما زال يتنفس ولكن ببطء شديد , صرت أقبل شفتيه لعلي أعيد إليهما بعض الحرارة , غادا كانت تنظر إلي بين الحين والآخر صامتة وعيناها غارقتان بالدموع ووجهها مبلل تماماً وخالد ينظر من مرآة السيارة وهو يمسح بين الحين والآخر دمعه , عندما وصلنا إلى صيدا كنت ما زلت أحس ببعض النبض وعلى باب غرفة العمليات ودعت ناجي .. ضممت رأسه إلى صدري سامحني يا ناجي ..

تمسك بالحياة لأجلي .. لأجل أم ناجي .. لأجل الذين يحبونك .. لأجل الذين أخطؤوا بحقك .. أعطهم فرصة للاعتذار , سحبوه من بين يدي وأغلقوا غرفة العمليات وما هي إلا لحظات حتى كان هزاع وصل ناداني

: سوسن .. اخبريني .. اخبريني .. كيف ناجي لم أستطع الإجابة

: إن شاء الله خير مازال حياً انتبه أنت لنفسك .. أجابه خالد بصوت متحشرج

: خالد اعطني مفتاح السيارة

: أذهب معك حيث تشائين

: لا أبقى هنا

ونحن نتكلم خرج طبيب

: من منكم زمرة دمه (o) ايجابي نريد دم وبسرعة

: أنا - أجبت بسرعة - أنا ..

ودخلت خلفه بسرعة لم أسمع ماذا قال البقية عندما خرجت كان بهو الاسعاف يغصّ بالمتبرعين وغادا تقف جانباً وهي تبكي بحرقة .. غمرتها بقوة ..

: كل هؤلاء وأنت استطاعوا أن يقدموا لناجي شيئاً إلا أنا .. لم أستطع حتى غمره وتوديعه

: سيعيش وستغمرينه يا غادا

: أرجو ذلك .. يا رب

: احساسك يقول غير ذلك ؟

لم تجب .. زاد نحيبها , تركتها وغادرت عندما وصلت إلى نباية ونزلت من السيارة انتبهت أن ثيابي ملطخة بدم ناجي وعن الشرفة رآني سمعان أسرع لملاقاتي

: وهو ينظر إلى ثيابي .. ما الأمر .. أنتم من قصفتم .. كيف ناجي ؟

لم أتمالك نفسي .. لم استطع الكلام

: اهدئي .. اهدئي .. أين ناجي ؟

بعد دقائق كانت العائلة والجيران قد اجتمعوا حولي

: في مشفى صيدا .. أنت أول من أخبره .. هو طلب مني أن أخبرك قبل أن يغيب عن الوعي

: أين اصابته ؟

: طلقة أو شظية دخلت في جسد هزاع الذي كان ناجي ينقذه .. دخلت بهزاع إلى ظهر ناجي وخرجت من صدره

تركني ودخل بيته , وأنا تركت الجميع وغادرت إلى انطلياس

: مرحبا

رد وهو ينظر إلى ثيابي بدهشة : أهلاً

: أخي دعك من ثيابي .. أرجوك لديكم عامل أسمه جوزيف أو يوسف ناده أريد أن أكلمه

: يوسف انتهت واردیته وذهب إلى بيته

: هل تعرف بيته ؟

: ما الأمر ؟

: قريب له مصاب وأريد أن أخبره

: ناجي ؟

: هل تعرف ناجي ؟

: لا .. ولم أره أبداً ولكن كل من يعرف جوزيف يجب أن يعرف ناجي .. انتظريني سأطلب اذنا من المعلم ومن زميلي وأعود إليك .. أنا أعرف بيته

لحظات وعاد وهو يقول لزميله – دقائق أدلها وأعود –

في أول حارة الغوارنة كان يسكن يوسف .. عندما رآني تغيرت ألوانه

: من أنت ؟ ما الأمر ؟

: أنا سوسن .. ناجي أصيب .. يا ريت تساعدني لإخبار أمه ونأخذها معنا هذه وصيته لي أن آتي إليك أولاً .. ولكنني خالفته قليلاً فقد ذهبت إلى الرفيق سمعان أولا .. هو في مشفى صيدا

نظر إلى الشاب

: سهيل .. تصرفوا .. اخبر الخواجا أن أخي الصغير في المشفى .. اخبر أبا فادي هو يتدبر الأمر

: بالسلامة معلم جوزيف .. نحن نتصرف

: أوصلك ؟

: لا .. لا .. أنا أذهب بطريقتي

عندما رأتنا أم ناجي لم تنطق بكلمة واحدة وسقطت جثة هامدة , حاولنا إيقاظها برش الماء .. أغرقناها ولكن دون جدوى

: جوزيف نحن ذاهبون إلى المشفى في كل الأحوال ما رأيك كي لا نتأخر أن نحاول إيقاظها في السيارة ونحن في الطريق

وافق فوراً حملنا أم ناجي ووضعناها في المقعد الخلفي وجلس جوزيف جنبها ووضع رأسها فوق فخذه وبدأ يلطمها على وجهها ويرش عليها الماء .. كانت تتنفس ولكن دون حراك , وصلنا إلى المشفى وهرع إلي الشباب وطلبتُ منهم مساعدتنا بنقل أم ناجي حملوها إلى غرفة الإسعاف وجاء طبيب وطلب نقلها إلى غرفة العناية الفائقة .. وضع لها الأكسجين وأعطاها منعش .. صحت .. ونظرت إليّ ..

: ناجي مات ؟

وغابت مرة أخرى , أخذها الأطباء والمسعفون من بين أيدينا ودخلوا بها سألني سمعان ودمع عينيه ينهمر كالمطر

: من هذه يا سوسن ؟

: إنها أم ناجي .. هل علمت شيئا ؟

: الوضع صعب .. صعب جداً

صار وجه جوزيف أصفراً كالشمع طلبت من أحد العمال ماءً فجاء به بسرعة ناولته لجوزيف

: اشرب .. اشرب

بعد ربع ساعة خرج أحد الأطباء وسأل

: من مع السيدة التي دخلت منذ قليل ؟

: أجبنا أنا و جوزيف وسمعان بصوت واحد .. خير دكتور ؟

: تريد سوسن

: حاضر

دخلت كانت ما زالت تحت الانعاش

: ناجي مات ؟

: يا خالة .. ادعي له .. هو في خطر .. ادعي له .. دعواتك متصلة بالإله

: انتهى كل شيء يا بنيتي .. لا نفع للدعاء ..

قالت ذلك وسكتت , أعاد الطبيب الأكسجين وطلب مني الخروج سألته عن الجرحى

: أحدهم بخير والثاني لا أمل أقترح أن تجهزوا أنفسكم للقيام بواجبه

عند الباب كان سمعان وجوزيف ينتظرانني .. ما الأمر ؟

: أم ناجي في خطر سألتني إن كان ناجي مات .. قلت لها أدعي له دعواتك متصلة بالإله .. أجابتني .. انتهى كل شيء لا حاجة للدعاء , سألت الدكتور عن حالة الجرحى قال لي أحدهم بخير والثاني أقترح أن تجهزوا أنفسكم للقيام بواجبه

: أنا سأغادر الآن لإعلام القيادات الحزبية وأعود لا أتأخر

: رفيق سمعان .. أرجو أن تسمعني جيداً .. آخر ما قاله لي ورأسه في حضني .. أكتبي كي لا تنسي .. ابلغي الرفيق سمعان وجوزيف (يوسف) أن يدفناني هنا لا أريد الذهاب إلى اللاذقية .. ادفنوني في الدغلة جوزيف وأمي سحاب يعرفانها

: أين الدغلة لم أفهم شيئاً

: أنا أعرفها .. هي غابة الصنوبر الصغيرة قرب نبع الفوار , كان ينام فيها عندما أتى إلى هنا .. ممكن ذلك يا رفيق سمعان ؟

: لو كان أوصى أن أدفنه في بيتي سأفعل ولو كلفني ذلك حياتي وغصّ وأشاح بوجهه وغادر وهو يردد لن اتأخر

: يا أخت سوسن ما رأيك أن نخبر بعض أبناء ضيعته ؟
أنا لا أعرف عن ناجي أي شيء خارج حدود روحي وقلبي , ولا أعرف بالضبط ضيعته .. ناجي التقيته هنا وصار ابني وأخي وصديقي ورفيقي – وصار يجهش – كنت أحلم به كما تحلم الأم والأب بابنهما وفجأة ظهرت الأم سحاب قال لي أنها أمه .. سألته هذه والدتك .. أجابني قلت لك أمي ولم أقل والدتي , وبقيت هذه الأم التي أودى بحياتها الآن , وأعتقد سيودي بحياتي أنا كذلك , هذا الفتى المظلوم سيبقى حرقة قلبي وروحي ما بقيت حياً

: يا جوزيف ما الفرق بين الأم والوالدة ؟

: والله لا أعرف .. أكيد هناك فرق .. ناجي صغير في السن ولكنه موسوعة في كل شيء .. يذهل كل من يلتقيه

: أين سنجد أقرباءه ؟

: هم ليسوا أقرباءه , أبناء ضيعته , ولم يكن يتصل بهم كثيراً إلا واحداً .. أبو كامل .. أبو كامل كان يحبه ويحترمه .. يقف دائما على زاوية قريبة من الفرن الذي أعمل فيه ما رأيك أن أذهب إليه الآن وأخبره وأرى رأيه ؟

: أذهب معك , دعني أترك خبراً عند خالد

كان خالد يجلس على مقعد في بهو المشفى

: خالد .. أنا سأغادر قليلاً وأعود لن أتأخر

أومأ برأسه وأطرق مرة أخرى في الأرض

رحب بنا أبو كامل , الرجل الخمسيني بابتسامته الطيبة

: أهلاً وسهلاً ..ُمراني ؟

: عم أبو كامل أنا يوسف وهذه الآنسة سوسن

حدق في يوسف مرة أخرى

: أهلاً أبو الزوز .. تذكرت .. أنت جوزيف رفيق ناجي أهلاً وسهلاً

: صحيح

: ما الأمر يا ولدي ؟

: عمي أبو كامل سمعت بالغارة الإسرائيلية اليوم ؟

: لا يا ابني الحقيقة أنا لا أسمع أخباراً أبداً

: عمي ناجي

: ما به ناجي ؟

: عمي اسمعني للأخير .. ناجي كان في الجنوب مع الفدائيين , أغار الطيران الإسرائيلي عليهم ,أصيب ناجي ووضعه خطير .. خطير جداً .. وأنا لا أعرف عنه .. أقصد عن أهله شيئاً , ما أعرفه منه أنك بمثابة والده وكان يحبك ويثق بك جداً لذلك جئت إليك

صفن لثواني وقال

: لا أعرف ماذا أقول لك يا بني , ناجي لا أهل له .. لديه أقرباء هجرهم من زمان ولا يقترب منهم أبداً

صعقت أنا وجوزيف وتبادلنا نظرات الدهشة وتابع جوزيف

: كيف لا أهل له ؟

: من الآنسة ؟

: لا وقت للأسرار يا عم أبو كامل .. سوسن رفيقته مثلي وأكثر ولكن لا نعرف عنه شيئاً .. أقصد عن الأهل

: يا ولدي منذ أكثر من عشر سنوات .. بل أكثر بكثير .. وفي أحد الشتاءات القاسية , كان لأهل ناجي بيت ترابي كبقية بيوت الضيعة , من شدة الرعود والأمطار سقط عليهم البيت , لم ينج منه إلا طفل صغير كان عمره سنة أو أكثر قليلاً , انتشله أهل الضيعة من بين الأنقاض ,

والبقية كانوا أمواتاً , هذا الطفل هو ناجي .. وأطلق عليه الناجي وبقي له الاسم هكذا

زاد قهري وأحسست بسكاكين تمزق جسدي ولم أعد أستطيع تمالك نفسي , نظر الرجل إليّ والدموع تملأ عينيه

: يا ابنتي .. لناجي قصة لا يستطيع البشر سماعها , فوق طاقة التحمل , لا وقت لسردها الآن

سألته : عمي أبو كامل .. أم ناجي من هي إذاً .. هي الآن ترقد قربه في المشفى بين الحياة والموت لمجرد أنها رأتني .. صرخت مرة واحدة وسقطت .. وهو أوصاني بها

: والله يا بنتي لا أدري .. أنا ذهبت من فترة لأطمئن عليه وجدتها في بيته , سألتها أليس هنا بيت ناجي قالت لي نعم , سألتها من حضرتك , قالت لي أنا أمه لم أسألها يومها كي لا أحرجها , وأوهمتها أنني مجرد صديق مثل جوزيف , وقلت عندما أراه أسأله , ومن يومها لم أره

: عمي .. لقد أوصى سوسن التي كانت معه إن مات أن يدفن هنا ما رأيك ؟

: يا بني حتى ولو كان أهله موجودين وصية الميت تحترم عند كل الناس .. ماذا قال لك يا بنتي ؟

: قال لي ادفنوني في الدغلة إن مت

: هل تعرفون المكان ؟

: أنا أعرفها .. هو المكان الذي كان ينام فيه في الغابة الصغيرة قريبة من رأس النبع قبل أن يجد بيتا , المكان قريب من بيته الآن

: يا بني وهل سيسمحون بدفنه هناك ؟

: وصيته كانت موجهة للرفيق سمعان وهو تكفل بتنفيذها

: أين هو الآن ؟

: في مشفى صيدا
: ناجي مازال على قيد الحياة أم استشهد ؟

: تركنا المشفى وهو على قيد الحياة ولكن الطبيب قال لنا لا أمل

: أنا سألحق بكم إلى هناك

ودعناه وغادرنا وأنا اتجه شرقاً سألني جوزيف مستغرباً

: إلى أين ؟

: إلى العم أبو جورج وأم جورج سأنفذ كل ما قاله , كانت كلماتي غير مفهومة من الدموع والغصة

قال بصوته المخنوق

: يجب أن نكون أقوى من المصيبة

وأنا أفتح باب السيارة وقف أبو جورج وقال لي

: قلت له .. لم يسمع مني .. هذه الأحزاب لا يأتي منها إلا الخراب - وتابع وهو ينظر إلى ثيابي الملطخة بالدم - هو بخير أليس كذلك ؟! هو بخير ؟!

: هو بخير يا بنتي ؟ سألتني أم جورج

خانني الكلام وأحسست أنني سأقع , فتولى جوزيف الكلام

أدار لنا ظهره ودخل إلى الدكان , وأطرقت أم جورج في الأرض وصمتت صمت الموتى , أحسست كأنهما يقولان لي أنت من قتله , لم يسمحا لي أن أقول لهما وصيته , عندما وصلنا إلى المشفى كانت باحة المشفى تغصّ بالناس يحيطون بالرفيق سمعان .. اقتربت منه

: هل من أخبار ؟

: لا .. لا أخبار سوى أنه في حالة خطرة

: ذهبتُ إلى أبو كامل , هو من ضيعته وأخبرته

: أعرفه هو رجل طيب

: لديه أخبار عن ناجي غريبة
: عرفتها .. مررت عليه بعدكم بلحظة .. يا سوسن .. نحن أهل ناجي ..السوريون في كل مكان هم أهل ناجي .. ناجي ابن كل السوريين وكلهم الآن يبتهلون للرب أن ينجو .. يا سوسن دماؤنا وديعة الأمة فينا حين تطلبها نقدمها غير جزعين غير نادمين .. ناجي هذا الشاب الصغير , بمليون رجل , لم أشعر يوماً وأنا أكلمه إلا أنني أصغره بخمسين سنة .. ناجي بحر من المعلومات , صادق , وفي , نبيل , أنيق , لطيف , دائماً كنت استحي منه , كنت أجزم أن وراء الحزن الذي يملأ عينيه قصصاً

ذهبت أنا وهو وجوزيف باتجاه غرفة العناية

: مرحبا دكتور ما الأخبار ؟

: الحقيقة من لحظة كنت أسأل عنكم .. المرأة العوض بسلامتكم .. توفيت , هي في البراد وبإمكانكم استلامها متى شئتم

سأل سمعان
: والشباب ؟

: أحدهم بخير وتحسن جداً وبإمكانكم رؤيته , والثاني بين يدي رب العالمين

دخلنا نحن الثلاثة إلى غرفة هزاع , الجبس حتى عنقه سألني والدموع تملأ عينيه

: كيف ناجي ؟ اخبريني ؟ هو بخير أكيد ؟

أجابه سمعان .. إن شاء الله .. أن شاء الله .. الله يشفيك ويعافيك

: خذوني إليه .. أريد أن أراه .. لماذا لا تضعونا سوية ؟

: ابتهل لله أن ينجيه

: سوسن .. اخبريني .. قولي لي الصدق عن ناجي ؟

قررت أن أقول له الحقيقة بكل صدق

: ناجي في خطر يا هزاع .. في خطر كبير لم يصح

: والله أنا السبب .. سامحني ناجي .. سامحنا كلنا .. نحن لا نستأهلك .. أنت أفضل منا جميعاً , نحن كنا كلاباً وتافهين معك وبالرغم من ذلك ضحيت بنفسك لتنقذني , وأنا كنت رأس الحربة في بغضك والتحريض عليك .. لو سامحتني أنت لا أعتقد أن يسامحني الله , وأنا لن أسامح نفسي أبداً

: لا وقت لهذا الكلام يا هزاع .. الآن المهم أن تكون بخير وادع لناجي أن ينظر الله به لأجلنا جميعاً نراك بخير , نحن قريبين منك

: لا تتأخري عليّ اخبريني عنه أرجوك يا سوسن

ونحن خارجون سألني سمعان

:كأن هناك أحداث لم تخبريني عنها

: نعم .. هناك أشياء كثيرة يجب أن تعرفها ولكن لا أعتقد أن وقتها الآن

أصر سمعان أن أقص له وبالتفصيل الممل كل شيء , سردت له الحكاية من أولها إلى لحظة الغارة , بحضور الصبايا وخالد وجوزيف وقلت لخالد

: خالد أرجو أن تعقب على أي شيء سردته ليس صحيحاً

: لم تقولي إلا الصدق بل جمّلتِ كثيراً من القباحات التي صارت

: لم يخبرنا أحداً أن عملية عشتار كان يقودها ناجي .. لماذا ؟؟!! والله العظيم أنا شعرت من لحظتها من اسم العملية أنها تخصنا .. لماذا ؟!!! أما كان من الحق أن

نكرم ابننا قبل أن يستشهد .. لماذا ؟!! .. لماذا أيها الثوار العظام ؟!!

كانت علامات الدهشة والغضب بادية على وجه الرفيق سمعان

في الصباح امتلأت باحة المشفى بوفود من كل الفصائل الفلسطينية كانت علائم الجفاء بادية على السوريين القوميين وعلى رأسهم الرفيق سمعان , عند العاشرة خرج أحد الأطباء الذين أتى بهم الحزب ورفع صوته

: أيها الرفقاء .. (الدماء التي تجري في عروقنا عينها ليست ملكنا ، هي وديعة الأمة فينا متى طلبتها وجدتها)

أيها الرفقاء هذه الروح وديعة الأمة فينا متى تطلبها نقدمها بغير منة .. أيها الرفقاء .. الرفيق ناجي أعاد لأمته الأمانة .. الرفيق ناجي استشهد

زغردت غادا .. زغردت .. وبقيت تزغرد حتى سقطت وهرع إليها الرفاق لإسعافها .. أنا كنت أرى الحب العاصف في عينيها لناجي , لدرجة صرت أغار منها , عندما اسعفنا ناجي حاولت أن تكون هي من يجلس معه في المقعد الخلفي , ولكنها تراجعت أمام صراخي وجنوني ودموعي , جلست في المقعد الأمامي وبكت بصمت لم تتفوه بكلمة واحدة , وفي الحقيقة كل البنات كنّ يحاولن

لفت النظر , ولكن ناجي كان يشعرنا جميعاً أننا في مقعد واحد بالنسبة له , كان يشعرنا بحبه الحنون اللطيف الأنيق لنا جميعاً .. غادا كانت أجرأ الجميع بعدي .. أنا كنت أشعرهن .. قاصدة .. أن ناجي ليس لأحد منهن .. أن ناجي في وادي آخر .. وقفنا جميعاً في وجه الشباب وأعتقد أن ذلك سبب لناجي الكثير من الكره من الشباب , اتجه الموجودون نحو الرفيق سمعان ورفاقه , الذين كانوا قد وصلوا قبل دقائق , وأعتقد كان بينهم قيادات عليا في الحزب ؛ ليقدموا التعازي نادى سمعان مجموعة من الشباب

: اسمعوني جيداً أريد أن تنتشر الملصقات في كل لبنان .. جورج هذه مسؤوليتك أنت فنان تشكيلي .. أريد الملصقات للعريس وأمه .. للشهيد وأمه .. زفه يا جورج .. نعوة ناجي .. أريدها إعلان زفاف .. الموكب عرس ناجي بعد غد من هنا إلى انطلياس سيذهب معكم الرفيق جوزيف ليدلكم على مكان الدفن .. الرفيق يوسف بشارة سيكون معكم .. عُلِمَ؟

: رفيق معلومات الاسم

: ناجي سالم الشيخ ووالدته سحاب - والتفت نحوي – تذكرين نسب الوالدة

: رفيق سمعان لا تكتب والدته أكتب أمه

: وما الفرق ؟

: لا أدري .. عندما رأيتها سالته هذه والدتك سحاب أجابني .. لا .. هي أمي .. قلت له ممازحة .. هذا الاسم الجميل لأمك .. فما اسم والدتك قال بمنتهى الجدية.. راحيل .. يومها دهشت وسألته كيف ذلك .. أجابني يوما ما أقول لك ما الفرق وكيف ذلك .. وأتى هذا اليوم كما تراه , وبقية القصة صرت تعرفها , ولكن أنا للآن لا أعرف بصراحة الفرق ولا أستطيع التفريق بينهما , ولكن بالتأكيد هو كان يعرف

من بين الرفاق القياديين الذين كانوا يستمعون لحوارنا تقدم قليلاً وقال

: نعم هناك فرق , الوالدة هي التي تحبل وتنجب وهي تحمل الاسمين .. أما الأم فهي التي تربي .. التي تتبنى , وهذه لها الاسم الأخير وهو الأم – وتوجه بسؤاله للرفيق سمعان – كم عمر الرفيق الشهيد ناجي ؟

: أعتقد أقل من ثمانية عشر سنة ولكنه كان يصر على أن عمره أكثر من ذلك , وأخذ يسرد قصة ناجي على الجميع

انتبهت أن أبا كامل كان يقف بالقرب منا متنحياً قليلاً ودموعه تنهمر كالمطر

: الخلود لروحك أيها الرفيق .. خسارة

: رفيق جورج فهمت القضية ؟

: نعم .. نعم - وهو يبكي - فهمت كل شيء .. الأم سحاب؟ - وهو ينظر إلي -

: نعم سحاب

أخذت معي غادا وإيمان وسُميّة كونهن من مخيم فلسطين في الشام وغادرنا لننام عند أهلي .. كنت أعتقد أنني أكثر الجميع سيحزن على فراق ناجي , اكتشفت أنني كنت مثلهن فقط ويمكن أقل , سُميّة كانت كالجليد صامتة لم تتفوه بكلمة واحدة .. لم تبك .. لم تصرخ .. صمتها كان مرعباً , أمي تلك العجوز المريضة قالت لي همساً : يا بنتي خففن عن تلك الصبية ونظرت باتجاه سُميّة .. هذا النوع من الحزن قاتل

حديث أمي لفت نظري وضعت أمي قليلا من الطعام وقالت

: تفضلن .. الحياة ستستمر وكلنا سنموت إلا الشهداء فهم باقون ما بقيت الأرض والبشر

شجعت البنات وجلست إلا سُميّة لم تقترب حاولنا لم تجدِ محاولاتنا نفعاً وافقت أن تشرب الشاي وهي تقول بدون أي بكاء

: سأشرب الشاي عني وعن ناجي وغداً سأذهب لأرى ماذا حصل بالشاي الذي كنا نود شربه ولم نتذوقه , سأرى إن كانت كأسه ما زالت

بكى الجميع بما فيهم أمي وأبي إلا سُميّة بقيت صامتة , قلت لها

: غداً نذهب سوية هذا عهد

: إن أحببت .. أنا غداً سأودع التراب الذي تطهر بدم ناجي وبعد الغد سأودع ناجي وأمه التي لم تلده ولم تتحمل فراقه وأعود إلى الشام

سألت أمي بدهشة
: هل ماتت أمه ؟ وكيف لم تلده ؟

وسردّتُ قصة ناجي التي فاجأتنا جميعاً

: يا بنتي وهي ليست والدته

: لا يا أبي هي أمه كما كان يسميها

: وماتت ؟ !

: ماتت قبله

: ولم تره ؟!!

: لا .. لم تره .. آخر مرة أفاقت .. طلبتني بالاسم وسألتني .. مات ناجي .. قلت لها .. ادعي له يا خالة دعاء الأم متصل بحبل الله .. أجابتني لم يعد يجدي الدعاء يا بنتي وغابت .. بعدها لم تفق .. يا أبي قرب البيت الذي يسكنه هو وأمه سحاب رجل اسمه مخايل وزوجته ..أبو جورج من ضمن وصية ناجي أن أذهب إليه وأقول له أنهما أعظم أبوين في الكون , عندما ذهبت إليه نظر إلى ثيابي الملطخة بدم ناجي وقال - قلت له .. لم يسمع مني .. هذه الأحزاب لا يأتي منها إلا الخراب –وتابع وهو ينظر إلى ثيابي الملطخة بالدم ساخراً غاضباً حزيناً – هو بخير أليس كذلك ؟! هو بخير ؟! وسألت أم جورج - هو بخير يا بنتي ؟ - الموقف أخرسني , أدار لنا أبو جورج ظهره ودخل دكانه وأم جورج أطرقت في الأرض ولم يسمع كلمة واحدة مما حاول جوزيف أن يخبره إياه . بكت أمي وأبي بحرقة وقال والدموع والغصة تقطع كلامه

: يا ابنتي كلنا للموت استشهد الكثير وسيستشهد الكثير ولكن قصة هذا الشاب قاتلة

انتشرت قصة ناجي واستشهاده وموت أمه حزناً عليه , كالنار في الهشيم وصارت حكاية الناس في البيوت والشوارع والمقاهي , استفاقت أغلب المناطق اللبنانية على ملصق صممه الفنان التشكيلي جورج ماكدونيان .. في الأعلى وجه سعادة وسوريا وضمنه صورة لناجي باللباس العسكري يرفع العلم ونحن حوله , الصورة كانت في المعسكر في حفل الختام التقطها الرفيق سمعان .. تطوق رجليه متشبثة به امرأة تتماهى وتتوهى لتصير جزءاً من الأرض على أطراف الملصق نساء يلوحن بالمناديل التي تتحول إلى طيور , في الأسفل كتب .. الحزب السوري القومي الاجتماعي يدعوكم لمشاركتنا حفل زفاف ابنه ناجي سالم الشيخ ,الذي استشهد أمس على تخوم فلسطين الحبيبة وأمه سحاب التي رفضت أن يغادر وحيداً , ينطلق الموكب غداً في الثانية عشرة من مشفى صيدا إلى انطلياس قرب نبع الفوار , تقبل التبريكات في منزل أبوه بالتبني سمعان ناصيف في نابية لمدة اسبوع . أدهشنا الملصق جميعاً وإبداع هذا الفنان الرائع الذي قال - أنا لم أفعل شيئاً .. هذا ما لقنني إياه ناجي - عندما وصلنا إلى المعسكر كما وعدت سُميّة استقبلنا الشباب بمنتهى الحزن واللوعة , كان الصمت سيد الموقف .. صرنا كلنا سُميّة بصمتها , تبعناها جميعا حيث تابعت إلى شرفة الجبل حيث كنا نتهيأ لنشرب الشاي ونودع ناجي الذي

جهز حقيبته للمغادرة , كان أبريق الشاي مازال والكاسات كما هي اقتربت سُميّة من كأس ناجي وقد سقط فيها بعض وريقات السنديان شربتها وأخرجت منديلا من سترتها ولفت به الكأس وغادرت , تبعناها إلى بلوكوس البنات دخلت ضبضبت حقيبتها ووقفت قرب السيارة

: سوسن أنا جاهزة للمغادرة

دخلت بلوكوس الشباب وأخذت حقيبة ناجي وأنا أضعها في صندوق السيارة سألتني

: هل لي أن أمون عليك بشيء ؟

: أأمريني يا سُميّة

: افتحي حقيبة ناجي واعطني أي شيء .. أي شيء

بكى الجميع إلا هي .. بقيت صامتة , فتحت الحقيبة وقلت لها

: اختاري ما تريدين

توقعت ان تأخذ الشماخ (الكوفية الفلسطينية) وفي أطرافها نسجت الزوبعة أهداها له الرفيق سمعان , عندما ودعناه لفها حول عنقه وقبله وهز كتفيه – هذه هديتي لك .. هذه من رموز فلسطين – وكان يحبها جداً ونادراً أن

تراه بدونها , ابتهلت ألا تأخذها .. مدت يدها وراحت تفتش مسكت قميص قطن داخلي واخذته

: هذا .. شكراً

فتحت حقيبتها ووضعته فيها وأغلقتها ووضعتها في صندوق السيارة وانتبهت إلى الشباب

: سلموا على الجميع وبلغوهم اعتذاري عن أي شيء ازعجتهم به .. سلام

في الطريق سألتني غادا التي كانت تجلس بقربي همساً

: سوسن أريد أن أقول لك شيئاً

: تفضلي .. أهو سر ؟

: لا .. لا ليس سراً .. سترة ناجي الملطخة بدمه معي .. أخبرك كي لا تبحثي عنها

: تريدين الاحتفاظ بها ؟

: إن تكرمت علي

: يا غادا .. ناجي كان قطعة غالية من قلوبنا جميعاً .. ولم يكن ملك لأحد منا ربما سبقتكن بمعرفته ولكنه كان كأنه يعرفنا جميعاً وكأنه خُلق معنا .. أريد فقط ورقة موجودة في جيب السترة هي أمانة يجب أن أوصلها وكنت شاهداً

على ما قاله , كانت لأمه , الآن سأبحث عن صاحبة الحق بما أوصاني

: كنت أسمع ولذلك استأذنتك

: فقط اعطني الورقة , ومن يود الاحتفاظ بشيء , بأثر من ناجي هذا حق للجميع

في طريق العودة كانت الملصقات قد ملأت الطرق وقرى الجنوب إلى صيدا شاركت المنظمات الفلسطينية بملصقات خاصة بها , ومن باحة المشفى في صيدا إلى بيروت إلى انطلياس كانت الملصقات قد تضاعفت , عندما التقيت عصراً مع جورج الفنان الرائع والرفيق سمعان وأخبرته عن اندهاش الناس بما فعله قال لي جورج – صدقيني ما قاله لي ناجي الذي لم أره في حياتي ما فعلته هو قليل مما اوحاه لي .. الناس كانت تطلب من الشباب ملصقات ليعلقوها في بيوتهم , في جل الديب سألتني امرأة هل صحيح المرأة التي ستشيّعوها معه ليست أمه الحقيقة , قلت لها هي أمه ولكنها ليست والدته وشرحت لها ما كنت أنا أجهله قبل استشهاد ناجي وسألتني هل صحيح أنه يتيم وأنه أتى ماشياً من اللاذقية إلى انطلياس وكان ينام في الصنوبر عند رأس النبع وكان شاعراً وذا صوت جميل وكان يحفظ أغلب الكتاب المقدس والقرآن , الحقيقة لم تنتظرني هذه المرة ؛ لأقول أي شيء بل دمعت

عيناها وأخذت ملصقاً وغادرت , في بيت مري سألني رجل مسن يمشي على عكاز , هل صحيح إن الشاب كان يحمل رفيقه لينقذه أصابته رصاصة اخترقت فخذ رفيقه وخرجت من صدره , رفيقه نجا وهو استشهد ؟ واقسم لكم انه قال استشهد ولم يقل مات , قلت له الرواية حقيقية مئة بالمئة , فطلب مني ملصقاً وغادر وهو يتمتم , أما أبو جورج فهو حكاية اخرى تماماً , قال - أنتم مجرمون .. الغربة أخذت كل اولادي .. أرسله يسوع إلي ولداً بارّاً بي وبأمه حنّي .. أتيتم وفجعتموني به , بلغ الخواجا سمعان , وتلك الصبية التي تآمرت معه , وأخذا مني ناجي لن أسامحهما وسأبقى أدعو عليهما حتى أموت . جار أبو جورج الذي كان يسكن عنده ناجي معه ثلاثة أطفال سألتني البنت - عمو متى ستعيدون ناجي , جدو أبو جورج يقول أنكم أخذتموه - كان الرفيق سمعان مطرقاً في الأرض ولم يتكلم ابداً

(38)

في غيابك ....

يسهر البوح في أفئدة الحروف

ويفتح الجرح مقلتيه

وينفض الفينيق أكوام الرماد

ويمتص الرعاف أزهار الوريد

كلما دق الصباح ثلج الكروم

أفتح له أبواب خيباتي

وعلى شراشفه أبصق قروح أحلامي

وأغادر إلى دمعي المحموم

أفتح له شبابيك اختناقي

فيؤوب على مسامير وجعي

يكنّس عنها غبار الحياة

يشبشبها على عتبات جداول الرحيل

وكلما أفاقت ينابيع الشوق

أفتح لها أبواب جنوني

ودفاتر النسيان ودروب الطفولة

فتتهادى نوارسك على جمر الانتظار

أميرة على مخارج النشوة

ذا جنوني الدائم ،

أشعله ضجيج أطفالك ,

المصابين بالحمى

ها أقمارك تبلل نومي

وتوقظ سباتي ,

على ربيع أوقدتِهِ في يباسي

وها هو جنونك ينبش خبايا النسيان...

في بيداء وجعي

ويطوف نحلة ،

تصلي الحاضر فوق أبوابي

تؤذن للعصر قبيل المغيب .

يا أنت ....

وأنت ترسمين ملامحي بعد هذا الترحال

وأنت تختلسين النعاس من مواقدي

وريحك تعبق بشراعي

وحبرك يدلق خليجه لزورق كلماتي

ويفتح شبابيك اللهفة ,

يرفع الصهيل ...

: أشتاقكَ البوحُ ...

: أشتاقكَ ياسمينُ الروح...

: بنفسجُ جرودي يفوح ...

: أنا في سكرة الاخصاب ... لا تروح ...

: أنا أعاني جنون البوح

: عاشقة .. وصدق العشق جنون

: أنده ... نبضك المغامر

:أيها المبحر أبداً في اشتهاءاتي

:كلسعة النشوة ...أو الحب

:لا عقل لاشتهائي إليك .

أيتها الغارقة في جمر رمادي،

دروب الروح كالأفق فتحتها لريحك

عبّريها حبة القلب

واكتبي ,

" وأنت مثخن بالعودة والأمنيات

ها ..أنا عدت ,

محمومة بكل ما تشتهي)

جبل على صدري وانقباض في حلقي , ربما من الإقياء وقلة الطعام فنفسي لم تعد تتحمل رؤية أي نوع من أنواع الطعام , وتمسك ميشيل بسفري واصراره على ذلك .. الأهل جميعاً وقفوا إلى جانبه أبي قال لي - موقفك غريب .. الزوجة ليس فقط من ناحية دينية واجتماعية .. بل المنطق أن تكون الزوجة حيث يكون الزوج ,واعتراضك على السفر لا مبرر له وأنت التي كنت تنوين الطلاق لأنه يعيش في الخارج وعلى كيفه وأنت هنا وحيدة , ويومها بكل صدق كنت معك بالرغم من مطالبتي بالصبر , أما اليوم فلست معك أبداً ولكن لن أجبرك على شيء - كنت

قد حسمت أمري مهما كلف الأمر وغادرت إلى بيت اهلي حتى يرسى هو على بر .. منذ يومين وأنا أحسّ أن شيئاَ ما حدث , أيقنت أنه الشوق .. إنني بشوق إليه , يجب أن أراه ولو لبضعة دقائق وأخبره ما يحصل وأسأله رأيه , سأذهب إلى أبو جورج وأقول له إنني بحاجته وأبلغه أن ينتظرني غداً , أبلغت أمي وابنتي أنني أريد الذهاب إلى الدكتور , على جنبات الطريق كنت أرى الملصقات عرفت أنها للحزب السوري القومي , لم تشي لي بشيء على الاطلاق , اعتقدت أنها مناسبة احتفالية , على كوع قبيزي مفرق الفوار لا فتة كبيرة تقطع الطريق , الحقيقة لم أقرأ إلا كلمة واحدة / عرس / عندما أخذت الطريق إلى الفوار كان الأمر غير عادي على الاطلاق في الغابة الصغيرة كانت الأشجار مزروعة بالأعلام والرايات القومية والملصقات على جنب الطريق متلاصقة , تمهلت عند شجرة الصنوبر التي ينتظرني تحتها ناجي صبحتها وتابعت , وأنا أفتح باب السيارة أمام دكان مخايل كانت الصاعقة التي جعلتني أفقد القدرة على الحركة لوحة كبيرة يتوسطها .. ناجي .. نعم .. ناجي .. هذا وجهه .. هذه ابتسامته .. نزلت بهدوء .. كان أبو جورج وناس كثر أمام الدكان .. قرأت

الحزب السوري القومي الاجتماعي يدعوكم لمشاركتنا حفل زفاف ابنه ناجي سالم الشيخ , الذي استشهد أمس

على تخوم فلسطين الحبيبة وأمه سحاب التي رفضت أن يغادر وحيداً , ينطلق الموكب غداً في الثانية عشرة من مشفى صيدا إلى انطلياس قرب نبع الفوار , تقبل التبريكات في منزل أبوه بالتبني سمعان ناصيف في نابية لمدة اسبوع

مستحيل .. مستحيل .. يا يسوع دخيلك .. يا عدرا دخيلك .. أفقت والناس ترش عليَ ماء وأم جورج تمسح أنفي بالكحول ..

: الحقيقة أنا مرهقة قليلاً .. ما الأمر يا عم ابو جورج ؟

: نظر إليّ بحزن قاتل .. تريدن ناجي أليس كذلك ؟

: صمتّ

: كما ترين .. اليوم عرسه .. بعد قليل يصل .. اليوم يغادرنا عريساً إلى عالم آخر خال من الظلم .. نظيف مثله .. صادق مثله .. وفيّ مثله

ناولتني أم جورج قنينة ماء وهي تنظر في وجهي

: اشربي يا ابنتي اشربي

صرت أدعو في سري .. يا عدرا كوني معي .. كوني معي أنا الآن فقيرة إليك أكثر من أي يوم مضى يا عدرا ..

أنا في موقف كالموت .. اعطني القوة والصبر لأعود إلى البيت .. يا يسوع شمّلني بعفوك وسترك ومغفرتك ورضاك .. صرت أصلي وأنا في مقعد السيارة , أسند يدي على المقود بعد أن انفض الجميع من حولي إلا أم جورج التي تسألني

: يا ابنتي إن كنت غير قادرة على السواقة اتركي السيارة هنا واطلبي سيارة توصلك إلى بيتك

: الحقيقة أنا متعبة قبل أن أصل إلى هنا .. بعد قليل أصير أفضل وأذهب بنفسي

: ما رأيك أن تنزلي وتجلسي وتشربي شيئاً وتأخذي حبة اسبرين

وافقت ونزلت ومشيت خلفها بهدوء , اسعفتني أم جورج ببطء مشيتها تجاوزنا الكثير من الناس القيام والجلوس , الذين كانوا .. كأنهم ينتظرون وصول ناجي .. يتحدثون عن ناجي كلمة واحدة فهمتها من أحد الموجودين كان يرد على آخر - كيف أمه ونحن نعرف أمه واباه - .. الحقيقة أنا لم أفهم شيئاً , كان بالقرب من أبو جورج رجل كبير في السن وقف فوراً ليجلسني مكانه فرفضت فقام شاب وناولني الكرسي التي كان يجلس عليها .. نظر إلي أبو جورج

: هذا أبو كامل الطيب .. الذي أتى لنا بناجي ولكنهم أخذوه

: عم أبو كامل حدثنا ما الأمر ؟ ما هذا اللغو بين الناس هنا ؟

: يا ابنتي من فترة طويلة وناجي بلا عمل , كان يعمل بشكل متقطع , من فترة ذهب إلى معسكر مع القوميين بعدها عمل بشكل متقطع .. من اسبوعين ذهب إلى الجنوب مع الفدائيين وأمس استشهد وقبل أن يغيب .. أوصى رفيقته أن تبلغ الذين يحبهم أن يدفنوه هنا إن استشهد , ومن بين الناس الذين أوصى لهم .. أمه سحاب هكذا قالت سوسن .. وعندما رأتها سقطت .. تكلمت مرتين وماتت

: لم أفهم شيئاً يا عم أبو كامل أرجوك سامحني تكّرم علي واحك لي القصة بتفصيلاتها

: هناك سرّ كأنه سيذهب معه ومع هذه الأم التي اسمها سحاب التي لم تستطع تحمل فقدانه فماتت

: يا عم أبو كامل أنا أعتذر منك لعلك مللت من إروائك للقصة .. سامحني .. كلي سماع لك .. كأنه كان يحبك فإكراماً له أريد أن أعرف كل شيء عنه

: قال أبو جورج .. نعم كان يحبه ويعتبره كوالده

: يا ابنتي ناجي لا أب له ولا أم , ولا أخوة ولا أخوات له على قيد الحياة وسرد لي الحكاية

تقدم رجل في نفس سن ابو كامل

: يا ابنتي هذا الشاب كانت كل حياته ظلم بظلم , اخرجوه من بين الأنقاض , وصار يتنقل من ظالم إلى ظالم كل أقربائه كانوا ظلاماً .. كان أهل الضيعة أرحم عليه منهم , في عز الشتاء كان يبحث عن أي تنور خبزوا عليه لينام على مصطبته قرب جمره كي لا يموت من البرد , لم يترك شيئاً إلا عمل فيه , كان يقرأ مع أبناء عمره وحتى الذين أكبر منه .. كان يكتب لهم وظائفهم , كان يجيد القراءة في سن السابعة في ضيعتنا رجل ميسور الحال لديه كتب كثيرة فقد كان يهتم بالعلم كثيراً , وكان يحب ناجي ويعطف عليه , أحد المرات أقسم أمام كل أهل الضيعة أن ناجي حفظ وفهم كل ما لديه من كتب , وأنه قرأ كتب هو نفسه لم يقرأها بعد وأنه كان يقول له عن أسماء بعض الكتب ليشتريها كان يستخرجها من المراجع والفهارس التي كان بعض المؤلفين يضعونها في الهوامش وقال .. ناجي دفعني لأشتري عشرات الكتب لم تخطر ببالي , وأقسم إنه يحفظ أغلب الكتاب المقدس والقرآن غير كتب التاريخ والفلسفة وقال لأقرباء ناجي موبخاً .. هذا الولد .. يحلم كل ذي عقل أن يكون له ولدٌ مثله .. وأنا

أشهد وكل الذين من ضيعته وحتى الضيعة المجاورة .. نشهد أنه غادر هذه الدنيا الظالمة ولم يتفوه بكلمة واحدة تزعج أحداً وأقسم لك أن كل من يعرف ناجي سيبكيه أما الأم سحاب أنا أثق بما ذهب إليه ناجي وأنها كانت أم حقيقية ولا حاجة لدليل فالكثيرات ممن يموت أبناؤهن , يعشن بعدهم , أما سحاب فلم تستطع العيش بدونه فغادرت معه .. رحمكما الله .. كم كنت أباً وكم كنت أماً

بكيت .. بكيت وبكى الجميع ربما على بكائي وربما على المأساة .. بكيت وكانت حجتي الرواية والمأساة .. والله كنت أعرفك يا ناجي .. ولكن ليس لهذه الدرجة , كنت أعرف أنك بحر من الأسرار والأدب والذوق والحب

(39)

ناداهم النعاس

كان الوقت يغسل يديه

من ذبح يومٍ آخر

لا حظ خبراء الرحيل

نومهم العميق

فتحوا لهم نوافذ الأرض

سألناهم الانتظار ...

بعد قليل يصحون

كان الصمت يسدُّ المسامع

صمّهم كان أشد من هدير النار

لا تدعوا أحبابكم ينامون

يشيعونهم ,

لا تدعوا أحبابكم ينامون

رفاق الروح عندما يرحلون

يتظاهرون بالنوم

و يصدقهم الجميع

وتبقى وحيداً تتسلى بقهرك

لا تدعهم ينامون

حضرت وفود من كل الجهات الفلسطينية , كل بسيارته المزينة بصورة ناجي وشعارات الجهة والأعلام والرايات .. الكل تبنى ناجي .. كأن كل الكون سيشاركني اليوم عشقي لك .. اليوم رجتني أمي وأبي أن أغير ملابسي الملونة بدمك , العابقة برائحة أنفاسك , أقسم لك أنني كنت أنوي ونحن عائدين أن أقول لك إنني أحبك إنني أعشقك ..إنك رفيق روحي , اسرائيل تقتل كل شيء جميل في هذا الكون .. اسرائيل سرقت بيوتنا وأراضينا و أرواحنا وأحلامنا , في الساعة الثانية عشرة طلبت من الرفيق سمعان أن ندخل ونودع ناجي وأم ناجي للمرة الأخيرة

: دعي الصورة الأخيرة لناجي وأم ناجي في ذهنك يا سوسن .. كلنا نحسدك .. فأنت قضيت معه ومع أمه أكثر منا جميعا مجتمعين .. يا سوسن التوابيت اقفلت والرفاق ينتظرون الاشارة التي سأعطيهم إياها وبرفقتك الآن ليخرج تفضلي

عند الباب رفع يده فانطلقت صيحة مدوية وبدأت الموسيقى تعزف وخرج شباب القومي يرفعون التابوت الأول ملفوفا بعلم الحزب ومشوا بخطوة ثابتة أمامهم

الفرقة الموسيقية بين صفين من شباب الحزب يؤدون التحية وخرج التابوت الثاني وبدأت زغاريد الصبايا والبنادق تشق عنان السماء , وشق الموكب طريقه في شوارع صيدا باتجاه بيروت .. رُش الأرز والورد على ناجي وأمه من صيدا إلى انطلياس .. لم يمرّا في شارع لم تخرج الناس نساءً ورجالاً وشباباً وأطفالاً ؛ يرشون الأرز والورد ويلوحون بأيديهم نشف قلبي وأحسست أنني سأموت , أحسست أن شيئاً ما يخرج من أحشائي ويقف في حلقي , فأستعين بالماء الصبايا لم يسكتن عن النحيب الصامت طوال الطريق , لم تختلف بيروت عن صيدا في جل الديب أوقف الموكب أكثر من مرة .. استقبال الناس قتلني .. منظر الناس الذين خرجوا بشكل عفوي كان يذيب الصخر , عندما وصلنا إلى غابة الصنوبر وآخر الموكب لم يكن بائنا نهايته , كانت الغابة تغص بالعمال السوريين بمظاهرهم البسيطة , ووجوههم الحزينة المتعبة , وباللبنانيين بثيابهم الأنيقة , أنزل القوميون التابوتين ومشوا في طريق ضيقة بين أشجار الصنوبر .. تعالت الزغاريد من بنات المنظمات الفلسطينية اللواتي لففن رقابهن بالكوفية الفلسطينية , وصمّ رصاص البنادق الآذان , وضع التابوتان أمام القبرين المتلاصقين اندفعت شابة تناثر شعرها الطويل الأسود فوق وجهها وكتفيها وارتمت على التابوتين وهي تنادي بصوت مخنوق

مبحوح .. ناجي .. سحاب .. ناجي .. سحاب .. لماذا تركتماني وحيدة .. هذا ليس عدلاً .. وصارت ترغي بكلام غير مفهوم لاختفاء صوتها نهائيا هذه الشابة أبكت من قلبه صوان وبدأ الناس يتهامسون وسط غصّاتهم ومن هذه أيضاً ؟! تقدم أبو كامل بعينيه الدامعتين اللتين يكاد يخرج منهما الدم , وأمسك بيدها – يا ابنتي تعالي معي .. تعالي معي .. ما تفعلينه لا يفيد شيئاً .. ناجي وسحاب راحا إلى مكان لا ظلم فيه أبداً .. تعالي معي يا ابنتي – حاولتْ ألا تتحرك ولكنه رجاها .. وهو ينهضها فلم يستطع فتقدم أحد الشباب وساعده , ووريا الثرى وتقدم ممثل رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات وألقى كلمة ثم تقدم الرفيق الياس وأعتقد أنه أحد المحاضرين أيام المعسكر قال – ناجي .. يا أجمل الشهداء .. يا من حفرت بيدك صورتك في شغاف قلوب كل من التقيتهم , وأقسم لك أن ذكراك ستذهب معهم إلى القبر .. ناجي .. أجمل الشهداء مع السلامة .. أما أنت أيتها الأم التي نادراً ما تتكرر .. هنيئا لك ما اخترت ونعم الرفيق والصديق والابن

تقدمت حتى صرت بين ناجي وأمه سحاب
سحاب .. أيتها الأم التي لم يسمع بها البشر قبلك , والتي ستصبح حديث البشر والشجر والحجر .. أنا أثق أنك تسمعينني .. أنا سأبقى أعتذر منك حتى نلتقي

ناجي .. يا رفيق الروح .. أنت تسمعني .. إن كنت أجيد الكتابة .. ليس ؛ لأرثيك .. ناجي .. هذا آخر ما أمليتني .. فناجي خير من يرثي ناجي

أقرب الخطوات إليك قصيدة

ياه ..

كم صرت قاب قمرٍ وأبعد

كم صرت قاب شمسٍ وأبعد

وكيف صارت دربي إليك

قصيدة نازفة

غيمة هاربة

من كبد الريح

المرافئ التي تركت فيها مراكبك

كبّتْ ملحها في خبز القصائد

وأعلنت الرحيل

إلى شرفات عينيك

ثم تقدم الرفيق سمعان وودع ناجي وأمه بصوته المتهدج الحزين الذي كان يصمت أحيانا ليستطيع لفظ ما يود قوله – ناجي أيها الابن الذي ليس من صلبي .. جعلتَ كل من سمعوا بك آباءً وأمهات لك .. يا أجمل الشهداء .. فاجأتني عندما رأيتك أول مرة .. وفاجأتني في كل مرة كنت أراك فيها وها أنت تفاجئنا جميعاً .. بحبك .. بوفائك .. بنبلك .. بحب الناس لك .. بوفائهم لك .. لقد أعطيتنا دروساً في كل شيء .. شكراً لك لأنك شرفتني بأن أكون أباً لأجمل الشهداء .. شكراً لك أم ناجي أجمل الأمهات , التي قررت أن ترافق ابنها الشهيد حيث يذهب .. هنيئاً لك رفقة ناجي .. فهو أجمل الرفاق وأنبل الأصدقاء وأوفى الأوفياء

كنت أود أن أقول أي شيء لناجي أمام الناس كل الناس ولكنني لم أجد ما أقوله إلا آخر ما أملاني , ودعني سمعان على أمل اللقاء في نابية , غادر الناس بقي أبو كامل ويوسف (جوزيف) وأبو جورج وأم جورج وتلك الفتاة التي لم تعد تقوى على الوقوف , وامرأة طغى الحزن والتعب على جمال فائق ورجل وامرأة ومعهم ثلاثة أطفال , وأنا والبنات .. تقد م الرجل والمرأة والأطفال ووضعوا على كل قبر وردة وتراجعا وهم يهمون بالمغادرة تقدمت

الطفلة مني وهي تنظر إلى ثيابي
: يقولون إنك رفيقة ناجي

: قرفصت وانهالت دموعي وأنا أضمها .. نعم يا حبيبتي أنا رفيقة ناجي
: متى سيعود .. سلمي عليه وقولي له أليسار والياس وأدونيس (اشتاقولك)

خرست لم أجد ما أقوله , غادروا وتقدم أبو جورج وأم جورج وقفا لحظة وغادرا مطرقين , لم يلتفتا نحوي أبداً , ثم تقدم مني أبو كامل وسلم علي وعلى البنات

: يا ابنتي غياب ناجي خسارة , ولكن .. لا يستأخرون ولا يستقدمون .. هذا يومه .. سلامتكم .. ثم توجه نحو جوزيف .. وأنت أيها الرائع الطيب النبيل كن مكان ناجي بالنسبة لي ولا تنسني

: سأفعل

تقدمت تلك المرأة ووضعت باقتين من الورد كانت تحملهما على القبرين وقفت لحظة وهمت بالمغادرة , الحقيقة ظننت أنها صاحبة الأمانة .. تقدمت منها وسألتها هامسة

: سيدتي .. هل أنت جمانة ؟

: نعم

: الحقيقة ناجي ترك عند أمه أمانة لك أخبرني عنها قبل أن يفارقنا وأمه غادرت معه , فالأمانة صارت في عنقي ما رأيك أن نذهب وتأخذيها ؟

: شكراً لصدقك ووفائك

اتجهنا جميعا نحو تلك الفتاة

قرفصت بجانبها

: نحن هنا غرباء عن بعض أنا سوسن رفيقة ناجي ممكن تعرفينا عليك ؟

: أنا شيركا .. رفيقة سحاب وناجي

: تفضلي معنا

ساعدناها بالوقوف وذهبنا جميعا إلى غرفة ناجي , فتح جوزيف الباب ودخلنا , في زاوية كانت صندوقة تنك مقفولة بقفلين صغيرين أخرجت مفاتيح سحاب التي كانت في رقبتها وكما توقعت كانت مفاتيح الصندوقة بين مفاتيح الأم سحاب فتحت الصندوقة على وجهها كان مغلف كبير كتب عليه بخط يده (والدتي الحبيبة) وكأنه شطبها وكتب تحتها السيدة جمانة

: هذي حصتك وهذا أخر ظرف كان في جيبه وطلب أن نضمه للمغلف

أخذته وبكتْ بصمتْ وغادرتْ مسرعة

: والآن نحن سنذهب يا جوزيف ألن نلتقي بعد الآن ؟

: ستجديني دائما متى شئت ولكن لي طلب أخير عندك

: أطلب ولو كانت الروح ستأتيك

: قسّمي هذا بيني وبينك هذا دم ناجي – وأشار إلى بدلتي

بكينا جميعاً

: غداً يكو ن عندك ما طلبت .. يا شيركا قلت لي أنك كنت تعرفين الأم سحاب وناجي

: كما أعرف نفسي

: هذه مفاتيح الأم سحاب تصرفي بها كأمانة بين يديك

(40)

أين كانت ترف كل هذه العصافير ,

التي غادرت للتو قلب هذا العاشق ؟

وأين ستغرد إذا أغلق الشبابيك ؟

: تأخرت كثيراً يا ابنتي .. أنت شاحبة جداً ووجهك أصفر مثل الليمون !

: ها قد عدت يا أمي قضيت بعض الحاجيات ..أنا بخير ارهاق وتعب يزول يا أمي .. أنا بخير .. أين راما ؟

: أهلاً ماما .. تأخرتِ

: تعالي سنكلم بابا

: ألو .. مرحبا عمي .. كيفك وكيف خالتي

: .....

: الحمد لله .. بخير.. أين ميشيل ؟

: .....

: عمي عندما يأتي أبلغه أنني أريده

: .....

مجرد أن أغلقت الهاتف أتت أمي مندهشة

: ما الأمر يا ابنتي

: ماما أنا قررت أن أسافر مع ميشيل

: الله يوفقك يا ابنتي ويفتح بوجهك أبواب الكون

ملأت الفرحة قلب أمي وأسرعت لإخبار والدي وإخوتي ومن تراه في طريقها .. أنت سعيدة يا أمي .. وأنا لمن أشكو وأين أدلق دماء قلبي .. تأخرت عليك جداً يا ناجي .. كأنني ساهمت برحيلك يا حبة القلب , سأعيش مع ما تركت لي .. سأعيش لأجله .

هنأني والدي على قراري

: يا ابنتي سنفارقك وهذا صعب ولكن الأصعب أن تختلفي أنت وزوجك , الأصعب أن تعيشي أنت وهو كل في بلاد .. الله يكون معك

آه يا أبي لو كنت تعلم .. وجوده وغيابه بنفس السوية , وربما غيابه أهون , ولكن هذه البلاد لم يعد لي فيها مكان .. لن أعود إليها مرة أخرى حتى يعود ناجي

يا ناجي ما كتبته يغرق بحراً فكيف أنجو .. هل في الكون رجل يكتب لوالدته , لأبيه , لأخوته , الذين رحلوا وهو طفل , ولا يعرف حتى شكل وجوههم , ليطمئنهم عليه ويطمئن عليهم .. يكتب ويضع في صندوقه .. أين بقية الرسائل يا ناجي .. أيامك في ليالي البرد والجوع والقهر لمن تركتها .. وصلت يا حبة القلب .. فأنا أمك وحبيبتك ورفيقتك وصديقتك وأبوك وأخوتك ..

وأنا أسبح في الصفحات الأولى , رن الهاتف .. نادتني أمي

: ميشيل على الهاتف

: أهلاً .. أهلاً .. ميشيل أنا جاهزة للسفر متى شئت وفي أي وقت تشاء

.....
: يا ميشيل .. لماذا .. وكيف .. ولماذا .. لا تنفع أنا وجدت نفسي مخطئة وتراجعت أليس الاعتراف بالخطأ فضيلة ؟

.....
: أنا جاهزة منذ اللحظة